تأليف: جون ويندام

ترجمة: د.احمد تركي

Telegram:@mbooks90

رواية

يوم التريفيدات

الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع

عن المؤلف.

جون ويندام باركس لوكاس بينيون هاريس (1903-1969)، مؤلف انجليزي مُختص في أدب الخيال العلمي ونهاية العالم وما بعدها، قالت عنه صحيفة الجارديان: يكتب بخلفيات إنجليزية مؤسسة لقوة رواياته، فتُدرك أن نهاية العالم يُمكن أن تحدث في أي وقت، أو تحدث حاليًا في القرية المجاورة لك.

عمل في شبابة في عدة مهن منها الزراعة والمحاماة والدعاية والإعلان، ثم بدأ كتابة القصص القصيرة بغرض بيعها بداية من عام 1925، وحتى عام 1939 نجح في نشر العديد من أنواع القصص تحت عدد من الأسماء الحركية، ونشرها في الصحف والمجلات الأمريكية، وكتب كذلك بعض النوفيلات في مجال التحقيقات.

وفي أثناء الحرب عمل في أقسام الخدمة المجتمعية ثم في الجيش نفسه، وبعد الحرب عاد لكتابة القصص وقرر تجربة نوع معدل من الخيال العلمي أسماه (الفانتازيا المنطقية).

وباسم جون ويندام، كتب ونشر عدة روايات معروفة منها:

يوم التريفيدات The Day of the Triffids-1951 (تحولت إلى فيلمين عُرض أشهرهما عام 1962 ومسلسل قصير على قناة BBC عام 2009).

الكراكن يستيقظ The Kraken Wakes-1953.

الشرانق The Chrysalids-1955.

طيور الوقواق في ميدويتش The Midwich Cuckoos-1957 (تحولت إلى فيلمين عُرضا في عامي 1960 و1995، ومُسلسل تلفزيوني على قناة سكاي، عُرضوا جميعًا باسم قرية الملاعين Village of the Damned).

الحافز الخارجي The Outward Urge-1959.

مشكلة مع الحزاز Trouble with Lichen-1960.

تشوكي Chocky-1968.

أثرت كتاباته في العديد من المؤلفين المعروفين، فيقول ديفيد ميتشل مؤلف رواية كلاود أطلس عن الشرانق: واحدة من أهم روايات ما بعد المحرقة إثارة للتفكير، وتأثير الرواية واضح على حكاية الجارية لمارجرت أتوود، إذ تتحدث عن قمع النساء اللاتي تُنجبن أطفالًا متحورين، كما اعترفت أتوود بأن الأطفال الفضائيين الأذكياء من طيور الوقواق في ميدويتش يزورون أحلامها، ويقول ألكس جارلاند كاتب فيلم بعد 28 يوم Days Later 28 أن مشاهد بداية رواية يوم التريفيدات أثرت بشدة في كتابته.

النهاية تبدأ

عندما يأتي يومٌ تعرف أنه الأربعاء، ثم يبدو وكأنه الأحد؛ هُناك أمر خطير خطأ يحدث في مكانٍ ما.

أحسست بذلك منذ أول لحظة استيقظت فيها، ولكني بدأت التصرف بصورة ذكية أكثر لأني شككت في كل ما حولي، كل الاحتمالات تُشير إلى كوني على خطأ، لا بقية الناس، رغم أنني لم أفهم كيف يُمكن أن يحدث هذا.

انتظرت طويلًا، تُساورني الشكوك، ثم عثرت على أولِ دليلٍ موضوعي بالنسبة لي وقتها؛ ساعة بعيدة صامتة، انتظرت أن تذق لتُعلن أن الساعة هي الثامنة صباحًا، استمعت بارتياب وجدية انتظارًا كي تُعبر دقاتها عن حقيقة الوقت، وسرعان ما بدأت دقات الساعة بصرامة حاسمة وبُطءٍ مُمتعٍ إعلان أنها الثامنة بلا مُنازع.

لا شك هُنا أن الأمور تنحرف عن الاعتيادي.

الطريقة التي أضعت بها فرصة مُشاهدة نهاية العالم- حسنًا، أقصد نهاية العالم الذي عرفته لما يقرُب من ثلاثين عامًا- هي صُدفة مُجردة؛ مثل الكثير من فُرص النجاة عندما تُفكر بجدية في الأمر، ففي طبيعة الأمور تجدُ دائمًا العديدين من الناس نُزلاء في المستشفيات، وقد اختارني قانون المُتوسطات لأكون واحدًا منهم قبل أسبوع أو نحو ذلك، ربما لو دخلت المستشفى قبل ما حدث بأسبوع لما كتبت لكم ما أكتبه الآن؛ لأني لن أكون هنا، لكن الصدفة لم تلعب وحدها دورًا أدى لتواجدي في المستشفى في ذلك الوقت بالتحديد، بل أن عينيّ- ورأسي بالكامل في الواقع- كانت مُغطاة بالضمادات، ولكني كنت غاضبًا وقتها، أتساءل عما يحدث في تلك العاصفة الرعدية، ولأنني كنت في المستشفى لفترة كافية أعرف بها أن الساعة- وكذلك المُمرضة القائمة على شؤون الأفراد هُناك- هما الأكثر تقديسًا في المكان، فبدون الساعة لن يؤدوا واجباتهم بكفاءة، إذ يأتي هُناك شخص ما في كل ثانية ليتشاور معها بشأن الولادات والوفيات وجرعات الأدوية والوجبات والأضواء، ونوبات العمل والنوم والراحة والزيارات وارتداء الملابس والاستحمام، وكانت

Telegram:@mbooks90

أوامرها الرسمية هي ضرورة قيام أحدهم بغسل جسدي وإعدادي للجلوس خلال ثلاث دقائق بالضبط بعد الساعة السابعة صباحًا، وهذا أحد أفضل أسباب امتناني لوجودي في غرفة خاصة؛ هذا الإجراء الفوضوي في الجناح العام سيحدث قبل ساعة كاملة مُبكرة وغير ضرورية، لكن اليوم تستمر الساعات الموثوقة رغم نسب التفاوت بينهم مُستمرة في دق وتأكيد أنها الساعة الثامنة، في كُل الاتجاهات وفي كل ساعة، ومع ذلك لا يأتي أحد.

وبقدر كُرهي لعملية دعك جسدي بالإسفنج، واقتناعي بعدم جدوى أن تُرشدني يدٌ إلى دورة المياه مما يُمكن أن يقضي على فرصة أن يُحممني أحدهم، أقلقني عدم حدوث تلك العملية للغاية، إلى جانب أن هذا عادة موعد تناول الإفطار وأنا جائع.

كُنت سأشعر بالضيق حيال الأمر في أي صباحٍ سابق، لكن اليوم- هذا الأربعاء الثامن من مايو- هو مُناسبة ذات أهمية شخصية خاصة، تشوقت بشكلٍ مُضاعفٍ للتخلص من كل هذا الضجيج والروتين لأنه اليوم الذي سينتزعون فيه الضمادات.

تلمست الطريق بعض الشيء لتعثر يدي على الجرس، ضغطته وانتظرت لخمسِ ثوانٍ كاملة من الدقات، أُريد فقط أن أُسمعهم ما أفكر فيه، وبينما أنتظر الرد القصير المُستنفِذ للصبر والذي يجب أن تعود به دقات الجرس، وهكذا واصلت الاستماع.

أدركت أن اليوم بالخارج يبدو خاطئًا ومُختلفًا أكثر مما تصورت، الضوضاء التي أصدرتها- أو التي فشلت في إصدارها- تنتمي إلى يوم الأحد أكثر من يوم الأحد نفسه، وأعود مُجددًا لأُتأكد تمامًا من أنه يوم الأربعاء، مهما كان ما حدث له.

لماذا اختار مؤسسو مستشفى سانت ميرين أن ينصبوا مؤسستهم عند تقاطع طريقين رئيسين وفي موقع مكتب غالي الثمن، وتعريض أعصاب مرضاهم للتمزق المستمر؟ هذه نقطة ضعف لم أفهمها أبدًا بشكل صحيح، ولكن بالنسبة لأولئك المحظوظين بما يكفي لأنهم يعانون من شكاوى لا تتأثر بالتلفيات الناتجة عن حركة المرور الدائبة، هذه نقطة ليست في صالح المُستشفى، كون المرء يستطيع أن يكذب وهو غير بعيدٍ عن تدفقات الحياة إن جاز القول، عادةً ما ترتعد الحافلات المُتجهة إلى الغرب بطول محاولاتها التغلب على الأضواء المُنصبة على الزاوية؛ وفي كثير

من الأحيان يخبرهم وابل صرير المكابح الشبيه بقعقعة الخنازير أو صوت طلقات مُسدس كاتم للصوت ألا يفعلوا ذلك، ثم تدور حركة المرور المُتقاطعة بعد تحريرها وتهدر عندما تبدأ في نزول المنحدر، هُناك فاصل ثم توقف عام مُحير للغاية لواحدٍ في مثل حالتي، وهناك تجد للمُخالفات درجات تختلف حسب شناعة الألفاظ النابية الناتجة، ولا توجد أي فرصة لمريض في سانت ميرين لا في النهار ولا خلال معظم الليل في أن يشعر بأن جولات السيارات ستتوقف لمجرد أنه شخصيًا سيمر في وقتٍ مُحددٍ.

لكن هذا الصباح مُختلف، ومقلق وغامض، مُختلف فحسب، لا عجلات تهتز ولا حافلات تهدر ولا صوت لأي سيارة من أي نوع؛ لا فرامل ولا أبواق ولا حتى الأصوات النادرة الحدوث حين ترتطم حدوات الخيول بالأرض وهي تمر من حين لآخر؛ ولا صوت خطوات الأقدام المُرتبطة بالعمل التي ينبغي أن تكون هنا في مثل تلك الساعة.

وكلما أمعنت السمع بدا الأمر أكثر غرابة وكلما قل اهتمامي بالأمر، أعتقد أن عشر دقائق مرت عليّ وأنا استمع بدقة، سمعت خمس مجموعات من الخربطة وجر الأقدام والخطوات المُترددة، وثلاثة أصوات بعيدة تصرخ بما لم أفهمه، ونحيب امرأة أصابتها الهيستيريا، لم أسمع هديل حمامة ولا زقزقة عصفور، لا شيء سوى أزيز الأسلاك المُتراقصة في مهب الريح.

بدأ شعور سيئ يزحف بداخلي، وهو نفس الإحساس الذي اعتدت الشعور به أحيانًا في طفولتي؛ عندما أتخيل رُعبًا من نوعٍ ما يكمُن في زوايا غرفة النوم المُظلمة؛ عندها لا أجرؤ على إخراج قدمي خوفًا من أن يأتي شيء ما من تحت السرير ويُمسِك بكاحلي؛ ولا أجرؤ على الوصول إلى مفتاح النور خشية أن تستفز حركتي شيئًا مُخيفًا فيقفز على وجهي، كان عليّ أن أُحارب هذا الشعور كما اضطُررت لفعل ذلك وأنا طفل وسط الظلام، ولم يكن الأمر أسهل، إنه لأمرٌ مدهش أنك لا تكبر فعليًا حينما يتعلق الأمر بالاختبارات؛ فالمخاوف الأساسية تستمر في السير معك، تنتظر فرصتها بل وكادت أن تنتصر لمُجرد أن عينيّ مُغطاة بالضمادات، وأن حركة المرور

متوقفة.

عندما استجمعت شتات نفسي قليلًا، جربت النهج العقلي، لماذا تتوقف حركة المرور؟ عادةً لأن الطريق مُغلق لإجراء إصلاحات مثلًا، هذا بسيط للغاية، لكن المُشكلة هنا أن التراتبية العقلية ستذهب لما هو أبعد من ذلك، فأنا لا أسمع أي أزيز ضعيف لحركة المرور البعيدة، ولا صافرات القطارات، ولا صخب الزوارق، لا شيء إطلاقًا حتى بدأت الساعات تدق الساعة الثامنة والربع.

هُناك الكثير من الضمادات، أردت انتزاعها لكن الأهم من ذلك هو أني كُنت خائفًا من المحاولة، فبعد العمى الكامل المُستمر لأكثر من أسبوع تخاف من استغلال الفُرصة لاستخدام البصر بطريقة خاطئة تؤذيك، صحيحٌ أنهم اعتزموا إزالة الضمادات اليوم، لكن يُفترض أن يفعلوا ذلك في ضوءٍ خافتٍ خاص، وسيبتعدون عني فقط إذا كان فحص عيني مُرضيًا، لم أعرف ماذا سيحدث، ربما سيضعُف بصري بشكل دائم، أو ربما لن أستطيع الرؤية أبدًا.

ضغطت زر الجرس مرة أخرى، ساعد هذا في طمأنتي قليلًا، لا أحد هنا على ما يبدو يهتم بالأجراس، وهنا بدأت أشعر بالألم والقلق، مُهينٌ أن تكون مُعتمدًا على الأخرين، والأسوأ ألا يكون لديك من تعتمد عليه، تضاءل صبري لحظة تلو لحظة، وقررت أن أقوم بأي فعلٍ حيال ذلك.

سأصيح في الممر وأثير الجحيم وأدعوه ليأتي إلى هنا، وربما يظهر شخصٌ ما ليُخبرني بما يحدث، أزحت الملاءة ونهضت من فوق السرير، لم أر الغرفة التي سكنت فيها من قبل لكن لدي فكرة جيدة إلى حد ما عن موضع الباب، ولم يكُن العثور عليه سهلًا في الحقيقة، وبدا أن هُناك العديد من العوائق المُحيرة وغير الضرورية، تجاوزت هذا على حساب أصبع قدمي الذي ارتطم بشيءٍ صلبٍ ما وضرر طفيف أصاب ساقي، اندفعت إلى الخارج وصحت:

- أُريد طعام الإفطار، الغرفة الثامنة والأربعون!

لم يحدث أي شيء للحظة، ثم ظهرت الأصوات كلها وهي تصرخ معًا وفي نفس

التوقيت، وكأن هُناك المئات منهم، ولم أسمع كلمة واحدة بوضوح، وكأني أسجل ضوضاء جماهير أو حشد من الناس يُسيئون التصرف، شعرت بوميض مُرعب، تساءلت عما إذا كانوا نقلوني إلى مُستشفى للأمراض العقلية أثناء نومي، وأني لستُ في مُستشفى سانت ميرين، هذه الأصوات ليست طبيعيّة، فأغلقت الباب على عجلٍ وتحسست طريقي ببطء نحو الفراش، في تلك اللحظة بدا أن السرير هو أكثر الأشياء أمنًا وراحة في بيئتي المُحيرة كُلها، وللتأكيد على ذلك فاجئني صوت أجبرني على سحب الملاءات نحوي، ومن الشارع بالأسفل ارتفعت صرخة مُرعبة شديدة الذهول، تكررت لثلاث مرات ثم خفتت وتلاشت بعيدًا رغم أن أثرها لا يزال يرتعش في الهواء.

ارتجفت، وشعرت بالعرق على جبهتي يشك جلدي بإبرٍ حادة تحت الضمادات، علمت أن شيئًا مخيفًا ومروعًا يحدث، لم أستطع تحمُل العزلة والعجز أكثر من ذلك، عليّ أن أفهم ما يدور حولي، حركت يديّ نحو ضماداتي ثم توقفت أصابعي عند دبابيس الأمان.

هل أفترض أن علاجي لم ينجح؟ أو أفترض أنه عندما أخلع الضمادات سأظل غيرُ قادرٍ على الرؤية؟ سيكون هذا أسوأ من ذاك، أسوأ بمئة مرة، أفتقر إلى شجاعة أن أكون وحدي وأكتشف أنهم لم ينقذوا بصري، ولو كانوا فعلوا ذلك، فهل من الآمن إبقاء عينيّ مكشوفة؟

تراجعت وأسقطت يديّ واستلقيت، غضبت من نفسي ومن المكان فصدرت مني شتائم سخيفة.

مر بعض الوقت قبل أن أستعيد رباطة جأشي، وبعد قليلٍ وجدت نفسي أتقلب في أفكاري وذهني مرة أخرى بحثًا عن تفسيرٍ مُحتمل، فلم أجد شيئًا، لكنني أصبحت مُقتنعًا تمامًا أنه يوم الأربعاء رغم كل الهدوء والفوضى والمُفارقات النابعة من الجحيم، لأن اليوم السابق كان ملحوظًا معروفًا، ويمكنني أن أقسم أنه لم تمر أكثر من ليلة واحدة منذ ذلك اليوم.

ستجد مكتوبًا في السجلات أنه في يوم الثلاثاء السابع من مايو، تقاطع مدار

كوكب الأرض مع سحابة من حطام المُذنبات، يُمكنك تصديق ذلك إذا أحببت كما فعل الملايين، لا أستطيع إثبات أي شيء ولم أكن في حالة تسمح بأن أرى ما حدث بنفسي؛ لكن لدي أفكاري الخاصة، وكل ما أعرفه بالفعل عن هذا الحدث هو أنني اضطُررت لقضاء المساء في سريري، والاستماع إلى روايات شهود العيان الذين زعموا أنهم رأوا أكثر المشاهد السماوية روعة على الإطلاق. ومع ذلك، وحتى بدأ الأمر فعليًا، لم يسمع أحد كلمة واحدة عن هذا المُذنب القادم المُفترض أو عن حُطامه.

لماذا قاموا ببث الظاهرة؟ مع الأخذ في الاعتبار أن كل من يستطيع المشي أو الركض أو أن يُحمل خارج الأبواب أو عند النوافذ سيتمتع بأكبر عرضٍ مجاني للألعاب النارية على الإطلاق، ولا حاجة لعرضها في التلفاز أصلًا، لا أعرف السبب ولكنهم فعلوا ذلك على أي حال، وساعد هذا في إقناعي بما يُعنيه ألا تستطيع الإبصار، إذا لم ينجح العلاج فمن الأفضل إنهاء الأمر كله بدلًا من الاستمرار على هذا النحو الأعمى.

أفادت النشرات الإخبارية النهارية أن ومضاتٍ خضراء ساطعة وغامضة شوهدت في سماء كاليفورنيا في الليلة الفائتة، وقد حدثت الكثير من الأمور في كاليفورنيا فلم يتوقع أحد أن ينتشر الخبر بصورة كبيرة، ولكن مع ورود المزيد من التقارير وظهور حُطام المذنب، هنا ضرب الخبر وجوهنا.

وصلت روايات من جميع أنحاء المحيط الهادئ عن ليلة مُضيئة ساطعة بسبب أمطار نيازك خضراء يُقال إنها تدور حولنا، وكأن السماء بأكملها تدور، وهكذا كان الأمر عندما تفكر فيه.

ومع تحرُّك الليل غربًا، لم ينخفض التألق بأي حالٍ من الأحوال، أصبحت الومضات الخضراء المُتكررة مرئية إلى ما قبل حلول الظلام، قدم المُذيع سردًا للظاهرة في نشرة الساعة السادسة ونصح الجميع بألا يُفوت أحد هذا المشهد الرائع، وذكر أيضًا أنه يتدخل بشكلٍ واضحٍ وخطير مع استقبال الموجات القصيرة على مسافاتٍ بعيدة، لكن الموجات المتوسطة التي ستحمل التعليق المُستمر لن تتأثر، وهو يعني

البث التلفزيوني بالطبع، لا أرى أن ما قاله ضروري، وبالمناسبة، تحمس الجميع في المستشفى لذلك، ولم أُفكر في أدنى احتمال لفقدان أي شخص، باستثناء نفسي ربما.

أتت الممرضة التي تُحضر لي العشاء لتُخبرني بكل شيء عن الظاهرة، وكأن تعليقات الراديو لم تكن كافية، قالت:

- السماء مليئة بالنجوم المُتساقطة، كلّها خضراء زاهية، تجعل وجوه الناس تبدو مُروعة ومُخيفة، الجميع بالخارج يُراقبونها، والضوء أحيانًا يبدو وكأنه نور النهار، الاختلاف فقط في كونها ألوانٍ خاطئة في توقيتها، وبين الحين والآخر تظهر واحدة كبيرة ساطعة لدرجة تجعل النظر إليها مؤلمًا، وكأنها الشمس نفسها، إنه مشهد رائع، يقولون أنه لم يكن هناك شيء مثل هذا من قبل، من المؤسف أنك لا تستطيع رؤيته، أليس كذلك؟

وافقتها بقولي:

- بالفعل.

فتابعت قائلة:

- سحبنا الستائر في العنابر حتى يتمكن المرضى جميعًا من رؤيتها، لو لم يكن لديك تلك الضمادات على وجهك، لأمكنك رؤية مشهدٍ رائعٍ لها من هنا.

فقلت:

- أوه.

- ولكن الوضع أفضل في الخارج، يقولون إن آلاف الأشخاص خرجوا إلى الحدائق والأراضي الواسعة ليشاهدوا كل شيء، ويُمكنك رؤية الناس على جميع الأسطح واقفين مُعلقين أنظارهم لأعلى.

سألتها بصبر:

- كم من الوقت يتوقعون استمراره؟

- لا أعرف، يقولون إن الأجواء ليست مُشرقة الآن كما كانت في أماكن أخرى، ومع ذلك، حتى لو أزلت الضمادات اليوم فلا أتوقع أنهم سيسمحون لك بمُشاهدتها، سيتعين عليك أن تأخذ الأمور برفق في البداية، وستكون بعض الومضات ساطعة للغاية، إنهم.. أووه!

- لماذا أووه؟

- كان هذا رائعًا، جعل الغرفة بأكملها خضراء، مؤسف أنك لا تستطيع رؤيته.

هززت رأسي موافقًا وحاولت الاستماع إلى الراديو، لكن الفتاة المُذيعة أصدرت نفس أصوات الأووه والتأوهات، بمساعدة نغمات لطيفة تهتز حول كلمات مُتكررة مثل: (مشهدٍ رائعٍ)، و(ظاهرة فريدة)، حتى بدأت أشعر أنها حفلة يحضرها كل الناس في العالم، وأنا الوحيد غير المدعو.

ليس لديّ أيِ خيارٌ أخر من وسائل الترفيه؛ لأن نظام راديو المستشفى يبث برنامجًا واحدًا فقط، فخذه أو أتركه، وبعد قليل أدركت أن العرض بدأ في التلاشي، نصح المذيع كل من لم يرَ الحدث أن يُسرع كي يفعل ذلك أو يندم طوال حياته على ما فاته.

يبدو أن الفكرة العامة هي إقناعي بأنني أفوت الشيء الذي ولدت من أجل مُشاهدته، لذا في النهاية سئمت الأمر وأطفأت الراديو، آخر شيء سمعته هو أن العرض السماوي يتضاءل بسرعة الآن، وأننا سنُصبح خارج نطاق سقوط الحطام خلال ساعات قليلة.

ليس لدي أدنى شك أن كل هذا قد حدث في الليلة السابقة، ولسببٍ وحيد، لا بد أن أكون جوعانًا أكثر مما كنت عليه، حسنًا، ماذا حدث إذًا؟ هل قضت المستشفى كلها، والمدينة بأكملها، مثل تلك الليلة لدرجة أن أحدًا لم يعُد من السهرة بعد؟

وفي هذه اللحظة قطع حبل أفكاري دقات جوقة الساعات، القريبة والبعيدة، لتُعلن أنها التاسعة، وللمرة الثالثة لعبت لعبة الجحيم مع الجرس، وبينما أنتظر سمعت نوعًا من الهمهمات خارج الباب، تألفت من أنينٍ وانزلاقات وخبطات، يتخللها أحيانًا صوتٌ

يعلو لكنه بعيد.

لكن لم يأتِ أحدٌ إلى الغرفة.

أتراجع مرة أخرى، الأوهام الطفولية السيئة تصعد إلى أسفل عنقي، وجدت نفسي في انتظار أن يُفتح الباب غير المرئي وأن تأتي الأشياء الفظيعة ولو مُبطنة أو مخفية، في الواقع لم أكن مُتأكدًا تمامًا من أن شخصًا أو شيئًا موجودٌ بالفعل داخل الغرفة ويتجول فيها خلسة.

لا يعني هذا أنني صدقت هذا النوع من الهواجس بالفعل، لكن تلك الضمادات اللعينة فوق عينيّ، ومزيج الأصوات التي صرخت في وجهي أسفل الممر تُزيد من فرص هياجي وعصبيتي، وبمجرد أن تأتي هذه الردود لن أستطع منع نفسي، ولقد تجاوز من بالخارج مرحلة يُمكنني فيها إبعادهم عن طريق التصفير، ثم وصلت أخيرًا إلى السؤال المُباشر: هل أنا خائفٌ أكثر من تعريض بصري للخطر بخلع الضمادات، أم من البقاء في الظلام مع تعاظم عصبيتي كل دقيقة؟

ولو أن يومًا أو يومين مرا بالفعل، لا أعرف كيف سأتصرف، يُحتمل أن تحدث نفس النهاية ولكن يُمكنني على الأقل أن أقول لنفسي: حسنًا، لن أتضرر كثيرًا إذا استخدمت المنطق السليم، فمن المقرر أن تُنتزع الضمادات اليوم، وبالتالي، سأُخاطر بنزعها.

سأضع أمرًا واحدًا فقط في حُسباني، لن أُمزقهم بعُنف، أملك الروية والتحكم في النفس كي أترك السرير وأسحب أول طرف الظل على وجهي إلى أسفل قبل أن أبدأ في فك دبابيس الأمان.

وبمجرد خلعي للضمادات اكتشفت أنني أستطيع الرؤية في العُتمة، فشعرت براحة لم أحس بمثلها من قبل، وكان أولُ شيء فعلته بعد أن أكدت لنفسي عدم وجود أشخاص أو أشياء خبيثة كامنة تحت السرير- أو في أي مكان آخر- هو وضع كرسي تحت مقبض الباب لأشدّه، بإمكاني أن أُسيطر على نفسي بشكل أفضل، واستغرقت ساعة كاملة أعتاد فيها على ضوء النهار، ثُم وبفضل الإسعافات الأولية السريعة

والمُعالجة الجيدة المُتمهلة، أصبحت عيناي على خيرٍ مما يُرام.

لكن أحدًا لم يأتِ. وجدت زوجًا من النظارات الزجاجية الداكنة في الرف السفلي للطاولة على جانب السرير، واكتشفت أنهما وُضعا بعناية لاحتمالية احتياجي إليهما، ارتديتها بحذر قبل أن أقترب من النافذة، لم يُصمم الجزء السفلي منها للفتح وبهذا تم تقييد المشهد، حدقت لأسفل ومن الجانبين، فرأيت شخصًا أو اثنين يتجولان لكن بطريقة غريبة حمقاء تبدو بلا هدف وتبتعد عن الشارع نفسه، لكن ما أدهشني أكثر هو حدة تفاصيل كل ما أراه، حتى منظر أسطح المنازل البعيدة، ثم لاحظت أن لا مدخنة- كبيرة كانت أو صغيرة- يخرج منها أي دُخان!

وجدت ملابسي مُعلقة ومُرتبة في خزانة، وشعرت أنني إنسان طبيعي بمجرد ارتدائي لها، وجدت بعض السجائر كذلك فأشعلت واحدة ولا أظن أن أحدهم سيُمانع، وبدأت أدخل في حالة ذهنية لا أُدرك فيها سبب شعوري بالذعر، رغم أن كل شيء لا يزال غريبًا بما لا يُمكن إنكاره.

من الصعب أن يُعيد المرء التفكير فيما كان عليه في تلك الأيام، يجب أن نكون أكثر اعتمادًا على أنفسنا الآن، حينها كان هُناك الكثير من الروتين؛ والأمور مُترابطة للغاية، كلُ واحدٍ منا يؤدي دوره الصغير في المكان المناسب وباستمرار، بحيث يسهُل الخلط بين العادات والتقاليد في القانون الطبيعي.

عندما ينقضي نصف العمر تقريبًا في مفهوم واحد للنظام، فإن إعادة توجيه الغرض من الحياة ليست مهمة مُدتها خمس دقائق، وبالنظر إلى شكل الأشياء بعد ذلك فإن التكلفة التي لم نعرفها ولا نهتم بمعرفتها عن حياتنا اليومية ليست مُذهلة فحسب، بل صادمة، لم أعرف أي خبرة عملية عن أشياء عادية مثل كيفية وصول الطعام إلينا، أو من أين تأتي المياه العذبة، وكيف يتم حياكة وصنع الملابس التي نرتديها، وكيف يعمل الصرف الصحي للمُدن بما يُحافظ على صحتها، أصبحت حياتنا مُعقدة بسبب وجود المُتخصصين، كلهم يأتون لأداء وظائفهم الخاصة بكفاءة أكثر أو أقل، ويتوقعون من الآخرين أن يفعلوا الشيء نفسه، هذا الأمر لا يُصدق، لذلك من الممكن أن تنتصر هذه الفوضى الكاملة على المستشفى، مُتأكدٌ الآن من وجود شخص

ما في مكان ما يُمكن الوصول إليه، وللأسف هو شخص نسي كل شيء عن الغرفة رقم ثمانية وأربعون والقاطن فيها. ومع ذلك، عندما فتحت الباب ونظرت إلى الممر، أدركت أنه مهما حدث من سوء فقد أثر بشكل كبير على كل شيء أكثر مما أثر على الشخص الوحيد في الغرفة رقم ثمانية وأربعون.

لم أرَ أي أحدٍ على مد بصري وقتها، رغم أنني سمعت أصواتٍ وهمهماتٍ تنتشر، وصوت خطوات مُتقطعة كذلك، وصوت بالأعلى يتردد بصدى أجوفٍ في الممرات، هذه المرة لم أصرخ، مشيت بحذر، لماذا بحذر؟ لا أعلم، لكن هُناك شيء ما تسبب في ذلك.

من الصعب في ذلك المبنى الذي تُردد جُدرانه وممراته الصدى معرفة مصدر الأصوات، وجدت عند نهاية الممر نافذة فرنسية (1)واسعة مُعتمة، لم أرها في البداية، يُغطيها ظل سياج شُرفة من فوقها، فذهبت في الاتجاه الآخر، ومع اقترابي من الزاوية وجدَت نفسي خارج جناح الغرف الخاصة وفي ممرٍ أوسع، وفي نهاية الممر الواسع رأيت باب جناحٍ أخر، فتحت الباب وكان الوضع مُظلمًا للغاية بالداخل، واضح أن الستائر التي سحبوها أثناء عرض الليلة السابقة عادت إلى انسدالها، فصِحت مُتسائلًا: أختاه؟

أجابني صوت رجل:

- إنها ليست هنا.

- وأين هي؟

- لم تكُن هنا لساعاتٍ وردية داكنة طويلة، هل يُمكنك سحب الستائر الوردية الداكنة يا صاح؟ دعنا نُدخل بعض الضوء، لا أعرف ما الذي حل على المكان المُلطخ بالدماء هذا الصباح.

- حسنًا.

المكان بأكمله غير مُنظم، ولا أرى سببًا وجيهًا يجعل المريض التعس يكذب عليّ

وسط هذا الظلام. سحبت الستائر عن أقرب نافذة وسمحت بدخول شعاعٍ من ضوء الشمس الساطع، كان عنبرًا جراحيًا يضم حوالي عشرين مريضًا كلهم طريحي الفراش؛ إصابات ساقٍ في الغالب؛ وعدة أطراف مبتورة حسبما أرى.

قال نفس الصوت:

- توقف عن العبث بهم يا رفيق واسحبهم للخلف.

استدرت ونظرت إلى الرجل الذي يتكلم، كان داكن البشرة قوي البنية، يجلس على السرير ليواجهني مُباشرة، بدت عيناه وكأنهما تحدقان في عينيّ؛ وكذلك فعل جاره والرجل الذي يليه، استغرقت بضع لحظات لأُحدق فيهم بدوري مُحاولًا تسجيل قسماتهم في عقلي، ثم قلت:

- أنا.. أقصد هم.. يبدو أن الستائر عالقة، سأجد شخصًا ليرى الباقين منكم.

وهكذا هربت من العنبر. وجدت المصعد مُعطلًا، فنزلت السُلم، في الطابق التالي استجمعت شتات نفسي وتشجعت كي أستطلع جناحًا آخر؛ الأسرة هناك غيرُ مرتبة، ظننت في البداية أن المكان خالٍ، لكنه لم يكن كذلك، رأيت رجلين مُستلقيين في ثياب النوم على الأرض، أحدهما غارقٌ في الدماء بفعلِ شقٍ جراحي لم يلتئم، والآخر بدا وكأنه أُصيب بنوعٍ من الاحتقان والتضخم في رقبته وجسده، وكلاهما كانا ميتين تماما.

عُدت إلى السُلم، لأُدرك أن معظم أصوات الخلفية التي أسمعها طوال الوقت تأتي من الأسفل، أصبحت الآن تأتي من أعلى، بل وتقترب، ترددتُ للحظة، ولكن لا شيء أمامي سوى الاستمرار في شق الطريق إلى أسفل.

كدتُ أتعثر أثناء ولوجي إلى المنعطف التالي بسبب رجل يفترش الطريق في الظل، وبالأسفل رأيت شخصًا ما تعثر فسقط وكسر رأسه على الدرجات الحجرية أثناء هبوطه. وفي الأخير وصلت إلى المُنعطف الأخير حيث يُمكنني الوقوف والنظر إلى الصالة الرئيسية بالأسفل، ويبدو أن كل شخص في هذا المكان يقدر على الحركة قد جاء إلى هنا بطريقة غريزية، إما للبحث عن مُساعدة أو للخروج، أظن أن بعضهم

خرجوا لأن أحد أبواب المدخل الرئيسي كان مفتوحًا على مصراعيه، لكن مُعظم المتواجدين بالأسفل لم يعثروا عليه!

هُناك حشد كثيف من الرجال والنساء، كُلهم تقريبًا يرتدون ملابس النوم الخاصة بالمستشفى، يتجولون ببطء، بلا هُدى ولا حول ولا قوة، ضغطت تحركاتهم وتزاحمهم بقسوة ضد الزوايا الرخامية أو البوزات الزخرفية عند أطراف المبنى، بعضهم انسحق بشناعة تخطف الأنفاس على الجدران، وبين حين وآخر يسقط أحدهم والاحتمال الأكبر ألا يُسمح له بالوقوف مرة أخرى بسبب الضغط المُستمر للسائرين بغير هُدى.

بدا المكان مثل.. حسنًا، ربما رأيت بعض رسومات جوستاف دوريه(2) التي تصور الخُطاة في الجحيم، لكن دوريه لم يستطع تضمين الأصوات؛ النحيب البائس والأنين الغامض والبكاء اليائس، لم أتحمل الأمر أكثر من دقيقة، فهربت إلى أعلى السُلم. شعرت بأن علي فعل شيء حيال الأمر؛ أقودهم إلى الشارع مثلًا، وأضع حدًا على الأقل لهذا الطحنَ البطيء المروع، نظرة واحدة كافية لأعرف أنني لا أستطيع شق طريقي إلى الباب وإرشادهم إلى هناك، وإذا كنت سأفعل ذلك، إذا قمت بإخراجهم بالفعل، فماذا بعد ذلك؟

جلست على درجة سُلم لفترة من الوقت، ووضعت رأسي في كفيّ، أستمع لهذا الصوت المُتراكم الشنيع طوال الوقت، تحركت لأبحث عن سُلم أخر حتى وجدته؛ كان سُلم خدمات ضيق أودى بي إلى الفناء الخارجي عبر طريق خلفي.

في الحقيقة أظن أني لا أقص عليكم هذا الجزء من القصة بصورة جيدة، لأن الأمر بأكمله غير مُتوقع وصادم لدرجة جعلتني لا أحاول تذكُر التفاصيل مُتعمدًا، شعرت أني أعيش كابوسًا أحاول بيأس الخروج منه، باحثًا عن الراحة وإيقاظ نفسي، وعندما خرجت إلى الفناء لم أُصدق ما رأيته، شيءٌ واحدٌ تأكدت منه تمامًا، سواء في الواقع أو الكابوس؛ أني أحتاج إلى الشراب، وفي الحقيقة نادرًا ما احتجت إلى الشراب من قبل.

لم أرَ أحدًا في نهاية الشارع الجانبي الصغير بعد بوابات الفناء، ثم لمحت حانة في الجهة المقابلة اسمها معركة العَلمين، رأيت لوحة تحمل صورة مشهورة للفيكونت

مونتجومري(3) مُعلقة في قوس حديدي، والأبواب أسفل الصورة مفتوحًا. دخول الحانة منحني إحساسًا مُريحًا بالعودة إلى الحياة الطبيعية، هي حانة مُبتذلة ولا تختلف عن عشرات الحانات الأخرى، ورغم أني لم أجد أحدًا هنا، لكن هناك ما يحدث عند البار في الصالون خلف الزاوية، سمعت تنفسًا ثقيلًا، وغطاء زجاجة يُنتزع مع فرقعة، ثم أحدهم يقول:

- جِن(4)؟ اللعنة، فليذهب الجِن إلى الجحيم.

وأعقب ذلك صوت تحطم الزجاجة، وضحك الرجل ضحكة مكتومة، فقُلت: أنت! أُريد شرابًا.

صمت ثم قال يستفسر بحذر:

- من أنت؟

- أنا من المستشفى، وأريد شرابًا.

- لا أتذكر صوتك، هل يُمكنك أن ترى؟

- نعم.

- حسنًا، فلتتجاوز البار يا دكتور كرمًا للرب، وأعثر لي على زجاجة ويسكي.

- أنا دكتور بما يكفي لفعل ذلك.

قفزت فوق البار ثم دُرت حول الزاوية، كان رجُلًا ذو بطنٍ كبير، أحمر الوجه وشاربه فظ أشيب، يرتدي سروالًا وقميصًا بدون ياقة، وكان ثملًا للغاية، بدا مترددًا؛ هل سيفتح الزجاجة التي يحملها أم سيستخدمها كسلاح، قال بحذر:

- أنت لست طبيبًا، من أنت؟

- كُنت مريضًا، لكنني بحاجة إلى مشروب مثل أي طبيب، وما في يدك هو جِن مرة أخرى.

- حقًا إنها كذلك، الجن اللعين.

قالها وألقى الزجاجة بعيدًا لتمر عبر النافذة وتحطمها في حادثة مليئة بالحيوية، فقلت له:

- أعطني مفتاح سدادات الزجاجات هذه.

وأنزلت زجاجة ويسكي من الرف وفتحتها، ثم صببت له كوبًا، واخترت لنفسي زجاجة براندي صلبة مع القليل من الصودا، صببت كوبًا لنفسي ثم آخر، بعدها توقفت يدي عن الارتجاف إلى حدٍ بعيد، نظرت إلى رفيقي فرأيته يصُب لنفسه الويسكي من زجاجته بأناقة، فقلت له: ستثمل.

توقف وأدار رأسه نحوي، بإمكاني أن أُقسم أن رأني حقًا وهو يقول بازدراء:

- أثمل! تبًا، أنا ثَمِل بالفعل.

كان مُحقًا تمامًا لدرجة جعلتني لا أعُلق على كلامه، صمت للحظة ثم قال:

- يجب أن أثمل ، سأثمل إلى الأبد.

ثم انحنى نحوي وقال:

- أتعرف؟ أنا أعمى، هذا ما أنا عليه، أعمى كخفاش، والجميع الآن عميان كالخفافيش، إلا أنت، أخبرني؛ لماذا لست أعمى كخفاش؟

- لا أعرف.

- إنه المُذنب الدموي، هو سبب ذلك، النجوم أطلقت علينا النيران الخضراء، والآن الكل عميان مثل الخفافيش، هل رأيت النجوم المُطلقة للأخضر؟

- كلا.

- ها أنت، أنت لم ترهم وبالتالي أنت لست أعمى، لكن الجميع رأوهم، كل الخفافيش العمياء، المُذنبات الدموية هي السبب كما أقول.

سكبت لنفسي كأسًا ثالثًا من البراندي، وتساءلت عما إذا كان يقول شيئًا ذو فائدة، فكررت جُملته: الكل عميان؟

- نعم، الكل كذلك، ربما في كل أنحاء العالم، ما عداك.

- وكيف تعرف ذلك؟

- هذا سهل، استمع!

وقفت إلى جواره، مُستندين على بار الحانة القذر، واستمعنا، لكن.. ماذا أسمع بالضبط؟ لا شيء سوى حفيف جريدة تتطاير في الشارع الخالي، هذا الهدوء المُحيط بكل شيء لم يتواجد في هذا الجزء من العالم منذ ألف عام وأكثر، قال الرجل:

- هل تفهم ما أعنيه؟ هذا واضح جدًا.

- نعم، نعم أفهم ما تعنيه.

قررت أن أرحل من هنا، لم أعرف إلى أين سأذهب لكن لا بد أن أفهم المزيد أولًا عما حدث.

- هل أنت مالك الحانة؟

- وماذا لو كنت كذلك؟

- يجب أن أدفع لشخص ما ثمن ثلاثة أكواب براندي مزدوجة.

- آه، انسى ذلك، لكن انتظر هنا.. أو.. لا بأس انس الأمر، لا، دعني أقول لك، أتعرف لماذا؟ لأن ما جدوى المال لرجل ميت؟ وفي الحقيقة أنا جيد فيما أفعل؛ شرب المزيد.

بدا لي أنموذجًا قويًا جدًا بالنسبة لعمره، فسألته:

- وما فائدة العيش أعمى كالخفاش؟

- هذا ما قالته زوجتي، وكانت محقة، كانت شجاعة أكثر مني فحسب، لكن عندما اكتشفت أن الأطفال مكفوفين مثلي، ماذا فعلت؟ نامت إلى جوارهم في سريرنا معها وأشغلت الغاز، هذا ما فعلته، لم أكُن شجاعًا بالقدر الكافي لأبقى معهم، لقد اقُتطفت؛ زوجتي، أفضل ما لدي، ولكني سأستردها قريبًا، سأعود إلى هُناك قريبًا، عندما أثمل للدرجة المطلوبة.

ماذا لدي لأقوله؟ ما قلته لم يُفده بشيء باستثناء إفساد مزاجه، شق طريقه في النهاية إلى الشلم واختفى بالأعلى، ولم تُفارقه الزجاجة، ولم أحاول منعه ولا اتباعه، شاهدته يذهب، ثم تخلصت من آخر زجاجة براندي أمامي، وخرجت أسير في الشارع الصامت.

قدوم التريفيدات

دعونا لا ننسى أن هذا سجل شخصي يحتوي على قدر كبير من الأمور التي اختفت للأبد، لكن لا يُمكنني قول ما أريده بأي طريقة إلا استخدام الكلمات والأسماء التي اعتدنا استخدامها لتلك الأشياء الذاهبة، ولنتمكن من الإعداد الصحيح لهذا السجل الشخصي ينبغي العودة إلى أبعد بكثير من النقطة التي بدأت عندها.

اسمي بيل ماسِن، عندما كنت طفلًا عشت مع والدي وأمي في ضاحية جنوبية في لندن، منزلنا كان صغيرًا ويدعم والدي وجوده بالذهاب يوميًا إلى مكتبه في إدارة الإيرادات الداخلية، والعمل في حديقة صغيرة وبجهدٍ أكبر خلال فصل الصيف. لا شيء يُميزنا عن عشرة أو اثني عشر مليون شخص آخرين يعيشون في لندن وما حولها في تلك الأيام.

رغب والدي أنِ أصبح محاسبًا، لكن المدرسين أصروا أن عقلي لا يحب الأرقام، ظل والدي يقرأ تقارير مدرستي بحزن، عمله في الإيرادات والحسابات والدفاتر وعواميد وقوائم الأرقام جعلوا عقله يعمل بهذه الطريقة وحدها: عقل لا يحب الأرقام + درجات منخفضة = لا يعرف شيئًا عن التمويل = لا يوجد مال.

- أنا لا أعرف حقًا ماذا سنفعل بك، ماذا تريد أن تفعل؟

وحتى بلغت الرابعة عشرة من عمري كنت أهز رأسي مُدركًا لنقصي وأعترف بأنني لا أعرف ماذا سأفعل.

الشكل الخارجي للتريفيدات هو ما حسم الأمر بالنسبة لي، وفي الواقع فقد فعلوا أكثر من ذلك بكثير؛ وفروا لي وظيفة ودعموني ماليًا وكادوا يقتلونني في أكثر من مناسبة، ومن ناحية أخرى يجب أن أعترف أنهم أنقذوا حياتي، لأن لسعة تافهة منهم أوصلتني إلى المستشفى أثناء حادثة حرجة تُسمى (حُطام المُذنب).

نجد في الكتب الكثير من التكهنات حول سبب ظهور التريفيدات، ومعظمها هراء من وجهة نظري، المؤكد أنها لم تتوالد صدفة كما يعتقد الكثيرون من أصحاب العقول البسيطة، ولا يؤيد معظم الناس النظرية القائلة بأن التريفيدات نوع من العينات

الزائرة للأرض لتُنذر أهلها بأسوأ ما سيحدث إذا لم يصلح العالم طرقه ويتصرف تجاه مشاكله، كما أن بذورهم لم تأتِ إلينا طفوًا عبر الفضاء، لأن هذا يعني وجود أشكال مروعة مفترضة موجودة في عوالم أخرى، أو هذا على الأقل ما أنا مقتنع به.

أعرف عن التريفيدات أكثر من معظم الناس لأنهم كانوا وظيفتي، والشركة التي عملت بها اهتمت بهم وتعاملت معهم بشكل وثيق، لكن يبقى أصلهم الحقيقي غامضًا، ما أؤمن به هو أنها نتجت من سلسلة تدخلات بيولوجية بارعة، ويُحتمل أن تكون عرضية، ولو أنهم تطوروا من أي فصيلة كانت موجودة على الأرض ، فلا بد أن وجود أسلاف التريفيدات موثق، وبالطبع لم ينشر المؤهلين والخبراء أي بيانٍ رسمي أو علمي بشأن ذلك، والسبب هو الظروف السياسية الغريبة التي سادت في ذلك الوقت.

كان العالم وقتها واسعًا، مفتوح على بعضه بالطرق والسكك الحديدية وخطوط الشحن المرتبطة ببعضها والجاهزة للتحرك آلاف الأميال بأمان وراحة، وإذا أردنا السفر بسرعة أكبر ويمكننا تحمل التكاليف، فلنسافر بالطائرة، ولم تكُن هناك حاجة لحمل الأسلحة أو اتخاذ أي احتياطات، يمكنك الذهاب إلى أي مكان تريده دون أي معوقات، ما عدا الأماكن المحمية بأشكال أنظمة الأمن، هذا العالم المُستأنس يبدو خياليًا الآن.

وسيصعب على الشباب الذين لم يعرفوا ذلك أن يتصوروا عالمًا كهذا، ربما يبدو كعصرٍ ذهبي رغم أنه لم يكن كذلك لأولئك الذين عاشوا فيه، وقد يعتقدون أن الأرض التي نُسقت وزُرعت في كل مكانٍ تقريبًا ستكون مملة، لكنها لم تكن كذلك، بل كانت مُثيرة مُتميزة بالنسبة لعالم الأحياء، في كل عامٍ كُنا نزرع الحقول الجديدة بمحاصيل سريعة النمو فوق ما كانت على مر التاريخ أراضٍ قاحلة، وفي كل موسم نستصلح مساحات من الصحراء لزرع الأعشاب أو الطعام، مشكلتنا الأكثر إلحاحًا هي الطعام، ولهذا اهتممنا بمُخططات التجديد وتقدم خطوط الزراعة على الخرائط بنفس قدر الاهتمام الذي دفع الجيل السابق لنا إلى جبهات القتال.

هذا التحول من الاهتمام بالسيوف إلى المحاريث هو تحسنٌ اجتماعي بلا شك، ولكن من الخطأ الزعم أنه يُمثل تغيرًا ظاهرًا في طبيعة الروح البشرية، فما نعتقد

معرفته أن خمسًا وتسعين في المائة من البشر يريدون العيش في سلام، والخمسة في المائة المُتبقيين يأخذون في الاعتبار فرص المجازفة ببدء أي شيء، والسبب الرئيسي لاستمرار الهدوء هو عدم وجود فُرص مُناسبة.

في هذه الأثناء، ومع ما يقترب من خمسةٍ وعشرين مليون فمٍ جديد يصرخون جميعًا من أجل الطعام كل عام، ساءت مشكلة الإمداد بشكل مطرد، وبعد سنوات من الدعاية غير الفعالة، بدأ نقص المحاصيل المُلحة يساعد على إدراك الناس لصعوبة وحقيقة الوضع.

وما جعل المُحاربون يرتاحون لفترة دون إثارة الفتنة هو الأقمار الصناعية، إذ نجح البحث المستمر في عِلم الصواريخ أخيرًا في تحقيق أحد أهدافه وهو إرسال صاروخ ليبقى في السماء، فكان وقتها ممكنًا إطلاق صاروخ بعيدًا بما يكفي لدخوله في مدار، وبمجرد وصوله إلى هُناك يستمر في الدوران كقمر اصطناعي صغير؛ غير نشط طوال الوقت وغير ضار حتى يمنحه أحدهم ذلك وهو يضغط على زرٍ دون تراجع، يصحب ذلك تأثير مدمر.

وبقدر القلق العالمي الذي أعقب إعلان أول دولة تبني سلاحًا من الأقمار الصناعية، وُجد قلق أكبر من فشل الآخرين في إصدار أي إعلانات مُماثلة على الإطلاق، وأن تدرك أن عددًا غير معروف من التهديدات يدور فوق رأسك لهو أمر غير محبب، إذ تدور وتدور حتى يأتي دور أحدهم ليُرتب لإسقاطها، ومع ذلك يجب أن تستمر الحياة ومُستجداتها التي لا تنتهي، والحياة بذلك أمر رائع قصير العمر، لكن الواحد منا يعتاد عليها مع الوقت، وبحكم الضرورة اندلعت نزعات الذعر عندما انتشرت التقارير بظهور الأقمار الصناعية ذات الرؤوس الذرية، هناك آخرون يُعانون من أمراض المحاصيل والماشية والغُبار المشع والفيروسات، والمشكلة ليست في الأنواع المألوفة من هذه المؤذيات ولكن في ظهور أنواع جديدة ومُختلفة تمامًا صُنعت في المختبرات، وكلها تطفو من حولنا، من الصعب تحديد ما إذا كانت هذه المُستجدات هي من الأسلحة التي تطلق رصاصها في ظهورنا، والتي يُحتمل أن تكون ذات نتائج عكسية، ولهذا ليس من السهل تحديد معنى الحماقة، خاصة حين يُمسك الخوف

بأعقابها، إذ يُمكن اعتبار كائنٍ حي خبيثٍ سريع التكاثر ويُساعده عدم استقراره بدرجة كافية للتحول إلى حالة غير ضارة في غضون فترة مُحددة- وربما يستطيع التكاثر كذلك- سلعة استراتيجية إذا تم إسقاطه في المواقع المُناسبة.

حملت حكومة الولايات المتحدة الاقتراح على محمل الجد وانكرت بحسم سيطرتها على أقمار صناعية مُصممة لشن حروب بيولوجية مُباشرة على البشر، وسارعت كذلك دولة أو اثنتان صغيرتان لا يشك أحد في امتلاكهما أي أقمار صناعية على الإطلاق إلى إصدار تصريحات مُماثلة، هُناك قوى كبرى أخرى لم تُعلق، لكن بمواجهة طلبات الجمهور لمعرفة سبب إهمال الولايات المتحدة للاستعداد لشكل من أشكال الحرب التي تجهز الآخرون لاستخدامها، وماذا تعني كلمة (مُباشرة) في بيانها، في تلك المرحلة تخلت جميع الأطراف ضمنيًا عن إنكار أو تأكيد أي شيء عن حقيقة الأقمار الصناعية، وبُذلت جهود مُكثفة لتحويل الاهتمام العام إلى مسألة ندرة الغذاء التي لا تقلِ أهمية ولكنها بالطبع أقل خطورة.

لم تُمكن قوانين العرض والطلب رجال الأعمال المُغامرين من تنظيم احتكارات السلع، فالعالم بأسره عادى فجآة الاحتكارات المُعلنة، كما أن نُظم الشركات المُتشابكة تعمل بسلاسة دون أي مشاكل قد يسمع بها عامة الناس، ولهذا لم يسمع أحد عن أومبرتو كريستوفورو بالانجيز، أما أنا فسمعت عنه بعد سنوات طويلة من عملي، أومبرتو كان طيارًا من أصول لاتينية، وأول ظهور معروف له كان باعتباره مُهتمًا بمُنتجات زيوت الطهي عندما دخل إلى مكاتب شركة القطب الشمالي والأوروبي لزيوت السمك وأنتج زجاجة من زيتٍ وردي باهتٍ واقترح عليهم الاهتمام بها ودراستها، حللت القطب الشمالي والأوروبي العينة وأول ما اكتشفوه أنه ليس زيت سمك، بل نباتي المصدر، ورغم أنهم لم يتمكنوا من تحديد المصدر إلا أن ما اكتشفوه بعد ذلك حول مُعظم زيوت السمك ذات أفضل جودة عندهم إلى دهون يملئون بها صناديق الشحم.

انزعجوا بالطبع من تأثير هذا الزيت القوي الجديد على تجارتهم، فاستدعت الشركة أومبرتو واستجوبوه لمدة طويلة، لكنه لم يستجب لهم وقال أن الزيت جاء

في الأصل من روسيا- والتي أخفت كل المعلومات المُتعلقة بالأمر خلف ستائر من الشك والسرية- وقال أنه سيحاول التخلص من البذور الأصلية المُنتجة للزيت في مقابل مبلغ ضخم من المال، وهكذا اتفقوا على الشروط وبعدها اختفى أومبرتو.

لم ترتبط شركة القطب الشمالي والأوروبي في البداية بين ظهور التريفيدات وأومبرتو، وحاولت الشرطة في العديد من الدول ترقب وصوله أو ظهوره نيابة عن الشركة لعدة سنوات، ثم تمكن بعض المُحققين من انتاج عينة من زيت التريفيد لغرض فحصها، وهنا أدركوا أنها تتوافق تمامًا مع العينة التي ظهر بها أومبرتو، وأن البذور التي تلقى أموالًا كي يتخلص منها هي بذور التريفيدات.

لم نعرف أبدًا ما حدث لأومبرتو، ظني الشخصي أنه ركب طائرة فوق المحيط الهادئ، وفي نقطة مُرتفعة وسط طبقة الستراتوسفير وجد الطائرات الروسية تُهاجمه، وما عرفه هو أن قذائف المدافع بدأت تُفكك مركبته، ربما انفجرت الطائرة أمبرتو وربما تحطمت، أيًا كان ما حدث فأنا متأكد أن الشظايا أثناء سقوطها الطويل نحو البحر تركت وراءها شيئًا بدا وكأنه بخارٌ أبيض، لكنه لم يكن بخارٌ فعلي، بل كانت سحابة من البذور، خفيفة للغاية وتطفو وسط الهواء المخلخل، ملايين من بذور التريفيدات المُتصلة كخيوط العنكبوت الحريرية، تسقط بحرية وتنجرف بسهولة أينما تأخذها رياح العالم، ربما استغرق الأمر أسابيع أو شهورًا، قبل أن يغوصوا في باطن الأرض أخيرًا، ليبدأوا رحلة خروجهم، هذا تخميني فحسب، لكني لا أرى طريقة مُحتملة أكثر تؤدي لظهور هذا النبات فجآة وهو ينتشر في كل أنحاء العالم.

تعرفي على التريفيدات حدث في وقتٍ مُبكر، فكان لدينا واحدًا من الأوائل ينمو في حديقتنا الخاصة، لقد نما وترعرع قبل أن يُزعجنا بعناء ملاحظته والاعتناء به، لأنه وضع جذوره وسط نباتات عرضية اعتيادية أخرى خلف طوق من الشجيرات، لم يُسبب أي أضرار، ولم يعترض طريق أحد، لذلك عندما لاحظنا وجوده تركناه، فقط نُلقي عليه نظرة بين الحين والآخر ونتأكد أن الأمور تسير على ما يرام، لكن التريفيد كان مُميزًا بالتأكيد، شعرنا تجاهه بفضولٍ تضخم مع الوقت، لكونه نوعًا غريبًا من

النباتات لا نعرف أصله.

وفي الحاضر، يعرف الجميع جيدًا كيف يبدو شكل التريفيدات، ويبدو خياليًا أن نتذكر كيف بدت لنا من العجائب في البداية، لم تساور أحد على حد علمي أي شكوك بشأنهم، وأظن أن تفكير معظم الناس كان مُشابهًا لطريقة تفكير والدي، هذا إذا انشغل بالهم بالأمر من الأساس.

أتذكر والدي وهو يتفحص نبات التريفيد في عُمر عامٍ تقريبًا، وهو نسخة طبق الأصل ولكن في نصف حجم تريفيد كامل النمو، ولم يكن الاسم قد عُرف بعد ولم يره أحد بحجمٍ كامل، انحنى والدي وحدق به عبر نظارته التي غشى عدستيها بخار الماء، لمس ساقه ونفخ فيه برفق لتتطاير شعيرات شاربه الأحمر المائل لصُفرة الزنجبيل، وهي عادته عندما يُركز بجدية، تفحص استقامته والموضع الذي انبثق منه، قضى بعض الوقت ليفحص ثلاث عُصيات ضئيلات ومُستقيمات نمت بجانب الجذع، تحسس رذاذ الماء القليل على الأوراق الخضراء خشنة الملمس بين إبهامه وسبابته، وكأن نسيجها يُخبره بشيء، ثم نظر إلى العضو المُنتفخ الغريب الشبيه بالقُمع الموجود في الجزء العلوي من الجذع، وأخذ يزفر خلال شاربه عدة مرات، أتذكر كذلك أول مرة رفعني فيها لألقي نظرة داخل ذلك الكأس المخروطي لأرى دوارة(5) مُلتفة بإحكام بداخلها، لا تختلف كثيرًا عن سعفة السرخس المُلتفة عن قرب، والتي توجد بالفعل بعد بضعة بوصات من فوضى لزجة غريبة في القاعدة من الكأس المخروطي، تلتصق بها أرجل ذباب وحشرات صغيرة أخرى، وتكافح للهروب منها.

سيبلغ طول هذا الشيء حوالي أربعة أقدام، ولا بد أن الكثيرين غيره نشأوا وقتها بهدوء ودون أن يؤذيهم أحد أو يؤذوا أحدًا، والمؤكد أن لا أحد اهتم بهم حين بدأوا يظهرون، حتى خُبراء الأحياء والنبات، لأن أخبارهم لم تتسرب إلى الإعلام قط.

وهكذا واصل التريفيد الموجود في حديقتنا نموه بسلام، كما فعلت الآلاف في المناطق المُهملة في جميع أنحاء العالم، وبعد فترة وجيزة، التقط النبات الأول عندنا جذوره، ومشى!

هذا الإنجاز غير المُحتمل كان معروفًا في روسيا لبعض الوقت، وصُنف الحدث وقتها بكونه من أسرار الدولة، أما أول ظهور له في العالم الخارجي فحدث في الهند الصينية(6) وهي منطقة تخرج منها أخبار غريبة وغير مُتوقعة وصعبة التصديق، وكثيرًا ما لجأ محررو الأخبار لتلك الحيلة إذا كانت الأخبار شحيحة، فمن شأن لمسة آتية من الشرق الغامض أن تنبض بالحياة على الأوراق، المهم أن تلك العينة الهندية الصينية لم تمنح الخبراء أدلة مهمة، لكن في غضون أسابيع قليلة ظهرت تقارير مُتدفقة عن نباتات تسير على الأقدام، من جزيرتي سومطرة وبورنيو والكونغو البلجيكية وكولومبيا والبرازيل ومعظم الأماكن المُجاورة لخط الاستواء.

وهذه المرة امتلأت الأوراق المطبوعة بأخبارهم، وكالعادة فإن القصص التي يتم استنزاف التعامل بها وتُكتب بمزيجٍ من الرعونة الدفاعية والحذر وهي الاستراتيجية التي تستخدمها الصحافة عادةً لتُغطي نفسها في الأمور المُتعلقة بأفاعي البحر والأطباق الطائرةِ والتخاطر وغيرها من الظواهر المُخالفة للمألوف، ستمنع أي شخصٍ من إدراك حقيقة أن تلك النباتات تُشبه الحشائش الهادئة المحترمة الموجودة إلى جوار أكوام القمامة خاصة في أطوار حياتها الأولى، ولم تُدرك شناعة الوضع حتى بدأت الصور تظهر وتنتشر، لنعرف أنهم جميعًا مُتطابقين في الشكل الخارجي ويختلفون فقط في أحجامهم.

- والآن أيها المُشاهدين، هذا ما حصل عليه مُصورنا في الإكوادور، الخضروات اليوم في إجازة! هذه الأشياء تسير هنا في الإكوادور المُشمسة ويرونها في أي وقت، مسيرة النباتات المتوحشة! أخبروني، ماذا لو تمكنا من تعليم حبات البطاطس طريقة تُمكنهم من دخول قدور الطهي مُباشرة، كيف ترين ذلك يا أمي؟

ولوقتٍ قصير هو عمر المشهد، حدقت في الشاشة مُنبهرًا، أنا وغيري من المُشاهدين بالطبع، ثم رأيت نبتتنا الغامضة هُناك, تمشي!

أرى الساق الآن كاملة، شعثاء وكأنها مُشعرة بفعل قليلٍ من الشُعيرات الجذرية، كاد التريفيد يُصبح كروي الشكل بالكامل ولكن ثلاثة نتوءات بارزة تمتد من جزئه السفلي لتدعم النبات منعت ذلك، ورفعت جسمه عن الأرض بمسافة قدم تقريبًا.

عندما (سار) تحرك مثل رجل يستند على عُكازين، انزلق اثنان من (الأرجل) أو النتوءات للأمام، ثم ترنح كل شيء فيه بينما يستوي الجزء الخلفي تقريبًا معهم ليستقيم الجسم، ثم ينزلق الطرفين الأماميين إلى الأمام مرة أخرى، وهكذا وفي كل (خطوة) يتحرك جذع التريفيد الطويل وكأنه يجلد الهواء بعنف، ذهابًا وإيابًا، لدرجة يشعر بها المرء وكأنه أُصيب بدوار البحر لمُجرد أنه شاهده يتحرك، وهذه الطريقة في المشي- رغم أنها تبدو شاقة وخرقاء- تُذكرني بطريقة ما بالأفيال الصغيرة وهي تلعب، وشعرت أنه إذا استمر في الترنح والمشي لفترة طويلة بهذه الطريقة، فإن تجرده من كل أوراقه مُحتم، هذا إذا لم يكسر جذعه في النهاية.

كان هذا كافيًا لإثارة روح التحقيق والمغامرة في عقلي الصبي، إذا تمكن هذا الشيء في الإكوادور أن يؤدي خُدعة من هذا القبيل، فلماذا لا تفعل تلك النبتة الموجودة في حديقتنا؟ نبتتنا أصغر بكثير في الحقيقة لكنها تبدو كأختها الكبيرة في الإكوادور تمامًا.

بعد حوالي عشر دقائق بدأت أحفر حول التريفيد، وأفك عنها قيود الأرض لأُشجعها على (السير).

هناك جانب من هذا الاكتشاف الذاتي للنباتات لم يختبره الناس، أو اختاروا لسببٍ ما ألا يكشفوا عنه، لم يُحذرني أحد كذلك، كُنتُ مُنحنيًا أعمل على إزاحة تراب الأرض دون الإضرار بالنبات، ثم أصابني شيء أتى من العدم، ضربنى على رأسي ففقدت الوعي..

استيقظت لأجد نفسي على سريري، أمي وأبي والطبيب يراقبونني بقلق، شعرت أن رأسي فلقتين، أتألم في كل بقعة فيها، وكما اكتشفت لاحقًا فإن جانبًا واحدًا من وجهي تزين بزُقعة حمراء مُحتقنة، كل الأسئلة الملحة حول كيفية فقدي للوعي في الحديقة كانت عديمة الفائدة إذ لا أملك أدنى فكرة عما أصابني، ومر بعض الوقت قبل أن أعرف أنني من أوائل الناس في إنجلترا الذين تعرضوا لضربة صادمة تريفيدية وأفلتوا من عواقبها، التريفيد خاصتنا لحسن الحظ لم ينضج بعد.

وقبل أن أتعافى بشكلٍ كامل اكتشف والدي الحقيقة السيئة لما حدث لي، وفي

ثاني مرة أزور فيها الحديقة وجدته قد انتقم بشدة من تريفيدنا، وتخلص من بقاياه بإحراقها في النار.

اليوم، وبعد أن أصبحت النباتات السائرة حقائق ثابتة، تخلت الصحافة عن فتورها السابق وبدأت تُغرق أوراقها بأخبار المشي النباتي، ولذلك كان لازمًا العثور على اسمٍ لهم، ظهرت بالفعل أسماء من اللاتينية واليونانية مُتعددة المقاطع وضعها علماء النبات، لإنتاج أسماء مُختلفة تعتمد على عدد الأرجل الكاذبة مثلًا، ولكن ما أرادته الصحف والجمهور كذلك هو اسم سهل على اللسان وعلى العناوين الرئيسية، وإذا رأيت الصحف والأخبار وقتها في ذلك الوقت ستجدها تُشير إلى:

ترايكوتس ترينيتس

ترايكاسبس ترايبيدالس

ترايجيناتس ترايبيدس

ترايجونس ترايكويتس

ترايلوجس ترايبودز

ترايدينتاتس ترايبيتس

وعدد أخر من الأسماء الغامضة التي لا تبدأ حتى بالبادئة (ثُلاثي) رغم أن جميعها تقريبًا اهتمت بإبراز الحقيقة الظاهرة بكون الثلاثة جذور تعمل كأنها ثلاثة أقدام ناتئة.

دارت نقاشات ومُجادلات؛ عامة وخاصة، وبطولات ساخنة تتصارع فيها المُصطلحات على أُسس شبه علمية، وشبه اشتقاقية، وتدريجيًا بدأ مصطلح واحد قياسي يُهيمن على هذه الصالة الرياضية اللغوية، اسم صغير جذاب نشأ في بعض مكاتب الصحف كتسمية سهلة للغرابة الحاصلة، وإن كان سيرتبط يومًا ما بالألم والخوف والبؤس؛ تريفيد TRIFFID..

وسرعان ما تلاشت الموجة الأولى من الدهشة العامة، معروف أن التريفيدات

غريبة بعض الشيء، وهذا لسبب وحيد هو أنها تُمثل موضوعًا جديدًا، شعر الناس بالشيء نفسه تجاه مُستجدات مُماثلة تقريبًا في أيام أخرى؛ حيوانات الكنغر مثلًا والسحالي العملاقة والبجع الأسود، وعندما فكرت في الأمر تسائلت: هل التريفيدات أغرب من السمك الطيني والنعام أفراخ الضفادع ومئات الكائنات الأخرى؟ الخفاش على سبيل المثال هو حيوانٌ ثدي تعلم الطيران؛ واليوم هناك نبتة تعلمت المشي، ما الجديد؟

فوجئ الناس وشعروا بالاشمئزاز قليلًا، عندما علموا أن هذا النوع النباتي الجديد آكلٌ للحوم، وأن الذباب والحشرات الأخرى التي اصطادتها الأكواب المخروطية قد هُضمت بالفعل بواسطة المادة اللاصقة التي تُفرز هناك، ونحن سُكان المناطق المعتدلة نعرف النباتات الآكلة للحشرات لكننا لم نعتد على وجودها خارج الدفايات الخاصة بها، أما المُثير للقلق فهو اكتشاف أن الدوارة التي تتصدر ساق التريفيد تستطيع أن تندفع كسلاحٍ لاسعٍ رفيعٍ يبلغ طوله عشرة أقدام، وقادر على تفريغ كمية من السم قادرة على قتل رجل إذا أصابت جلده مُباشرة وإذا كان غير محمي بأي شيء.

وبمجرد انتشار خبر هذا الخطر، قامت ثورة عصبية لتمزيق التريفيدات في كل مكان، ثم خطر على بال شخص ما أن كل ما هو ضروري لجعل النبات غير ضار هو إزالة السلاح اللاسع الفعلي، وبهذا انخفضت وتيرة الهجوم الهستيري على النباتات خاصة مع تناقص أعدادها، وبعد ذلك أصبح من المألوف أن تمتلك تريفيد أو اثنين بأمان في حديقتك أو حولها، ووجد أن استبدال النبات للعضو اللاسع كي يبدأ بوظيفته الخطيرة يستغرق حوالي عامين، وبهذا يجب إعادة التقليم سنويًا وبهذا يتأكد الناس أنهم في أمان مع توفير وسيلة تسلية جيدة للأطفال، خاصةً في البلدان ذات المناخ المعتدل، إذ نجح الإنسان في وضع معظم أشكال الطبيعة بشكلٍ عام- باستثناء طبيعته البشرية- تحت درجة معقولة من الضبط، وهو ما ينطبق على التريفيدات كذلك، لكن في المناطق الاستوائية وخاصة مناطق الغابات الكثيفة تحول الأمر إلى بلاء.

فشل الناس هُناك في ملاحظة الفرق بين الشجيرات والنباتات الطبيعية الكثيفة والتريفيدات، وفي اللحظة التي يكون فيها الباحث عنهم في المجال المناسب، ستلسعه بشمها، وهذا حدث للسكان الأصليين والزوار على حدٍ سواء، من الصعوبة بمكان اكتشاف وجود تريفيد ساكن يتربص بمكر بجانب طريق الغابة، يلتقطون بحساسية عالية أي حركات بالقرب منهم، وبالمقابل يصعُب جدًا أن تُصيبهم بمفاجأة، وبالتالي أصبح التعامل معهم مشكلة خطيرة، الطريقة المُفضلة هي القضاء على الجزء العلوي من الجذع واللاسعة معه، صمم السكان الأصليون في الغابات رماح طويلة وخفيفة، ثبتوا على مُقدماتها سكاكين معقوفة، استخدموها بفعالية جيدة في قطع الجزء العلوي للتريفيدات، هذا إذا تمكنوا من الضرب أولًا، إذ لا توجد فرصة للنجاة إذا تمكن التريفيد من التأرجح للأمام وزيادة مدى لسعاته بأربعة أو خمسة أقدام، ثم استبدلوا هذه الأسلحة الشبيهة بالرماح ببنادق تعمل بالزنبرك؛ يُطلقون أقراصًا دوارة أو صلبانًا مصنوعة من الفولاذ خفيف الوزن، وكقاعدة عامة فإن دقة التصويب تقل فيما فوق مسافة اثنتي عشرة ياردة، لكنهم قادرون على تقطيع مؤخرات التريفيدات بدقة، أسعد الاختراع كلا من السلطات- التي ترفض استخدام البنادق بعشوائية وطريقة شبه جماعية- والمُستخدمين الذين وجدوا الصواريخ الفولاذية ذات الشفرات الحادة أرخص وأخف وزنًا من الخراطيش والرصاص، وقابلة للتكيف مع اللصوصية والتسلل الصامتين.

وفي أماكن أخرى استمر البحث الدؤوب في طبيعة وعادات والتكوين الحيوي للتريفيد، فعرف الباحثون المسافة والمدة التي يقدر التريفيد على مشيها، وإن كان لهم وجه أمامي، وما هي الوقت الذي يجب أن تقضيه مع جذورها في الأرض؛ وما ردود الفعل التي أظهرتها لوجود مواد كيميائية مختلفة في التربة؛ وكمية هائلة من الأسئلة الأخرى منها المُفيدة وغير المُفيد.

كذلك اكتشفوا أكبر نبات تريفيد على سطح الأرض، وُجد في المناطق الاستوائية ويبلغ ارتفاعه ما يقرب من عشرة أقدام، لا يزيد ارتفاع أي عينة أوروبية عن ثمانية أقدام، ومتوسط الارتفاع يزيد قليلًا عن سبعة أقدام، يبدو أن التريفيدات تتكيف بسهولة مع مجموعة واسعة من أنواع المُناخ والتربة، ويبدو كذلك أن لا أعداء

طبيعيون لديهم غير الإنسان.

هناك عدد من الخصائص غير الواضحة والتي أفلتت من التعليق عليها وملاحظتها لبعض الوقت، فلم يلتفت إلا القلائل لحقيقة الدقة الخارقة التي يوجهون بها لسعاتهم، وأنهم يضربون الرأس بشكلٍ دائم، كما لم يُلاحظ أي شخص في البداية عادتهم بالتربص بالقرب من ضحاياهم البشرية بعد إسقاطهم، ولم يتضح سبب ذلك إلا عندما تبين أنها تتغذى على اللحم كما تتغذى على الحشرات، الفكرة هنا أن اللاسع الولبي لا يمتلك القوة العضلية لتمزيق اللحم الصلب، ولكنه يستطيع سحب شرائح من لحم الجسم المتحلل، ورفعها إلى الكوب الموجود فوق ساقه.

لم يهتم الكثيرين بالعصيّات الثلاثة الصغيرة الخالية من الأوراق عند قاعدة الساق، هُناك نظرية تفترض أن لها علاقة بالجهاز التناسلي، ولهذا سبب وحيد هو ظاهرة مُميزة حين يتخلون عن ثباتهم فجآة ويتحركون بصوت خشخشة ليتلامسوا مع ساق التريفيد، في صورة غريبة من الغزارة الغرامية.

يُحتمل أن يكون تميزي المُزعج الناتج بسبب تعرضي للسعة تريفيد في صبايّ له تأثير في إثارة اهتمامي وارتباطي بهم منذ ذلك الحين، قضيت- أو (أهدرت) إذا نظرت لي بعينيّ والدي- وقتًا طويلًا لا أفعل شيئًا سوى أن أنبهر بمُشاهدتهم، ولا يُمكنني أن ألومه على اعتباره لسعيي هذا غير مُجدي، ولكن تبين أن الوقت المُهدر هذا كان أفضل مما توقعنا، فقبل أن أُغادر المدرسة مُباشرة أعادت شركة القطب الشمالي والأوروبي تكوين نفسها وأسقطت كلمة (سمك) من اسمها وأعمالها، وهنا علم الجمهور أنها والشركات المُماثلة في بلدان أخرى على وشك زراعة التريفيدات على نطاق واسع من أجل استخراج الزيوت والعصائر الثمينة والضغط على كعكة الزيت المُغذية لغرض التخزين، وبالتالي انتقلت التريفيدات إلى عالم الأعمال التجارية الكبيرة بين عشية وضحاها.

Telegram:@mbooks90

وعلى الفور قررت ورسمت مسارات مُستقبلي، تقدمت بطلب إلى القطب الشمالي والأوروبي، ونجحت مؤهلاتي في منحي وظيفة في خط الإنتاج، تقيد رفض والدي إلى حد ما بمُعدل المُرتب والذي كان جيدًا بالنسبة لشاب في مثل عمري، لكن عندما

تحدثت بحماس عن المستقبل انفجر في وجهي، إيمانه الراسخ يتعلق فقط بنوع من العمل الثابت والتقاليد العريقة، لكنه سمح لي أن أمشي في طريقي:

- بعد كل شيء، إذا لم ينجح الأمر، فستكتشف أنك صغير السن بما يكفي للبدء في شيء ثابت وأكثر صلابة.

ثم اتضح أن لا حاجة لذلك، فقبل أن يُقتل هو ووالدتي في حادث تحطم طائرة إيرباص بعد خمس سنوات، رأوا بأعينهم الشركات الجديدة تطرد جميع الزيوت المنافسة من السوق.

كان من أوائل الوافدين صديقي والتر لَكنور، لم يعرف الكثير عن الزراعة والأعمال التجارية، ويفتقر إلى المؤهلات للعمل في المختبر، فلم نفهم لِما أتى للعمل معنا، لكنه من ناحية أخرى كان يعرف الكثير عن التريفيدات، وكأن لديه نوعٌ ما من موهبة تُلهمه التعامل معهم.

لا أعرف ما حدث بالضبط لوالتر في مايو المُميت، لكن يُمكنني أن أُخمن، حزنت لأنه لم يهرُب، فلربما كان ذا قيمة هائلة في وقتٍ لاحق، لا أعتقد بوجود شخص يفهم التريفيدات بحق أو بظهور من يفهمهم على الإطلاق، لكن والتر اقترب من فهمهم أكثر من أي رجل عرفته، أم يجب أن أقول إن مشاعرًا حدسية قد انتابته تجاههم؟

بعد عام أو عامين من بدءه للعمل فاجأني لأول مرة؛ كانت الشمس تقترب من الغروب، انطلقنا لننظر برضا إلى ثلاثة حقول جديدة من التريفيدات شبه كاملة النمو، في تلك الأيام، لم نكُن نطوقهم فحسب كما نفعل الآن، بل نُرتبهم عبر الحقول في صفوف تقريبية، ونربط كل واحدة منها بأوتاد فولاذية باستخدام سلاسل مُصطفة، تقديراتنا أنه في غضون شهر آخر سنتمكن من استخراج الزيت والعصير، كان مساءً هادئًا، والأصوات الوحيدة التي تكسر الصمت هي خشخشة العصي الصغيرة على سيقان التريفيدات من حينٍ لآخر، نظر إليهم والتر ثم أزال غليونه، وقال:

- إنهم يتحدثون كثيرًا الليلة.

فأخذت ما قال كما قد يفعل أي شخص آخر؛ بشكلٍ مجازي، فاقترحت قائلًا:

- ربما يكون الطقس، أتخيل أنهم يفعلون ذلك أكثر عندما يكون الجو جافًا.

نظر إليّ وابتسم قائلًا:

- هل تتحدث أكثر عندما يكون الجو جافًا؟

قلت وأنا أُلاحظ تعبيرات وجهه:

- أنت لا تعني أنهم يتحدثون حقًا ؟

- حسنًا، ولما لا؟

- لكن هذا سخيف، النباتات تتحدث؟

- أكثر سخافة من مشيهم؟

- لم أفكر أبدًا..

- حاول التفكير في الأمر قليلًا، ولاحظهم، سأهتم جدًا بسماع استنتاجاتك.

غريب أن هذا الاحتمال لم يخطُر ببالي مُطلقًا في كل تعاملاتي مع التريفيدات، لكن بمُجرد وضع الفكرة في ذهني علقت به، ولم أستطع هجر الشعور بأنهم يتبادلون بالفعل رسائل سرية، كثيرا ما تخيلت أثناء مُراقبة التريفيدات عن كثب أنني لم ألاحظ أي أمرٍ عملي، لكن والتر بإمكانه- عندما يكون في حالة مزاجية مناسبة- التحدث عنها لساعات، وتقديم نظريات جامحة في أوقات وغير مستحيلة في أوقات أخرى، ولهذا عندما أستغرق في الاستماع إليه، أشعر ببعض الهواجس، وهو الآن متأكد تمامًا من أنهم يتحدثون، قال:

- وهذا يعني أن الذكاء موجود في مكان ما فيهم، لا يُمكن أن يجلس في الدماغ، لأن تكوينهم التشريحي لا يُظهر شيئًا نسميه الدماغ، لكن هذا لا يثبت أنه لا شيء هناك يقوم بوظيفة الدماغ.

هل لاحظت أنهم يهاجمون الأجزاء غير المحمية؟ الرأس مثلا واليدين في بعض

الأحيان، وإذا ألقيت نظرة على إحصائيات الضحايا، لاحظ النسبة التي أُصيبت بالعمى، هذا مهم.

- لماذا؟

- حقيقة أنهم يعرفون أضمن طريقة تُخرج الرجل من الخدمة، إذن التريفيد يعرف ما يفعله، فلننظُر إلى الأمر بهذه الطريقة، فرضًا أنهم أذكياء، هذا يترك لنا نقطة تفوق واحدة مهمة فقط؛ البصر، يمكننا أن نرى ولا يُمكنهم ذلك، إذن فليسلب رؤيتنا وتنتهي نقطة التفوق، والأسوأ من ذلك أن موقفنا سيصبح أضعف من موقفهم لأنهم يتكيفون مع وجودهم دون الإبصار، ونحن لا نقدر على ذلك.

- حتى لو كان الأمر كذلك، لا يُمكنهم فعل شيء، ولا التعامل مع الأشياء، والقوة العضلية في اللاسعة ضعيفة.

- صحيح، ولكن ما فائدة قدرتنا على التعامل مع الأشياء إذا لم نتمكن من رؤية ما نفعله بها؟ وهم لا يحتاجون إلى التعامل مع الأشياء على أي حال، ليس بالطريقة التي نتعامل بها، يمكنهم الحصول على غذائهم مُباشرة من التربة أو من الحشرات وقطع اللحم النيء، ليس عليهم أن يزرعوا ويوزعوا ويطهوا الطعام، في الواقع، إذا كان الاختيار للبقاء على قيد الحياة بين تريفيد وبشري أعمى رهانًا، أعرف على أيهما سأضع أموالي.

- أنت تفترض ذكاءً متساوٍ.

- كلا، سأتخيل فقط احتمال أن يكون نوعًا مُختلفًا تمامًا من الذكاء، صحيح أن احتياجاتهم أبسط بكثير، لكن انظر إلى العمليات المُعقدة التي نخوضها لنحصل على مُستخلص مفيد من التريفيد، وفي المقابل، ما الذي يتعين على التريفيد فعله؟ أن يلسعنا فحسب، وينتظر بضعة أيام ثم يتغذى علينا.

ويستمر على هذا المنوال بالساعات، أفكاره جعلتني أفكر في التريفيدات كنوعٍ من المنافسين، اعترف والتر أنه فكر في تأليف كتاب عن هذا الجانب من الموضوع لكنه توقف.

- لماذا توقفت؟

فلوح بيده ليشير إلى المزرعة بشكل عام ثم قال:

- هذا هو السبب، إنها مصلحة راسخة الآن، لن يدفع أحدٌ أي أموال لشخص يطرح أفكارًا مزعجة عنهم، وعلى أي حال فلدينا تريفيدان يُمكننا التحكم فيها جيدًا.

- لا يمكنني أن أتأكد من هذا أبدًا، لست متأكدا إلى أي مدى أنت جاد وإلى أي مدى تسمح لخيالك أن يقودك، لكن هل تعتقد بصدق أن هذه الأشياء خطرة؟

- حسنًا، أعترف أني لست مُتأكدًا مما أقول، لكنني متأكد من شيء واحد وهو احتمال كونهم خطرين، سأقترب كثيرًا من إعطائك إجابة إذا أمكنني معرفة سطر واحد حول مما يثرثرون بشأنه.

لا أعتقد أنه ألمح بما يُفكر فيه لأي شخصٍ آخر، وبدوري أبقيت أفكاره سرًا، أولًا لأنني لا أعرف أيَ شخص سيكون أكثر تشككًا مني، وثانيًا لأن ذلك لن يُفيد أيًا منا إذا غُرف عنا غرابة الأطوار في الشركة، عملنا معًا بشكلٍ وثيق لمدة عام أو أكثر، لكن مع افتتاح حضاناتٍ جديدة والحاجة إلى طرق الدراسة في الخارج، بدأت أسافر كثيرًا، أما والتر فتخلى عن العمل الميداني وتوجه إلى قسم الأبحاث، وهو ما كان مُناسبًا له، حيث أجرى أبحاثه الخاص إلى جوار أبحاث الشركة.

اعتدت زيارته من وقتٍ لآخر، لم يتوقف لحظة عن تجاربه مع التريفيدات، لكنه لم يحظَ بنتائج تُرضيه، لا زال مُقتنعًا بوجود ذكاءٍ متطور لكن عليّ أن أعترف أن نتائجه تُثبت وجود غريزة أكثر من كونه ذكاء، يقول أن طقطقة العصيّ شكلٌ ما من الاتصالات، وقال أن تجاربه تُثبت تدهور صحة التريفيد إذا أُزيلت منه العصيّ، وأثبت أيضًا أن مُعدل العقم عند التريفيدات يقترب من خمسٍ وتسعين بالمائة.

- وهو أمر جيد، لو أنهم جميعًا يتكاثرون فلن تكون هُناك مساحة لتواجد غيرهم على هذا الكوكب.

وافقت على كلامه، فوقت خروج بذور التريفيدات هو مشهد عجيب، تتلألأ الكبسولة الخضراء أسفل الكوب وتنتفخ، ويقترب حجمها من حجم تفاحة كبيرة،

ثم تنفجر، وتفعل ذلك بفرقعة مسموعة على بعد عشرين ياردة، وتنطلق البذور البيضاء في الهواء كالبخار وتسري في الهواء أخف من النسيم، وعند النظر إلى حقل تريفيدات في أواخر شهر أغسطس ستعرف أن قصفًا عشوائيًا مُستمرًا هو ما يحدث.

اكتشف والتر أن جودة المستخلصات تتحسن إذا احتفظت النباتات بلسعاتها، ونتيجة لذلك، توقفت ممارسة البتر في المزارع، وأضحى واجبًا أن نرتدي أجهزة واقية عند العمل بين النباتات.

كنت مع والتر في الوقت- أو الحادث بالأحرى- الذي أوصلني إلى المستشفى، نفحص بعض العينات التي تُظهر انحرافات غير عادية، نرتدي قناعين ذوي شبكات سلكية، لم أرَ ما حدث بالضبط، ما أعرفه هو أنني انحنيت للأمام فضربت لاسعة سلك قناعي بشراسة وقطعته لتصل إلى وجهي، هذا أمر غير مُهم في تسعة وتسعين مرة من أصل مائة؛ فهذا الغرض من الأقنعة أصلًا، لكن هذه جاءت بقوة لدرجة أن بعض الأكياس السامة الصغيرة انفجرت ودخلت بضع قطرات منها إلى عيني، أعادني والتر إلى مختبره وأعطى الترياق في ثوانٍ، وبسبب تصرفه السريع سنحت لهم فرصة إنقاذ بصري، ورغم ذلك كان عليّ قضاء أكثر من أسبوع مُلازمًا للسرير والظلام.

بينما أنا مُستلقٍ قررت أن أتقدم بطلب للانتقال إلى قسم أخر في العمل إذا استعدت بصري، وإذا لم يحدث ذلك سأستقيل، اكتسبت مقاومة كبيرة لسموم التريفيدات منذ أول مرة لُسعت فيها في حديقتنا، هذه اللسعات أكسبتني خبرة ما، لكن القول المأثور عن الإبريق والينبوع (7) ظل يتردد في عقلي، يجب أن آخذ حذري. قضيت عددًا كبيرًا من الساعات المُظلمة في اختيار نوع العمل الذي سأحاول القيام به إذا لم يوافقوا على نقلي، وبالنظر إلى ما كان يُخبئه لنا القدر، لا أجد تفكيرًا أكثر خمولًا مما فعلت.

المدينة تتلمس طريقها

تركت باب الحانة يتأرجح خلفي بينما أشق طريقي إلى زاوية الطريق الرئيسي، وهُناك توقفت وترددت.

إلى يساري وبعد أميالٍ من الضواحي، تقع المُقاطعة المفتوحة، وإلى اليمين تجد الطرف الغربي من لندن والمدينة بأكملها خلف ذلك، شعرت بالارتياح والانفصال عن الواقع في نفس الوقت، هُناك فضولٌ يُحركني لكن بلا دفة تُرشدني إلى وجهتي، ليس لدي أدنى خُطة في مواجهة ما أدركت أخيرًا أنها كارثة واسعة النطاق وليست مُجرد فاجعة محلية، ثم مع إبعادي للاندهاش تساءلت، ما الخطة المُناسبة للتعامل مع الأمر؟ فعاد إليّ شعوري بالانفصال عن الحقيقة، وكأني لست هنا، ولا الآن.

ليس هُناك حركة مرور في أي اتجاه، ولا أصوات عربات، العلامة الوحيدة على وجود حياة هم قِلة من الناس هنا وهُناك يتلمسون طريقهم بحذر على طول واجهات المتاجر.

كان يومًا مثاليًا في بداية الصيف، تتساقط أشعة الشمس من سماء زرقاء نقية مُغطاة بُخصلات من غيومٍ كالصوف الأبيض؛ النقاء مُلطخ لوجود عمود دخان كخيطٍ من الدُهن على رداءٍ أبيض قادم من مكان ما خلف المنازل في الشمال، وقفت دون أن أحسم أمري لبضع دقائق، ثم اتجهت شرقا نحو لندن.

إلى يومنا هذا لا أعرف لماذا فعلت ذلك، ربما هي غريزة البحث عن أماكن مألوفة، فكرت بأنه إذا كانت هناك سلطة في أي مكان، فلا بد أن تكون في لندن.

جعلني شرب البراندي أشعر بالجوع أكثر من أي وقت مضى، المتاجر غير مأهولة ودون حراسة، والطعام موضوع على النوافذ، وها أنا، جائع ومعي وسائل الدفع، وحتى إذا لم أرغب في الدفع، ما عليّ سوى تحطيم النافذة وأخذ ما أريد، لكن ذلك صعب، لم أُقنع نفسي به رغم الفراغ المهيب، لم أستعد بعد للاعتراف بعد حياة تقترب من الثلاثين عامًا تحترم الحق وتلتزم القانون أن الأمور قد تغيرت بشكلٍ يمُس أساساتها، هُناك أيضًا شعور بأنه طالما بقيت على طبيعتي، فقد تعود الأمور

إلى طبيعتها بطريقة ما لا أتخيلها، هذا هراء بالنسبة لبعض الناس، لكن ما أشعر به هو أن اختراقي لأحد تلك الألواح الزجاجية يعني أن أترك النظام القديم ورائي إلى الأبد، وأتحول إلى سارق أو هجّام أو زبّال مُنحط يقتات على زُمة النظام الذي كان يُغذيني، يا لها من رقة حمقاء في عالمٍ منكوب! لا يزال من دواعي سروري رغم ذلك أن أتذكر تجولي وتعرضي لكل ما جعل لعابي يسيل بهمجية، في حين أن تقاليدي وتحضري الذيّن عفا عليهما الزمن جعلاني أشعر بالجوع.

وجدتُ حلًا للمشكلة بطريقة سفسطائية بعد نصف ميل، إذ انتهى العالم بالنسبة لسيارة أجرة بصعودها على الرصيف واختراق الراداياتير لواجهة محل أطعمة شهية ودفنه تحتهم، يبدو الأمر مُختلفًا عن اختراقي لأي محلٍ بنفسي، تسلقت سيارة الأجرة وجمعت مكونات وجبة جيدة، ثم تركت ثمنًا عادلًا لما أخذت اتباعًا لمعاييري القديمة، ووضعته على الطاولة.

هناك حديقة عبر الطريق؛ كانت في يومٍ مُخصصة لمقابر كنيسة قبل أنت تختفي، رفعوا شواهد القبور القديمة ووضعوها في مواجهة الجدار المُحيط بالأرض، ثم عَبدّوا المساحة التي أخلوها ووضعوا ممرات مرصوفة بالحصى، مشهدٌ لطيف ومُسالم تحت الأشجار المورقة، أخذتُ غذائي وجلست على أحد المقاعد هناك، لا أظن أن أحدًا دخل الحديقة قريبًا، رغم أني رأيت شخصًا ما يتخطى السياج عند المدخل، رميت بعض الفُتات للعصافير القليلة المتواجدة وهي أول طيور أراها اليوم، شعرت بعدها بتحسنٍ شديد إذ تنسرب لا مبالاة مرحة بداخلي تجاه الكارثة.

أشعلت سيجارة بعدما انتهيت من الأكل، وإذ أنا كذلك أخذت أتساءل؛ إلى أين يجب أن أذهب؟ وماذا أفعل بالضبط؟ قطع الهدوء صوت بيانو يُعزف في مكان ما، ينبعث من الشُقق المُطلة على الحديقة، ثم سمعت صوت فتاة تُغني، وكانت أغنية بايرون(8):

سنتوقف عن التجول

إلى آخر الليل،

رغم أن القلب سيظل مُحبًا،

والقمر سيظل ساطعًا.

لأن السيف يدوم أكثر من الغمد،

والروح تدوم أكثر من الصدر.

والقلب لا بد أن يتوقف ليسترد أنفاسه،

فيخلد الحب نفسه للراحة.

رغم أن الليل خُلق للحب،

والنهار يعود مُبكرًا،

سنتوقف عن التجول

في ضوء القمر.

استمعت حتى انتهت الأغنية وتلاشى عزف البيانو، ثم سمعت النحيب؛ بهدوء ولا حول ولا قوة، من هي؟ سواء كانت مُغنية أو أنثى تبكي آمالها البعيدة، لكن الاستماع للنحيب لفترة أطول كان أكثر مما أستطيع تحمله، فغدت إلى الشارع غيرُ قادرٍ على رؤية أي شيء، بسبب الضباب المُتكاثف على عينيّ.

حتى هايد بارك كورنر كانت شبه مهجورة، رأيت على الطُرقاتِ عدد قليل من السيارات والشاحنات المُهملة، ويبدو أن بعضهم خرج عن السيطرة أثناء أخر لحظات تحركهم، إحدى الحافلات عبرت الطريق ورقدت في الحديقة الخضراء، هُناك حصان ميت لا يزال مُرتبطًا بالمقابض راقد بجوار النُصب التذكاري للمدفعية بعدما يبدو أنه كسر جمجمته بالاصطدام به، هُناك قلة تتحرك من الرجال وعدد أقل من النساء، يتحسسون طريقهم بعناية باستخدام أيديهم وأقدامهم، أما ما لم أتوقعه فهو وجود قط أو اثنين، يبدوان سليمين بصريًا، ويتعاملان مع الموقف بنفس غريزة حب الثملك عند القطط، يتجولون ببطء وسط الهدوء المخيف لاقتناص ما يقدرون عليه، فالعصافير قليلة، والحمام اختفى.

انجذبت مِغناطيسيًا نحو المركز القديم للأشياء، فمشيت في اتجاه بيكاديللي(9)، فلاحظت أثناء سيري صوتًا حادًا؛ نقرات ثابتة غير بعيدة، بل وتقترب، وبالبحث على طول الرصيف اكتشفت مصدره؛ كان رجلًا يرتدي ملابس أكثر أناقة من أي شخص آخر رأيته ذلك اليوم، يسير تجاهي بسرعة ويضرب الحائط إلى جواره بعصا بيضاء، وعندما سمع صوت خطواتي توقف ليستمع بانتباه، فقُلت له:

- لا تقلق، اقترب.

شعرت بالارتياح لرؤيته، كان أعمى في طبيعته الحقيقة، نظارته المُظلمة أقل إزعاجًا بكثير من عيون الآخرين وهي تُحدق فينا دون فائدة، قال لي:

- قف ساكنًا إذن، لقد صدمني عددٌ كبير من الحمقى اليوم، ماذا حدث بحق الشيطان؟ ما هذا الهدوء الشديد؟ أعلم أننا لسنا بالليل، يُمكنني الشعور بضوء الشمس وحرارتها، ماذا يحدث؟

فأخبرته بقدر ما أعرف، وعندما انتهيت صمت لدقيقة تقريبًا، ثم ضحك ضحكة قصيرة ومريرة، وقال:

- هُناك أمر مهم؛ سيحتاجون لأن يرعوا أنفسهم اللعينة بأنفسهم الآن.

ثم استقام وكأنه يتحدى كل شيء، وقال:

- شُكرًا لك، وحظًا سعيدًا.

ثم انطلق غربًا ليُضفي جوًا مُبالغًا فيه من الاستقلال، وتلاشى صوت نقراته الواثق بقوة تدريجيًا من ورائي، وبينما أشق طريقي إلى بيكاديللي رأيت المزيد من الأشخاص، وسرت بين مجموعة من المركبات المتوقفة والمُتناثرة على الطريق، وكلما سرت إلى جوار الناس العميان فيسمعون خطواتي بالقرب منهم، يتوقفون، ويستعدون لمواجهة أي تصادم مُحتمل، هذه الاصطدامات تحدث بين الحين والآخر في جميع أنحاء الشوارع.

هُناك مجموعتان من الأشخاص يتلمسون طريقهم بطول واجهة متجر، يسيرون

في اتجاهين متعاكسين حتى واجهوا نتوءً، كان أحدهم شابًا يرتدي بذلة غالية، وعلى الجانب الأخر امرأة تحمل طفلًا صغيرًا يئن بصوتٍ غير مسموع.

تخطى الشاب المرأة ثم توقف فجأة وقال:

- انتظري لحظة، هل يستطيع طفلك أن يرى؟

- نعم، لكن أنا لا أستطيع.

استدار الشاب ووضع إصبعًا على لوحة زجاج النافذة وسأل الطفل:

- انظر يا ولد، ماذا ترى؟

اعترض الطفل بصوتٍ طفولي:

- لست ولدًا.

عرفنا هنا أنها بنت، فشجعتها أمها:

- هيا يا ماري، قولي للرجل ما ترينه.

فقالت الطفلة ببراءة وغضب:

- سيدات جميلات.

فجذب الرجل المرأة من ذراعها وتحسس طريقه إلى النافذة التالية:

- وهنا؟

- تفاح وفاكهة.

- جيد!

وخلع الشاب حذائه ثم ضرب النافذة بكعبه، لم يكن ذا خبرة فلم ينكسر الزجاج من أول ضربة، وانطلق في المرة الثانية دوي هائل أزال كل هدوء في لحظة مُخيفة، ثم أعاد الشاب حذائه، ومد ذراعه بحذر عبر النافذة المكسورة، وتحسس طريقه ببطء حتى وجد ثمرتيّ برتقال، فأعطى المرأة واحدة والطفلة واحدة، ثم تحسس

طريقه مرة أخرى ووجد واحدة لنفسه، وبدأ في تقشيرها، أما المرأة فحملت الثمرة بين أصابعها وقالت:

- لكن..

- ما الأمر؟ ألا تُحبين البرتقال؟

- لا يبدو الأمر صائبًا، لم يكن علينا أن نأخذهم، أليس كذلك؟

- وكيف سنحصل على الطعام؟

- أعتقد.. حسنًا، لا أعرف.

- جيد جدًا، وهذا هو الجواب، فلتأكلي الآن، وسنذهب ونجد شيئًا أكثر تميزًا.

رأيتها تُحني رأسها كما لو كانت تنظُر إلي البرتقالة، ثم قالت:

- لا يبدو الأمر صائبًا.

ولكن يبدو أن اقتناعها بما تقول أصبح أضعف، هذا ما فهمته من نبرة صوتها، ثم أنزلت الطفل وبدأت تُقشر البرتقال.

ميدان بيكاديللي هو أكثر الأماكن اكتظاظًا بالناس حتى الآن، رغم أن عددهم أقل من مائة شخص تقريبًا، يرتدون ملابس غريبة ومتنوعة تُنبئ باختلاف أماكن سكنهم ومستوياتهم الاجتماعية، يتجولون بلا كلل وقد سيطر عليهم الذهول، تقع حوادث مؤسفة في بعض الأحيان مما يؤدي إلى فورة من الألفاظ النابية والغضب غير المُفيد، وهو أمرٌ مُزعج إلى حدٍ ما، لأنه ناتج عن الخوف وطفولية المزاج مع استثناء وحيد وهو أن هُناك القليل من الكلام والقليل من الضوضاء، عمى الناس جعل كل واحدٍ منهم ينغلق على نفسه.

الاستثناء الوحيد كان رجُلًا طويل القامة، ومُسِن ونحيل، لحيته وشعره كشُجيرة من سلوك رمادية، كان واقفًا في إحدى جزر المرور، مُتمسكًا بالتوبة الفورية والغضب القادم وآفاق الخُطاة، ولم يعيره أحدٌ أي اهتمام، لأن يوم الغضب حل بالفعل، ثم جاء من بعيد صوت لفت انتباه الجميع؛ جوقة تقترب تدريجيًا:

وعندما أموت،

لا تدفنني أبدًا،

خلل عظامي فقط

في الكحول غمسًا.

صوتٌ كئيبٌ وغير مألوف يُداعب الشوارع الفارغة، ويتردد صداه ذهابًا وإيابًا، كلُ رأسٍ في بيكاديللي يستدير يسارًا ثم يمينًا في مُحاولات لتحديد اتجاهه، رفع نبي العذاب صوته وصرخ وهو يُغني:

ضع زجاجة نبيذ

على رأسي وقدمي،

وعندها أتأكد؛

ستبقى عظامي.

ومن حيث أقف رأيتهم قادمين، يسيرون في صفٍ واحد خارجين من شارع جانبي مُتجهين إلى شارع شافتسبري ثم إلى السيرك، الرجل الثاني يضع يديه على أكتاف القائد، والثالث على كتفيّ الثاني وهكذا، ربما كانوا خمسة وعشرين أو ثلاثين شخصًا، وفي ختام تلك الأغنية، صرخ أحدهم:

- بيرة، بيرة، بيرة عظيمة!

ساروا بُخطواتٍ ثابتة حتى وصلوا إلى مركز السيرك، ثم رفع القائد صوته الرائع:

- فررررقة.. قف!

رأيت الاضطراب يُصيب كل شخص غيرهم في السيرك، وتوقفوا جميعًا دون حراك، وتوجهت كل الوجوه نحو صاحب الصوت، الكلُ يحاول تخمين ما يجري، رفع القائد صوته مرة أخرى مُقلدا أسلوب مُرشد مُحترف:

- كُنا، أيها السادة في سيرك بيكا(الدموي)ديللي؛ مركز العالم، قمة الكون، حيث يجد كل الأثرياء نبيذهم ونسائهم وأغانيهم.

هذا الرجل ليس أعمى، بل هو بعيدٌ تمامًا عن ذلك، كانت عيناه تدوران في المكان أثناء تحدثه، لا بد أن بصره نجا بسبب حادثٍ مثل حادثتي، لكنه كان ثملًا جدًا وكذلك كل الرجال الواقفين خلفه.

- سنُحقق ذلك لنا أيضًا، المحطة التالية؛ كافي رويال الشهير، وجميع المشروبات على حسابي.

- نعم، لكن ما عن النسوة؟

قالها أحدهم بلكنه غريبة أثارت ضحك الجميع.

- أوه، أيتها النساء، أهذا ما تريده؟

وتقدم للأمام ليُمسك بفتاة من ذراعها، صرخت وهو يسحبها نحو الرجل الذي تكلم، لكنه لم ينتبه لها إطلاقًا.

- ها أنت يا صديقي، لا تقل أنني لا أُعاملك بما يُناسبك، إنها مُكتنزة كثمرة خوخ، وساحرة الجمال، إذا كان ذلك يُمثل أي فرق بالنسبة لك.

فقال رجلٌ أخر:

- مرحبًا، وماذا عني؟

- أنت يا زميل؟ حسنا دعنا نري، أتحبهم شقراوات أم ذوات شعرٍ داكن؟

بالنظر لما حدث لاحقًا، أظن أنني تصرفت كأحمق، لا زال رأسي يمتلئ بالمعايير التي لم تعُد سارية، لم يخطر ببالي أنه إذا كان هناك ناجين مما حدث فإن تلك العصابة ستحظى بفرصة أفضل بكثير مما كانت سيتمتع به كلُ فردٍ وحده، فانطلقتُ تجاهه بمزيجٍ من استدعاء بطولات تلاميذ المدرسة والمشاعر النبيلة، لم يرني قادمًا حتى أصبحت قريبًا منه، جاهدت من أجل ضرب فكه لكنه لسوء الحظ كان أسرع مني قليلًا.

عندما استعدت وعيي وجدت نفسي مُستلقٍ على الطريق، صوت العصابة يتضاءل ويبتعد، واستعاد نبي العذاب بلاغته، يُرسل صواريخ تُهدد باللعنات، ونار الجحيم، وأحجار كبريت جهنمية تندفع خلفهم.

امتننت لأن الأمر لم يسوء، لو انعكست النتيجة لما استطعت تحميل نفسي مسؤولية الرجال الذين يقودهم، فمهما كان ما يشعر به المرء حيال أساليبه، فهو عيون تلك الزمرة، يتطلعون إليه للحصول على الطعام والشراب، وستذهب النساء لمصلحتهن الخاصة بمجرد أن يشعرن بالجوع، نظرت حولي، وارتبت فيما إذا كانت أي من النساء الموجودين هنا ستهتم بما حدث، يبدو أنني نجحت في الهروب من الترقي إلى قيادة العصابات، تذكرت أنهم متوجهين إلى كافي رويال، فقررت أن أُعيد إحياء نفسي وأُصفي ذهني في فندق قصر ريجنت، وأعتقد أن آخرين سيفكرون في مثل هذا، ولكنهم بالتأكيد لن يشربوا كل الزجاجات التي سيجدونها.

جالست هناكَ مع زجاجة براندي أمامي وسيجارة في يدي، وبدأت أخيرًا أعترف أن كل ما رأيته حقيقي، لن نرجع إلى سابق عهدنا أبدًا، لقد انتهى كل ما كنت أعرفه..

ربما كانت بحاجة إلى تلك الضربة لأعود لتفكيري المنطقي، سأواجه الآن حقيقة أن وجودي ببساطة لم يعد له هدف؛ طريقتي في الحياة وخططي وطموحاتي وكل توقعاتي، تم القضاء عليهم جميعًا، أُصيبوا بجلطة دماغية، جنبًا إلى جنب مع الظروف التي شكلتهم، أفترض أنه لو كان لدي أي أقارب أو ارتباطات وثيقة تُحزنني لشعرت بالهُجران والميل للانتحار فورًا، لكن يبدو أنني محظوظ اليوم، فأبي وأمي قد ماتا، ومحاولتي الوحيدة للزواج أُجهضت قبل بضع سنوات، ولا أعرف أحدًا يعتمد عليّ، في الحقيقة ما شعرت به وقتها هو إدراك أن ما حدث قد أطلق سراحي..

لا أظن أن هذا فعل البراندي، لأنه ما فكرت فيه استمر، أعتقد أن الأفكار جاءت من فكرة الإحساس بوضعٍ جديد تمامًا، كل المشاكل القديمة التي لا معنى لها انتهت بخطوة واحدة قوية، أنا سيد نفسي، ولم أعد ترسًا، قد يكون عالمًا يمتلئ بالرعب والأخطار التي يجب أن أواجهها، لكن يُمكنني أن أتخذ خطواتٍ نابعة مني للتعامل معها، لن يدفعني أحد من هنا أو هناك، ولا قوى أو مصالح لا أفهمها ولا أهتم بها أو

أضطر لمُراعاتها.

لا، ليس هذا فعل البراندي، لأني الآن وبعد سنوات من يومها، لا يزال بإمكاني الشعور بنفس ما شعرت به يومها، رغم أنه يُحتمل أن يكون البراندي قد بالغ في تبسيط الأشياء قليلًا.

ثم.. هُناك السؤال الصغير حول ما يجب فعله بعد ذلك؛ كيف وأين تبدأ هذه الحياة الجديدة، لم أترك ذلك يقلقني كثيرًا في الوقت الحاضر، شربت وخرجت من الفندق لأرى ما يُمكن أن يقدمه هذا العالم الغريب.

ما قبل الظلال

أردت منح الأسبقية لعصابة كافيه رويال، لذا دخلت شارعًا جانبيًا يقود إلى سوهو، عازمًا على العودة ودخول شارع ريجينت لكن من أعلاه.

ربما يدفع الجوع المزيد من الناس إلى ترك منازلهم، فالميادين تكتظ بالناس أكثر من أي وقت مضى منذ غادرت المستشفى، وقعت تصادمات مستمرة على الأرصفة وفي الشوارع الضيقة، وازداد ارتباك أولئك الذين يُحاولون التعايش مع تجمعات الناس أمام نوافذ المتاجر المكسورة، ولا يبدو أن أحدًا ممن يحتشدون هناك مُتأكدٌ من نوع المتجر الذي يواجهونه، سعى البعض في المقدمة إلى اكتشاف أي شيء يُمكن التعرف عليه من خلال اللمس، أما البعض الآخر فدخلوا بجرأة أكثر مُخاطرين بالتعرض لشظايا الزجاج وانتزاع أحشائهم.

أحسست بوجوب أن أُوجه الناس إلى أماكن تواجد الطعام، لكن هل يجب فعل ذلك؟ إذا وجهتهم إلى متجرِ طعامٍ لا يزال سليمًا، فسيحتشد من يكتسحون المكان خلال خمس دقائق فحسب، وسيسحقون أضعفهم، وقريبًا ستختفي جميع الأطعمة الموجودة في المتاجر، ثم ما العمل مع الآلاف الذين سيُطالبون بالمزيد؟

ما يحدُث هو عملٌ محبط شرس، لا فروسية فيه، بلا عطاء، بل يأخذون فقط؛ فرجلٌ يصطدم بآخر ويشعر أنه يحمل كيسًا، فيختطف الكيس ويبتعد بقدر ما يسمح له العمى، وربما يجد فيه شيئًا يأكله، بينما يُمسك الخاسر بالهواء أو يضربه وتنتابه شراسة قاتلة، في مرة اضطررت للتنحي على عجلٍ لتجنب أن يُسقطني رجل مُسِن يمشي في طريقه ولا يُبالي بالعقبات المُحتملة، وإن بدا عليه المكر إلى حدٍ كبير، ويضع على صدره علبتين من الطلاء الأحمر، ستلوث بالتأكيد كل من يصطدم به.

وفي إحدى الزوايا رأيت طفلًا يبكي مُحاصرًا بمجموعة من العميان، ويبدو أنه يرى، ولكنه محتار وصغير السن، لا يفهم ما يُريدونه منه.

شعرت بعدم الارتياح، غريزتي الحضارية منعتني من القتال رغم كونه مُفيدًا لهؤلاء الناس لأن غريزة البقاء تطلبت أن أبتعد عنهم، وهم يفقدون ما يربطهم

بالتعاملات والقيود البشرية بسرعة، شعرت بالذنب لأني أرى، بينما هم غير قادرين على الرؤية، رغم عدم منطقية هذا الشعور، بل وشعرتُ أنني أختبئ منهم حتى وأنا أسير بينهم، وفي وقتٍ لاحق عرفت أن ما دفعني إلى هذا كان غريزة مُحقة.

بالقرب من الميدان الذهبي فكرت في الانعطاف يسارًا والعودة إلى شارع ريجنت، إذ سيوفر الطريق الأوسع سهولة أكثر في السير وسط الجموع، وبمجرد التفافي مع أول زاوية من شأنها أن تقودني إلى هذا الطريق، أوقفتني صرخة مُفاجئة خارقة للآذان أوقفت كل المتواجدين، وفي صمت أدار الجميع رؤوسهم نحو مصدر الصمت، والعقول تحاول تخمين ما يحدث، فهذا الإنذار الصارخ جاء ليقف على رأس حُزنهم وتوترهم العصبي، فبدأت بعض النسوة تتذمر، ولم تكُن أعصاب الرجال في أفضل حالاتها؛ سمعت لعناتٍ وشتائم قصيرة من أفواهٍ عديدة، ولأنه كان صوتًا مشؤومًا، وبالتالي هو أحد الأشياء التي ترغب في توقعها دون وعي منك قبل أن تأتي، انتظروا أن يسمعوه مرة أخرى.

وقد تكرر، يأتي ثم يموت من الاختناق في لحظات، لكن أقل إثارة للقلق بعدما تجهزنا لسماعه، وفي هذه المرة تمكنت من تعقبه، بضع خطوات إلى مدخل الزقاق، وعندما دخلته سمعت صرخة وشهيق مُتقطع في نفس الوقت، ورأيت السبب في ذلك على بُعدٍ بضعة ياردات أخر الزقاق، فتاة جاثمة على الأرض ووجهها لأسفل بينما يرقد عليها رجل قوي البنية مُمسكًا بقضيب نحاسي رفيع، الجزء الخلفي من ثوبها مُمزق واللحم من تحته يُظهِر بثورًا حمراء، وعندما اقتربت فهمت لماذا لا تقاوم وتُحاول الهرب؛ كانت يداها مُقيدتين خلف ظهرها بحبلٍ مُرتبط بمعصم الرجل الأيسر.

وصلت إليهما وهو يرفع ذراعه ويستعد لضربها مرة أخرى، من السهل نزع العصا من يده دون أن يتوقع هذا، وأضربه بعدها ببعض القوة على كتفه، لكن يبدو أنه سمعني أتقدم نحوه، إذ وجدته فجأة يقفز مُحاولًا ركلي بحذاءه الجلدي الثقيل، فتراجعت بسرعة، ولحسن حظي كان نصف قطر مجاله محدودًا بسبب الحبل المربوط في معصمه، فوجه نحوي ضربة أخرى أصابت الهواء، تحسست سكينًا

ثُخيليًا في جيبي لم أجده هناك طبعًا، استدار الرجل وركل الفتاة، وشتمها وشد الحبل ليوقفها على قدميها، صفعته على جانب رأسه بما يكفي لإيقافه وجعل أذنيه ثُغني قليلًا، وبطريقة ما لم أستطع حمل نفسي على إخضاع رجل أعمى حتى لو كان من النوع المتوحش، وبينما يستعيد توازنه قطعت الحبل الذي يربطهما، ثم دفعته دفعة خفيفة في صدره ليقع على ظهره، ساعدت الفتاة على النهوض وفككت قيودها ثم تحركنا بعيدًا عن الزقاق بينما الرجل من خلفنا يكاد ينفث النار غضبًا.

وعندما خرجنا إلى الشارع بدأت تتخلص من ذهولها، فالتفتت بوجهها المُلطخ بالدموع نحوي ووجدتها تنظُر إليّ بغير تصديق:

- يُمكنك أن ترى!

- بالتأكيد أستطيع.

- الحمد لله! الحمد لله! اعتقدت أنني الوحيدة..

وانفجرت في البكاء، نظرت من حولنا فوجدت حانة على بُعد ياردات قليلة فيها فونوغراف يعزف بصوتٍ خافتٍ وزُجاجها الخارجي مُحطم، بعدها بعدة أمتار هُناك حانة أصغر لكن لا تزال سليمة، وبضربة كتف قوية انفتح بابها، ساعدت الفتاة وأجلستها على كرسي، ثم مزقت أوصال كرسي آخر ووضعت اثنين من ساقيه في مقابض الأبواب المُتأرجحة لأمنع دخول المزيد من الزوار.

لسنا مُتعجلين، صببت لها أول كوب شراب فارتشفت منه قطرات قليلة، منحتها وقتًا تتغلب فيه على ما جرى لها، أزج الكوب الزجاجي في يدي واستمع إلى الفونوغراف في الحانة الأخرى، هي أغنية معاصرة مشهورة وإن كانت رزينة إلى حدٍ ما:

"حُبي محبوس في ثلاجة،

وقلبي في مُجمدٍ عميق.

ذهبت فتاتي مع شاب، ولا أعرف إلى أين،

وكتبت لي أنها لن تعود أبدًا.

الآن لم تعد تهتم بشأني،

أصبحت متجرًا يعرض رجلًا وحيدًا،

وليس من اللطيف

أن أكون على الجليد

مع حبي المحبوس في ثلاجة،

وقلبي في مُجمِدٍ عميق".

سرقت من حين لآخر نظراتٍ سرية سريعة، ملابسها أو أعني بقايا ملابسها من نوعية جيدة، وصوتها جميل كذلك، كانت شقراء مع بعض الخصلات شبه البلاتينية، أظن أن تحت تلك اللطخات والكدمات ستكون جميلة المظهر، لون عينيها رمادي أزرق، طولها أقل بثلاث أو أربع بوصات من طولي، وبنيتها ضعيفة لكن ليست نحيفة، ويبدو أنها ستتمتع بالقوة إذا كان ذلك ضروريًا، لكنها القوة الأنثوية التي- وأظن أن عمرها لن يتجاوز الخامسة والعشرين- لم تُستغل إلا في الرقص، وربما تقييد الخيول، كما أن يديها جميلتين ناعمتين، وأظافرها تُظهر طولًا زخرفيًا أكثر من كونها عملية، أدى الشراب تدريجيًا عملًا جيدًا، وفي نهاية الأمر تعافت بشكلٍ كافٍ ليعود عقلها إلى قدراته.

- يا إلهي، لا بد أن شكلي فظيع.

ونهضت لتتأمل نفسها في المرآة.

- بالتأكيد أنا كذلك، أين..

تبحث عن دورة المياه بالتأكيد، فأشرت إلي حيث سيكون غالبًا، مرت عشرون دقيقة أو نحو ذلك قبل أن تعود، وبالنظر إلى المرافق المحدودة التي لا بد أنها موجودة الآن، فما فعلته كان جيدًا، قلت لها وأنا أمرر لها زجاجة شراب أخرى.

- سيجارة؟

قُمنا بتبادل القصص، ولأذيب الثلج سمحت لنفسي أن أقص عليها قصتي أولًا، وبعدما استمعت إليّ قالت:

- أنا مُحرجة من نفسي، لستُ كما تراني الآن حقًا، أعني لستُ كما وجدتني، في الواقع أنا أعتمد على نفسي بشكلٍ معقول رغم أنك قد لا تُصدق ذلك، لكن بطريقة ما، أصبح ما يحدث أكبر من فهمي وقدراتي، ما حدث سيئ بما فيه الكفاية، ولم أستطع التحمل فأُصِبت بالذعر، ظننت أنني ربما الوحيدة المُتبقية في العالم بأسره ممن يُمكنهم الرؤية، فسقطت في الحال، وشعرت بالخوف والسخافة، تصدع عقلي وأخذت أعوي مثل فتاة في ميلودراما فيكتورية، لن أُصدق ذلك عن نفسي أبدًا.

- لا تسمحي لهذا بإزعاجك، يُحتمل أن نتعلم الكثير من الأشياء المُدهشة عن أنفسنا قريبًا.

- هذا ما يُقلقني، إذا بدأ الأمر معي بتراجع تروسي إلى الوراء هكذا..

لم تستطع إكمال الجُملة، فقلتُ لها:

- كدتُ أُصاب بنفس درجة الذعر في تلك المستشفى، نحن بشر ولسنا آلات حاسبة.

اسمها جوسيلا بلايتون، ويبدو أن هُناك شيئًا مألوفًا حول اسمها، لكني لم أتمكن من تذكره، يقع منزلها في شارع دين، غابة سانت جون، أتذكر شارع دين؛ فيه منازل مُنفصلة مُريحة كلها باهظة الثمن لكن مُعظمها قبيحة المنظر، ولم يكُن هروب جوسيلا من المحنة العامة مسألة حظ أقل من حظي، أو ربما هي أكثر من ذلك، كانت في حفلة قريبة من بيتها ليلة الاثنين تلك؛ حفلة كبيرة.

تتذكر يوم الثلاثاء كيوم بؤس ضبابي وآثار إسراف في الشرب، تقول إنها لم تشعر بالمرض من قبل بعد الشرب مثل ذاك اليوم، وهي لم تشرب كثيرًا في الأصل، وفي حوالي الرابعة عصرًا عرفت أنها قد اكتفت، عادت إلى بيتها وقالت لرفاقها أولًا ثم رنت الجرس لتقول للخدم ألا يوقظوها عندما تأتي المُذنبات أو الزلازل أو يوم القيامة نفسه، أخذت قرصًا للصداع وقُرصًا منومًا، وبهذا لم تعرف شيئًا مما حدث

حتى أيقظها والدها صباحًا وهو يتعثر في غرفتها قائلًا:

- جوسيلا، اتصلي بدكتور مايل بحق الله، أخبريه أنني أصبحتُ أعمى.

اندهشت عندما رأت أن الساعة تقتربت من التاسعة صباحًا، نهضت وارتدت ملابسها على عجل، لم يرُد الخدم على جرس أبيها ولا جرسها، وعندما ذهبت لإيقاظهم وجدت أنهم أيضًا عُمي بدورهم.

ومع تعطل الهاتف، رأت أن السبيل الوحيد هي أن تذهب بالسيارة لتُحضر الطبيب بنفسها، بدت الشوارع هادئة وحركة المرور غائبة بغرابة، قطعت مسافة ميل تقريبًا قبل أن يخطر ببالها ما يبدو أنه حدث، وعندما تخيلت الوضع تمكن منها الذعر، لكن هذا لن يُفيد والدها ولا أي أحد، ربما لا تزال هُناك فرصة أن ينجو الطبيب من المرض كما حدث لها بالضبط، هو أملٌ يائس وضئيل، لكنها استمرت في قيادة السيارة على أي حال.

في منتصف شارع ريجنت بدأ المُحرك يتلاعب بها ثم توقف في النهاية، بسبب تسرعها في البداية لم تنظر في العدادات، والآن جف الخزان بالفعل.

جلست هناك بُرهة لتتجرع شربة من الفزع، كل الوجوه في الأفق تنظر إليها، ثم أدركت أنه لا أحد منهم يستطيع رؤيتها أو مُساعدتها، فنزلت من السيارة على أمل أن تجد مرآبًا في مكان ما بالقرب منه، واستعدت للسير بقية الطريق إذا لزم الأمر، وبينما تُغلق الباب سمعت صوتٌ خلفها يُناديها:

- دقيقة واحدة فقط يا صديقي!

استدارت ورأت رجلًا يتلمس طريقه نحوها.

- ماذا تُريد؟

- أنا تائه يا أنسة، ولا أعرف أين أنا.

- هذا شارع ريجنت، سينما نيو غاليري خلفك مُباشرة.

قالتها له واستدارت لتذهب، فأوقفها بقوله:

- فقط أريني أين الرصيف يا آنسة، هلا فعلتي ذلك؟

ترددت للحظة، وفي تلك اللحظة اقترب، مد يده ولمس كُمها، ثم اندفع إلى الأمام وأمسك ذراعيها بقبضة مؤلمة.

- وكما ترين، يُمكنكِ أن تري ما حولكِ، أليس كذلك؟ لماذا بحق الجحيم يُمكنك الرؤية بينما لا أستطيع أنا ولا أي شخص آخر؟

وقبل أن تُدرك ما يحدث، أوقعها أرضًا، استلقت على الطريق ووضع ركبته في ظهرها، أمسك معصميها في قبضة يده الكبيرة وشرع في ربطهما بخيطٍ أخرجه من جيبه، ثم وقف بعدما أتم ذلك وجذبها لتقف على قدميها مرة أخرى، ثم قال:

- حسنًا، من الآن فصاعدًا، ستستخدمين رؤيتكِ من أجلي، وأنا الآن جائع، خُذيني إلى حيث يوجد طعام، هيا.

قالت لي:

- أعتقد أنه لم يكن رجلًا سيئًا للغاية حقًا يا بيل، رغم أنك لن تُخمن ذلك بمجرد النظر إليه، كان خائفًا فحسب، وبأكثر مما كنت عليه، أعطاني بعض الطعام والشراب مما أُرشده إليه، وبدأ يضربني بهذا الشكل فقط لأنه كان مخمورًا ولأني لم أدخل معه إلى منزله، لا أعرف ماذا كان سيحدث لو لم تظهر.

ثم توقفت قبل أن تُضيف:

- لكني أشعر بالخجل الشديد من نفسي، ما حدث يُريك ما تأتي به السيدة الشابة الحداثية أليس كذلك؟ فقط صراخ وانهيار مع استنشاق بوادر أبخرة الجحيم!

- أعتقد أنني كُنتُ محظوظًا، كان يجب أن أتحدث عن تداعيات رؤيتي لتلك المرأة مع طفلها الذي يرى في بيكاديللي، الصُدفة فقط هي التي منعتني من الوقوع في نفس نوع الفوضى التي وقعتي فيها.

- أي شخص يمتلك كنزًا عظيمًا سيعيش دائمًا حياة غير مستقرة.

- سأضع هذا في الاعتبار من الآن فصاعدًا، أخبريني، ماذا تقترحين أن نفعل الآن؟

- يجب أن أعود إلى المنزل، والدي هُناك ومن الواضح أن العثور على الطبيب الآن ليس فكرة جيدة، حتى لو كان أحد المحظوظين مثلنا.

وأوشكت على إضافة شيء، لكنها ترددت، فقلت لها:

- هل تُمانعين أن أذهب معكِ؟ لا يبدو لي الوقت مُناسبًا لتجول أشخاصٍ مثلنا بمفردهم.

فنظرت لي بامتنانٍ وقالت:

- شكرًا لك، كدتُ أطلب منك ذلك لكنني ظننت أنك قد تُريد البحث عن شخصٍ ما.

- لا، لا أحد في لندن بأي حالٍ من الأحوال.

- أنا سعيدة بحق، لا أشعر بالخوف من أن يقبض عليّ أحدهم مرة أخرى، سأكون حذرة للغاية بعد ذلك، لكن بصراحة أنا خائفة من الوحدة، بدأت أشعر أني مُنفصلة ومُحاصرة.

بدأت أرى الأشياء تحت ضوءٍ جديدٍ مُختلف، وتخفف الشعور والإدراك المُتزايد بالكآبة، إذ من المستحيل في البداية ألا تشعر ببعض التفوق والثقة، فُرصنا في النجاة من الكارثة أكبر بمليون مرة من فُرص الباقيين الذين يجب أن يتحسسوا ويتلمسوا ويخمنوا، أما كلُ ما علينا فهو أن ندخل ونأخذ ببساطة.

- أتساءل كم منا لا يزال بإمكانه الرؤية؟ لقد صادفت رجلًا آخر، وطفلًا وطفلة، وأنتِ لم تُقابلي غيري، يبدو لي أن أمثالنا نادرين جدًا، ومن الواضح أن البعض أدركوا بالفعل أن فرصتهم الوحيدة للبقاء على قيد الحياة هي الحصول على شخص يمكنه الرؤية، وعندما يفهم الجميع ذلك، لن تكون العواقب جيدة.

بدا لي المستقبل في تلك اللحظة خيارًا بين العيش وحيدًا، خائفًا من الأسر، أو العمل على تجميع أناس مُختارون يُمكن الاعتماد عليهم لحمايتنا من المجموعات الأخرى.

- أبي المسكين، لقد تجاوزت الساعة الرابعة.

وأثناء عودتنا إلى شارع ريجنت مرة أخرى، جاءتني فكرة مُفاجئة صادمة، فقلت لها:

- تعالِ معي، أذكُر أن هُناك متجرًا في مكانٍ ما قريبٍ من هنا.

وبالفعل كان هُناك، هذا متجر لا يُناسب العميان غالبًا، جهزنا أنفسنا بزوجين من السكاكين وأحزمة لحملها حول خصرينا.

قالت جوسيلا وهي ترتدي الحزام:

- أشعر وكأنني قرصانة.

وبعد أمتار قليلة وجدنا سيارة سيدان كبيرة ولامعة، بابها مفتوح ومفتاحها داخلها، هذه سيارتها بالطبع ومن الجيد أن لا أحد استخدمها، الضوضاء الناتجة من تشغيلها أعلى في آذاننا من كل ضوضاء حركة المرور العادية في شارع مزدحم، شققنا طريقنا شمالًا مُتخذين تحركات مُتعرجّة لتجنب المتجولين، وكذلك المُتجمدين في منتصف الطريق بسبب صوت اقترابنا، كل الرؤوس في الطريق تتحرك إلى حيث يظنون أن نكون كلما اقتربنا، ثم يُطرقون أرضًا مع ابتعادنا ومرور الوقت، رأيت أحد المباني يشتعل، وارتفعت سحابة من الدخان من حريق آخر في مكان ما في شارع أوكسفورد، هُناك المزيد من الناس في الميدان لكننا تجاوزناهم بدقة، ومرننا بمبنى محطة البي بي سي، ثم شمالًا إلى طريق السيارات السريع في ريجنت بارك.

من المُريح أن نخرج إلى مساحة مفتوحة، حيث لا أشخاص بائسين يتجولون ويتلمسون، الأشياء المُتحركة الوحيدة التي نراها وسط مساحاتٍ عريضة من العشب هي مجموعات صغيرة من التريفيدات تتجه جنوبًا، كانوا يتدبرون أمرهم بسحب السلاسل التي تُقيدهم خلفهم، ولم نتعرض في بقية الطريق لما يؤخرنا، وفي غضونِ بضع دقائق توقفت عند منزل جوسلين، نزلنا من السيارة وفتحت لها البوابة، ثم قُدنا لمسافة قصيرة حول مجموعة من الشجيرات تختفي معظم واجهة المنزل

خلفها، وعندما واجهنا المنزل صرخت جوسيلا وكادت تقفز من السيارة راكضة، هناك شخص راقد على الحصى ويظهر جانب واحد من رأسه، ورأيت من أول نظرة خطًا أحمر يسير عبر وجنته.

- قفي!

حاولت تنبيهها بعلو صوتي، هُناك تريفيد يتربص بين الشجيرات، وهي تقترب من دخول مجاله قصفه.

- تراجعي بسرعة! هيا!

تسمرت لتتأمل الرجل الراقد على الأرض، وترددت فيما يجب أن تفعل مرة ثانية، ثم استدارت ببطء وقالت:

- لكن يجب أن..

ثم توقفت، واتسعت عيناها وصرخت، فاستدرت للخلف بسرعة لأجد تريفيد شاهق الطول يقف خارج نافذة السيارة وعلى بُعد بضعة أقدام فقط، من الغباء أني لم أُغلق الزجاج، ولكن كيف كنت سأُنبه جوسلين لوجود أول تريفيد فتلتفت وتُنبهني بدورها؟

وفي حركة تلقائية وضعت يديّ على عينيّ، سمعت اللاسعة تشق الهواء وتنطلق نحو وجهي، لكني لم أفقد الوعي، ولم أشعر بحرقٍ ولا ألم، يستطيع عقل المرء أن يتحرك مثل البرق في مثل تلك اللحظة، لكن أظن أن غريزة البقاء هي التي دفعتني للخروج من السيارة والقفز عليه أكثر من العقل، وقبل أن يُتاح لها الوقت لمُهاجمتي مرة أخرى، اصطدمت به وقلبته، وحاولت سحب الكأس واللاسعة، من الجيد أن سيقان التريفيدات لا تلسع.

جوسيلا واقفة في نفس المكان مُنذهلة، قُلت لها:

- تعالي إلى هُنا، هناك تريفيد آخر وسط الشجيرات خلفك.

فتلفتت خلفها بخوفٍ ثم جاءت إليّ، وقالت بعدم تصديق:

- ..لكنها ضربتك! لماذا لست..؟

- لا أعلم، يجب أن أكون مُصابًا حسبما أعرف.

نظرت إلى التريفيد الساقط تحتي، وتذكرت السكاكين التي أحضرناها، فاستخدمت واحدة لقطع اللاسعة من قاعدتها، ثم فحصت النبات جيدًا لأقول وأنا أشير إلى الأكياس السامة:

- هذا يُفسر السبب، انظري، هذه الأكياس فارغة، لو كانوا مُمتلئين ولو جزئيًا، لما تحدثت معكِ الآن.

يجب أن أشكُر مقاومتي المُكتسبة للسم، ومع ذلك هُناك علامات حمراء شاحبة على ظهر يدي ورقبتي، تُثير الحكة كأن الشيطان هو من لسعني، ففركتهم وأنا أقول:

- هذا غريب.

تمتمت بها لنفسي أكثر مما رغبت أن تسمعني، لكنها سمعتني.

- ما الغريب؟

- لم أرَ أكياس سُم فارغة تمامًا مثل هذه من قبل، لا بد أنه أجهد نفسه كثيرًا في اللسع.

لا أظن أنها سمعتني هذه المرة، عاد انتباهها إلى الرجل الراقد على الأرض، والتريفيد الواقف إلى جواره.

- كيف يُمكننا إبعاده؟

- أخشى أننا لا نستطيع ذلك، كما لا أعتقد أنه يُمكننا مساعدة الشخص الراقد الآن.

- هل تقصد أنه مات؟

- نعم، لا شك في ذلك، من هو؟

- بيرسون العجوز، عمل في البستنة لدينا، وكان سائقًا لوالدي، كان ودودًا طيبًا، أنا

أعرفه طوال حياتي.

- أنا آسف..

وحاولت التفكير في كلمات أكثر مُلائمة، لكنها قاطعتني بصيحاتها:

- انظر، انظر!

وأشارت إلى طريق يمتد حول جانب المنزل، تبرز ساق ترتدي جورب أسود وحذاء نسائي خلف الزاوية، مشينا ببطء نتفحص المكان، ثم تحركنا نحو منطقة أكثر أمانًا وتوفر رؤية أفضل، ترقد فتاة ترتدي فستانًا أسود، نصف جسدها على الطريق والأخر وسط مشتل أزهار، كانت جميلة و.. وجهها مشوه بخطٍ أحمر دموي ساطع، اختنقت جوسيلا وترقرقت الدموع في عينيها.

- أوه! إنها آني! آني المسكينة.

فحاولت مواساتها قليلًا بقولي:

- لم يعرفا غالبًا ما يحدث، عندما تكون اللسعة قوية بما يكفي، تكون قتلة سريعة ورحيمة.

عبرنا الطريق معًا ودخلنا إلى المنزل من بابه الجانبي، نادت جوسيلا على من بالداخل فلم يستجب أحد، نادت مرة أخرى فاستمعنا إلى الصمت المُطبق يُغلف المنزل، التفتت لتنظُر إليّ لكن لم يقل أي منا كلمة واحدة، قادت الطريق أمامي بطولِ ممرٍ إلى بابٍ مُغطى بجوخٍ أخضر، فتحته لأسمع حفيفًا، وصفع شيء ما الباب والإطار، فأغلقت الباب على عجل وهمست:

- هُناك واحدٌ بالداخل.

قالتها بصوتٍ تخاف أن يُسمع، فعُدنا إلى الباب الجانبي ومنه إلى الحديقة مرة أخرى، ومشينا على العشب طلبًا للصمت، شققنا الطريق حول المنزل حتى نتمكن من النظر إلى قاعة الصالة، تطل النافذة الفرنسية الواسعة المفتوحة على الحديقة، وزجاج أحد جوانبها مُحطم، هُناك أثار وحلٍ على درجات النافذة وعلى السجادة،

وفي نهاية الغرفة يقف تريفيد طويل يقترب جذعه من السقف ارتفاعًا، ويتأرجح قليلًا، وبالقرب من ساقه الرطب المُشعر والطيني، يرقد رجلٌ مُسنٌ يرتدي رداءً حريري لامع، فأمسكت بذراع جوسيلا خشية أن تندفع إلى هناك.

- هل هو.. والدك؟

سألتها رغم أنني أعلم أنه هو، فقالت:

- نعم.

ووضعت يديها على عينيها، وأخذت ترتجف، وقفت بلا حراك لأراقب التريفيد بالداخل لئلا ينتبه إلى وجودنا ويتحرك نحونا، أعطيتها منديلًا ببطء لتُجفف دمعها، لا يُمكننا فعل شيء، بعد فترة وجيزة سيطرت على نفسها، ونظرت إليّ طالبة للدعم، فقُلت:

- أتعلمين؟ أعتقد أنني أُفضل أن يحدث لي هذا بدلًا أن أكون مثل الآخرين من المكفوفين.

- نعم، أنت مُحق.

نظرت جوسيلا إلى السماء، كانت زرقاء ناعمة وسحب صغيرة تطفو مثل ريش أبيض، كررت بعدها:

- أوه، نعم، مسكين يا أبي، لم يكُن ليتحمل العمى.

في تلك اللحظة لمحت انعكاس حركة تريفيد في زجاج النافذة السليم، نظرت خلفنا سريعًا لأرى أحد التريفيدات يخرج من وسط الأشجار ويترنح ليتقدم نحونا مُباشرة، بإمكاني سماع حفيف الأوراق تتأرجح بينما الجذع يجلد الهواء ذهابًا وإيابًا.

لا وقت نُضيعه، وليس لدينا أي فكرة عن عدد التريفيدات الأخرى التي قد تكون متواجدة، أمسكت بذراع جوسيلا مرة أخرى وأعدتها إلى الطريق الذي جئنا منه، وعندما ركبنا السيارة أخيرًا، انفجرت في البكاء الحقيقي، من الأفضل لها أن تبكي، أشعلت سيجارة وفكرت في الخطوة التالية، أغلقت زجاج السيارة وأرجو ألا تتضايق

من تدخيني، طبيعي أنها ستتمنى أن ينال والدها دفنًا يليق به، وربما سيكون أمرًا نقوم به نحن الاثنين من حفر قبر ونقل جثمان وكل تلك الأعمال، لكن قبل تلك المحاولة من الضروري إحضار وسائل أتعامل بها مع التريفيدات الموجودة بالفعل، والاحتراس من أي أمر قد يجد، إجمالًا، سأؤيد إسقاط الفكرة كلها، لكنه بالطبع ليس والدي أنا..

كلما فكرت في هذا الجانب الجديد من الحياة قل إعجابي به، لا أعرف عدد التريفيدات الموجودة في لندن، في كل الحدائق الخاصة والعامة يوجد عددٌ منها، هذا غير التريفيدات السليمة التي يبدو أنها هربت وتجوب أنحاء لندن، ولا تنسى ما قد يحدث بسبب الإهمال، كما لا تنسى محطات الأبحاث ومعامل استخراج الزيوت!

وأخذتُ أفكر، هُناك معلومة تندفع من مؤخرة ذهني إلى الأمام، ترتبط ببعض الأفكار التي لم تنضج بعد، مرت دقيقتين أو كذا، ثم فجأة استرجعت ما قاله والتر، وبصوته شخصيًا:

- أقول لك، إن تريفيد لعين يستطيع البقاء على قيد الحياة أكثر من بشري أعمى.

وهو بالطبع يتحدث عن رجل أعمته لسعة تريفيد، لكنه كلام مخيف على أي حال، أتذكر قوله:

- يأخذون بصرنا، ويذهب تفوقنا عليهم.

هُناك تريفيد يتأرجح ويمشي على الحصى، يقترب، تأكدت من إغلاق النوافذ في حين صاحت جوسيلا بهستيريا:

- هيا، قُد السيارة ولنرحل من هنا.

نحن بخير، لا تقلقي، أُريد أن أرى ما يفعله.

هنا أدركت إجابة أحد أسئلتي، نظرًا لأني مُعتاد على التعامل مع الترفيدات فقد نسيت شعور معظم الناس تجاه غير المُقيدين منهم، وكان شعور جوسيلا تجاه تريفيد قادم هو: ابتعد عنه، وفر منه.

توقف الشيء عند الباب، يُمكنني أن أُقسم أنه يستمع إلينا، جلسنا هادئين تمامًا، وجوسيلا تحدق فيه برعب، توقعت أن يضرب السيارة لكنه لم يفعل، ربما بسبب كتم أصواتنا في الداخل، فضللها هذا للاعتقاد بأننا خارج نطاقها، بدأت العصيان الصغيرة الثلاثة العارية على ساقها تقرر فجأة، تتمايل وتتأرجح، ثم مشى التريفيد بعيدًا.

هنا تنفست جوسيلا الصُعداء وقالت:

- أوه، دعنا نبتعد قبل أن يعود.

هززت رأسي موافقًا، أدرت السيارة وانطلقنا في اتجاه لندن مرة أخرى.

ضوء في الليل

- إلى أين سنذهب الآن يا بيل؟

- كليركينويل أولًا، وبعد ذلك سنحصل على بعض الملابس من شارع بوند مثلًا، ولكن كليركينويل أولًا.

- ولكن لماذا كليركينويل..؟ يا إلهي!

صرخت جوسيلا، لقد دخلنا بعد مُنعطفٍ سيئ إلى شارع مُمتلئ بالناس، يقتربون منا راكضين مُتعثرين وأذرعهم ممدودة أمامهم، ويبكون ويصرخون بما يُمكن أن تتخيل معناه، تعثرت امرأة في المقدمة وسقطت فتعثر فيها الأخرون من ورائها، دهسوها فاختفت وهي تكافح تحت أكوام الأرجل، وخلف الجمع المُهرول لمحنا سبب استعجالهم وتقدمهم نحونا؛ ثلاثة تريفيدات ذات أوراق داكنة يؤرجحون أسلحتهم.

أسرعت بالسيارة قدر استطاعتي وانحرفت إلى طريقٍ جانبي، نظرت إلى جوسيلا فرأيت الرعب ذاته يرتسم على وجهها.

- هل.. هل رأيت مما يهربون؟

- نعم، ولهذا السبب نحن ذاهبون إلى كليركينويل، هُناك مكان يصنع أفضل أقنعة وأسلحة صيد التريفيدات في العالم.

لم نجد المسار الواضح الذي تمنيناه، فهُناك كثير من الناس بالقرب من محطة كينغز كروس، رغم سرعتي وضغطي على نفير السيارة دوريًا، أصبح صعبًا أن نسير بين الناس أو أن نُخيفهم بسرعتنا، وأصبح الأمر مُستحيلًا أمام المحطة نفسها، يبدو أن كل أهل المنطقة احتشدوا هُنا فلم نتمكن من تجاوزهم، وبنظرة خاطفة خلفنا عرفنا أننا أخطئنا بالتوغل وسط الحشد، ولن نتمكن من الرجوع بأي شكل، فأولئك الذين أزعجناهم كي نُمر أغلقوا بالفعل مسارنا، ويبدو أنهم فعلوا ذلك عن عمدٍ.

- اخرجي بُسرعة! أعتقد أنهم يلاحقوننا.

- لكن..

- أسرعي!

ضربت مرة أخيرة على بوق السيارة، بدا الأمر في ذهني وكأنه انفجار في أخر الأزمنة، ثم انزلقت ورائها تاركًا المُحرك يعمل، بعد لحظات أمسك رجل بمقبض الباب الخلفي، جذبه ليفتحه وحشر نفسه بالداخل، دفعتنا الجموع بعيدًا رغبةً في الضغط على السيارة، سمعنا صرخات غاضبة عندما فتح أحدهم الباب الأمامي ووجد المقاعد فارغة، وبحدوث هذا أصبحنا أعضاء وسط الحشد، أمسك شخص ما بالرجل الذي فتح الباب الخلفي ظنًا منه أنه هو الذي خرج للتو، وبتعاظم هذا الارتباك أمسكت بيد جوسيلا وشققنا طريقنا بعيدًا قدر الإمكان.

بعدما ابتعدنا عن الزحام واصلنا السير على الأقدام لفترة بحثًا عن سيارة مناسبة، وبعد ميلٍ أو نحو ذلك وجدنا سيارة المحطة المُغلقة، وأُرجح أنها ستُفيد الخطة التي بدأت تتشكل بغموض في ذهني.

المصانع في كليركينويل تُنتج آلات جيدة ودقيقة، هذه عادة المنطقة منذ قرون، المصنع الصغير الذي أتعامل معه نجح باحترافية في تكييف المهارات القديمة مع الاحتياجات الجديدة، ولقد وجدته بصعوبة لكن اقتحامه لم يكُن صعبًا، وعندما خرجنا شعرنا بارتياحٍ لما حصلنا عليه من بنادق صيد تريفيدات مُمتازة وعدة آلاف من الشباك الفولاذية الصغيرة والطلقات المُصممة خصيصًا لقطعهم، وبعض الخوذات ذات الشباك السلكية، وحملنا كل شيء دون تنظيمٍ جيد في الخلف.

- والآن.. الملابس؟

- كانت خُطة مؤقتة، يُسمح بالنقد والتصحيح، فأولًا، نحتاج لمكانٍ نجمع فيه شتات أنفسنا مؤقتًا ونُناقش أمورنا.

- لا أُريد حانةً أخرى، زرث ما يكفي من الحانات ليوم واحدٍ.

- ما فكرت فيه هو شقة، لا أظن العثور عليها صعبًا، سنرتاح لبعض الوقت ونحسم تفاصيل الخطة التقريبية، وربما نقضي الليلة فيها، أو.. ربما نبيت في شقتين إذا

وجدتِ أن قيود الأعراف لا زالت تتحدى الظروف الغريبة.

- أعتقد أنني سأكون أكثر سعادة عندما أجد شخصًا قريبًا مني.

- حسنًا، الخطوة الثانية هي تجهيزات ملابس الرجال والنساء، فلربما نُقرر أن ننفصل ويسير كلٌ في طريقه، وسيكون كل شيء على ما يرام، المهم ألا تتحدثي إلى أي شخص، خُذيها كقاعدة، وبهذا لن يُخمن أحد أنك تستطيعين الإبصار، عدم الاستعداد هو ما أوقعك في الفوضى من قبل، وفي بلاد المكفوفين يُصبح الرجل أعور ملكًا.

- أوه نعم، هربرت ويلز قالها، أليس كذلك؟ لكن هذا لم يكُن صحيحًا في القصة (10).

- الاختلاف هنا يكمُن في ما تعنيه كلمة "البلد" أو الوطن في الأصل:

Caecorum in patria luscus rex imperat omnis

وهو المثل الأصلي الذي كتبه فولونيوس(11)، لكن هنا لا تجد وطنًا مُنظمًا، ولا دولة، بل الفوضى فحسب، تخيل ويلز أناسًا تكيفوا مع العمى، ولا أعتقد أن هذا سيحدث هنا.

- وماذا سيحدث برأيك؟

- لن يكون تخميني أفضل من تخمينك، وقريبًا سنرى ونعرف كل شيء، المهم، فلنعُد إلى حديثنا، أين كُنا؟

- اختيار الملابس.

- حسنًا، سنتسلل إلى محل ونأخذ بعض الملابس ثم نرحل، ولن نُقابل التريفيدات في وسط لندن، ليس الآن على الأقل.

- حديثك لا يحمل الأمور بجدية.

- لا أشعر بخفة الأمر، ولستُ متأكدًا أن حمل الأمور بجدية من الفضائل، كما أن

رفض مواجهة الحقائق لن يُعيد إلينا شيئًا أو يُساعدنا، يتعين علينا مُحاولة النظر إلى أنفسنا كلصوص، أو كورثة غير راغبين في الاستمتاع بكل ذلك.

- حسنًا، ربما أنت مُحق، وماذا بعد الملابس؟

- الخطوة الثالثة هي تناول العشاء.

***

لم نجد صعوبة كبيرة في العثور على شقة كما توقعت، تركنا السيارة مُغلقة في منتصف الطريق أمام مبنى فخم المظهر وصعدنا إلى الطابق الثالث، لا أعرف بالضبط لماذا اخترنا الطابق الثالث، إلا أنه بدا بعيدًا عن الطريق، عملية الاختيار بسيطة، نطرق الباب أو نرن الجرس، وإذا أجاب أحد نتركه، وبعد ثلاث تجارب لم يرد أحد على طرقنا لأول باب، تمزق تجويف قفل الإطار بعد خبطة كتف واحدة جيدة.

لستُ من مُدمني العيش في شقة بإيجار يبلغ ألفي جنيه في السنة تقريبًا، لكن هُناك بالتأكيد أمور في صالحها؛ الديكور الداخلي عصري وأنيق ويبدو مُكلفًا للغاية، الموضة هي نبض قلب المكان، هُناك بعض الأزمات التي- إذا سار العالم في مساره المتوقع- ستتضخم لتُصبح علامات غضب الغد.

تجولنا في الشقة واصطحبنا معنا بعض الإعجاب والحسد والبهجة، وسأعترف بشعوري بالحقد في لحظةٍ ما، توقفت جوسيلا على عتبة غرفة تحتوي على كل مظاهر الأنوثة المُتكبرة العدوانية.

- سأنام هنا.

- زُباه، حسنًا، كل فتاة وذوقها.

- لا تكن شقّيا، ربما لا تسنح لي فرصة أخرى لتجربة الانحلال، ألا تعرف أن هناك القليل من غباء نجمات السينما في كل فتاة؟ سأدعها تُجرب قفزة أخيرة.

- كما تشائين، آمل فقط أن تُحافظي على الهدوء في مكانٍ كهذا، فليُنجني الرب من

الاضطرار إلى النوم في سرير وُضعت مرآة فوقه.

- توجد مرآة فوق الحمام أيضًا.

- لا أعرف، هل هذا ذروة التقدم والموضة أو أحط ما فيها.

أكملنا جولتنا في المبنى، ثم تركتني وخرجت لتتولى مسألة الملابس، فحصت موارد الشقة ثم انطلقت في رحلة استكشافية للمبنى نفسه، عندما خرجت فُتح باب آخر بأسفل الممر، توقفت مكاني، خرج شاب يقود فتاة شقراء ويُمسكها جيدًا، وعندما تخطت العتبة أطلق سراحها، قال:

- انتظري هنا دقيقة واحدة فقط يا حبيبتي.

ومشى ثلاث أو أربع خطوات على السجادة التي تمتص الأصوات، وجدت يداه الممدودتان النافذة في نهاية الممر، فتوجهت أصابعه مُباشرة إلى القفل وفتحته، لمحت شرفة مُزخرفة مُنخفضة الإطار في الخارج.

- ماذا تفعل يا جيمي؟

- أتأكد فحسب.

ثم عاد إليها بسرعة وأمسك يدها:

- تعالِ معي عزيزتي..

- جيمي، لا أريد المُغادرة، نحن نعرف على الأقل أين نحن، لكن كيف سنأكل؟ كيف سنعيش؟

- في الشقة يا حبيبتي، لن نأكل على الإطلاق، وبالتالي لن نعيش طويلًا، تعالِ معي عزيزتي، لا تخافي.

- ولكن أنا خائفة يا جيمي.

تشبثت به، فأحاطها بأحد ذراعيه.

- سنكون بخير يا عزيزتي، تعالي.

- لكن يا جيمي، هذه طريقة خاطئة، أنا خائفة للغاية، دعنا نعود.

- فات الأوان يا عزيزتي.

توقف عند النافذة، وبيدٍ واحدة تحسس الموقف بحذرٍ شديد، ثم وضع ذراعيه حولها ليُمسكها جيدًا، وقال بهدوء:

- هذا رائع لدرجة يجب أن يدوم بها، أنا أُحبكِ يا حلوتي، أُحبكِ كثيرًا جدًا.

ومال عليها ليُقبل شفتيها، ثم رفعها بين ذراعيه واستدار وهم بالخروج من النافذة.

قُلتُ لنفسي:

- عليك أن تثبُت في مخبأك، إما ذلك أو تبقى في حالة السُكر دومًا، أشياء من هذا القبيل تحدث في كل مكان بلا شك، وستستمر في الحدوث، لا يُمكنك مُساعدتهما، اعترف بذلك، افترض أنك قدمت لهم الطعام ليبقيا على قيد الحياة لبضعة أيام أخرى، فماذا بعد ذلك؟ عليك أن تتعلم المصالحة مع النفس، وإذا كنت لن تقاتل من أجل حياتك، فلا تُسمي ما تفعله نجاة، من يُمكنهم الحفاظ على سلامة وقوة عقولهم بما يكفي للتمسك بالحياة سوف يستمرون..

استغرق الأمر مني وقتًا أطول مما كنت أتوقع في مُحاولات إقناع نفسي وجمع شتاتها، مر ما يقرب من ساعتين قبل أن أعود لحالي، سمعت صوت جوسيلا العصبي أتٍ من تلك الغرفة مُفرطة النسوية.

طمأنتها وأنا أتقدم عبر الممر مع حمولتي التي لا أعلم متى جمعتها، ألقيتها في المطبخ وعدت إلى غرفتها لأتوقف عند الباب إذ قالت:

- لا يُمكنك الدخول.

- لم أنوِ هذا، ما أريد أن أعرفه هو.. هل يُمكنك الطبخ؟

- لا أعرف أكثر من سلق البيض.

- خشيت ذلك، هناك الكثير مما يجب أن نتعلمه.

ثم عدت إلى المطبخ، نصبت موقد الكيروسين الذي أحضرته فوق الموقد الكهربائي غير المُجدي وانشغلت به، وعندما انتهيت وضعت الطعام على الطاولة الصغيرة في غرفة الجلوس، وبدا لي المشهد جيدًا، أحضرت بعض الشموع والشمعدانات لإضافة لمسة أفضل، لا أعرف أين جوسيلا رغم سماعي لصوت المياه الجارية منذ فترة قصيرة، فناديتها.

- أنا آتية.

قُمت لأنظر عبر النافذة، وجدت نفسي أقول وأنا في كامل وعيي: وداعًا لكل شيء، الشمس تنخفض وراء الأبراج والواجهات الحجرية المُصطبِغة بالأبيض أو الوردي في مُقابل السماء المُعتمة، اندلعت المزيد من الحرائق هنا وهناك وتصاعد الدخان الأسود بكثافة، أظن أني لن أرى هذه المباني المألوفة بعد اليوم، وقد يأتي وقت أكون فيه قادرًا على العودة، لكن إلى نفس هذا المكان؟ من يدري! ستُغير الحرائق وظروف الطقس من شكل المدينة، وستبدو وقتها ميتة ومهجورة، لكن لا يزال بإمكانها الآن أن تتنكر في هيئة مدينة حية حين تراها من مسافة بعيدة.

أخبرني والدي ذات مرة أنه كان يتجول في لندن قبل حرب هتلر وعيناه مفتوحتان على اتساعهما ليرى جمال المباني التي لم يُلاحظها من قبل، وكأنه يودعها، أشعر الآن بمثل ما شعر به، لكن ما أمر به أسوأ بكثير مما يرجو أي أحد أن ينجو من تلك الحرب، وهو اليوم عدوٌ مُنتشر لا نجاة منه، وسيؤدي إلى مسارٍ طويلٍ وبطيء وحتمي نحو الانهيار التام.

قلبي يقاوم ما يُخبرني به عقلي، لا يجوز نسيان جثث سُكان المدن الكبرى وهم يُدفَنون في الصحاري ويُطمَسون في غابات آسيا، سينساهم الزمان وتختفي أسمائهم، لكن بالنسبة لأولئك الذين عاشوا هناك، فبالتأكيد لم يروا سقوط وتحلل مدائنهم أمرًا مُحتملًا أكثر مما قد يحدث لمدينة حديثة عظيمة بالنسبة لي، وهذه

واحدة من أكبر هلوسات الجنس البشري تأصلًا في العقول وبعثًا للثقة في النفوس؛ (لا يُمكن أن يحدث هذا هنا، وأنا سأنجو من بين الجميع)، أن عمري ومكانتي سيتجاوزان الكوارث بكل تأكيد، وإلا فكيف ستستمر الحكاية!

ثم يحدثُ هذا هنا، وما لم تحدث معجزة ما، فأنا أنظر الآن إلى بداية نهاية لندن، ولا بد أن هُناك رجال آخرون ينظرون إلى بداية نهاية نيويورك وباريس وسان فرانسيسكو وبوينس آيريس وبومباي، وكل المُدن الأخرى التي ظهرت فيها التريفيدات.

سمعت صوت جوسيلا وهي تدخل الغرفة؛ ترتدي فستانًا طويلًا جميلًا من الجورجيت(12) الأزرق الشاحب، فوقه سترة صغيرة من فراءٍ أبيضٍ، وقلادة مُعلقة على سلسلة بسيطة، تتألق عليها بعض الألماسات اللامعة باللونين الأزرق والأبيض؛ وهي نفس ألوان الحجارة المُتلألئة في مشابك أذنيها، وإن كانوا أصغر في الحجم، وبدا انتعاش شعرها ووجهها واضحًا وكأنها خرجت للتو من صالون تجميل، عبرت الغرفة يصحبها وميضُ نعالٍ فضية ولمحة من جوارب حريرية، وبينما أُحملق فيها دون كلماتٍ فتحت فاها وابتسمت، سألتني بخيبة أمل طفولية وهي تتوقف:

- ألا يُعجبك؟.

- أنتِ جميلة، أنا.. حسنًا، لم أتوقع شيئًا كهذا.

ثم أضفت:

- أنتِ.. تقولين للوضع وداعًا بهذه الطريقة؟

فظهرت نظرة مختلفة في عينيها.

- إذن أنت تفهمني، رجوت أن تفهمني دون كلامٍ كثير.

- أظن أنني أفهم، وأنا سعيد لأنكِ فعلت ذلك، سيكون شيئًا جميلًا نتذكره للأبد.

ومددتُ يدي إليها لأصحبها إلى النافذة.

- أنا أقول وداعًا أيضًا.. لكل هذا.

ما دار في ذهنها ونحن نقف هناك جنبًا إلى جنب هو سرها، أما في عقلي فكُنت أقلب ألبوم صور ذا حجمٍ ضخم، بعنوانٍ شاملٍ هو: هل تتذكر؟

ضعنا في أفكارنا طويلًا، ثم تنهدت جوسيلا لتقطع أفكارنا، ونظرت إلى فستانها ولمست حريره الناعم، ثم قالت بابتسامة صغيرة حزينة:

- سخيف، أليس كذلك؟ بينما روما تحترق؟

- بل حلو جدًا، شكرًا لكِ لفعلك ذلك، هي لفتة وتذكير أنه رغم ظهور كل تلك العيوب، هُناك الكثير من الجمال، وأنتِ الآن جميلة.

استبعدت الحزن من ابتسامتها وقالت:

- شُكرا لك يا بيل، هل قلت لك شكرًا من قبل؟ لا أظن أني قُلتها لك عندما ساعدتني أول مرة.

- لدي الكثير لأشكرك عليه، بدونك كنت سأستلقي على الأرض أو في الحانات، وهذا ليس وقتًا مُناسبًا للبقاء وحيدًا.

ثم أضفتُ لتغيير مسار الحديث:

- وبالحديث عن الشراب، وجدت أمونتيلادو ممتاز هنا، لقد عثرنا على شقة جيدة جدًا.

سكبت لها الخمر، ورفعنا كوبينا وقلت:

- من أجل الصحة والقوة والحظ.

أومأت برأسها، وشربنا، ثم قالت:

- ماذا لو عاد صاحب هذه الشقة فجأة؟

- هذا يعتمد على كونه كفيفًا أم لا، أو إن كان سيصطحب أحدًا معه، وفي كل

الأحوال سنشرح له الوضع- أو لها- ويجب أن يكون مُمتنًا جدًا لوجود شخص هنا يُخبره بأنواع الخمر في كل زجاجة، وكل ما يترتب على عماه المُحتمَل، لكنني لا أعتقد باحتمال عودة أحد.

- صحيح، احتمال حدوث هذا ضعيف، دعني أتساءل..

وأخذت تدور بنظرها حول الغرفة لتتوقف عيناها عند قاعدة حجرية، بيضاء ومُزخرفة:

- هل جربت الراديو، أعتقد أن هذا الشيء هُناك هو راديو، أليس كذلك؟

- هذا جهازُ عرضٍ تلفزيوني أيضًا، لكن لا توجد كهرباء.

- بالطبع، نسيت تمامًا، أظن أننا سنستمر في نسيان أشياء من هذا القبيل لفترة طويلة.

- جربت واحدة عندما كنت بالخارج، المشكلة هي نقص البطاريات، المهم أن كل قنوات البث صامتة كالقبور.

- هذا يعني أنه يحدث في كل مكان؟

- أخشى ذلك، سمعت صوت صفارات على بعد خمسين مترًا تقريبًا، ثم اختفى، أتساءل من المسكين وأين كان.

- هذا.. سيكون قاتمًا جدًا يا بيل، أليس كذلك؟

- لا، لا، لن أتناول عشائي الليلة وسط القتامة والغيوم، المُتعة قبل العمل، والمُستقبل عمل بالتأكيد، دعينا نتحدث عن شيء مُثير للاهتمام، مثل عدد علاقات الحب التي خُضتيها، ولماذا لم تتزوجي حتى الآن، أو.. أو هل أنتِ مُتزوجة؟ أترين أني لا أعرف إلا القليل، قُصي عليّ قصة حياتك من فضلك.

- حسنًا، وُلدت على بُعد ثلاثة أميال من هنا، وكانت والدتي غاضبة جدًا من ذلك وقتها.

فرفعت حاجبيّ اندهاشًا.

- قررت أمي أنني يجب أن أكون أمريكية، لكنها اكتشفت عندما جاءت السيارة لنقلها إلى المطار أن الأوان فات، كانت مُندفعة جدًا وأظن أنني ورثت بعضًا من ذلك.

وأخذت ثُرثر، لم أسمع الكثير مما يُلفِت النظر في بدايات حياتها، لكني أظن أنها استمتعت بتلخيصها ونسيان موقفنا الحالي لفترة من الوقت، وأنا استمتعت بالاستماع إلى ثرثرتها عن الأشياء المألوفة والمسلية التي ستختفي كلها من العالم الخارجي، مرت بشكلٍ خفيف على أيام الطفولة وذكريات الدراسة وبلوغ سن المراهقة، ثم اعترفت بشيء يُثير الاهتمام:

- كدث أتزوج في التاسعة عشرة من عمري، ولست سعيدة الآن بأن ذلك لم يحدث، لكنني لم أشعر بذلك وقتها، حدث شجار مخيف مع أبي الذي أنهى الأمر لأنه رأى على الفور أن ليونيل كان سحلياطل و..

- سحلياطل؟!

- سحلياطل(13). كلمة خليط بين الرجل السحلية(14) الذي يعمل على إغواء الإناث بإطراءه وسحره، والعاطل المُبهرج الذي يكسب رزقه بطرق مُريبة مُلتوية، قاطعت عائلتي وذهبت لأسكُن في شقة فتاة أعرفها، وبالتالي قطعت عائلتي عني إعالتي وهو أمر سخيف للغاية، لأنه أحدث تأثيرًا معاكس لما قصدوه، كل الفتيات اللاتي أعرفهن واللاتي يخرجن بهذه الطريقة كُن يُمضين أوقاتهن برداءة؛ مرحٌ قليل وكثير من الغيرة المرعبة، وكثيرٌ من التخطيط، لن تُصدق أبدًا مقدار التخطيط الذي تحتاجه للحفاظ على خيط أو اثنين من خيوط حياتك في حالة سليمة جيدة.

- وبالطبع أنتِ لا تُريدين أي خيوط تربطكِ على الإطلاق.

- تستخدم حدسك كثيرًا، المهم هو أني لم أتمكن من تحمل صديقتي التي تملك الشقة، وكان عليّ أن أكسب بعض المال، ولذلك كتبتُ كتابًا.

لم أعتقد أنني سمعتها جيدًا، فسألتها:

- هل كتبتِ كتابا؟

- نعم، أبدو غبيّة وفظيعة، هكذا اعتادوا أن ينظروا إليّ عندما أُخبرهم أنني أكتبُ كتابًا، وضع في اعتبارك أنه لم يكُن كتابًا مُمتازًا، أعني.. لست مثل ألدوس أو تشارلز(15) أو أمثال هؤلاء، لكنه نجح.

لم أسألها أي تشارلز مُحتمل تقصد، سألتها ببساطة:

- هل تقصُدين أنه نُشر بالفعل؟

- بالتأكيد، وقد كسبت الكثير من المال حقًا، وحقوق الفيلم كانت..

- ما عنوان الكتاب؟

- (الجنس مُغامرتي).

حدقت فيها ثم ضربت جبهتي.

- جوسيلا بلايتون، بالطبع، لم أستطع التفكير في سبب استمرار اسمك في دق كل أجراس الذاكرة في عقلي، أنتِ من كتبتِ هذا؟

لا أفهم لماذا لم أتذكر من قبل، صورتها كانت في كل مكان، وهي ليست صورة جيدة بصراحة، المهم أنني أُلقي نظرة على الأصل الآن، أما الكتاب فكان موجودًا في كل مكان، وأعرف أن مكتبتين كبيرتين حظرت تداوله، ربما بسبب العنوان وحده، بعد ذلك تأكد نجاح الكتاب وارتفعت مبيعاته إلى مئات الآلاف، هنا ضحكت جوسيلا فابتسمتُ لسماعِ ذلك، قالت لي:

- عزيزي، تبدو تمامًا كما بدا كل أقاربي.

- لا أستطيع أن ألومهم.

- هل قرأته؟

هززت رأسي بالنفي، وتنهدت.

- الناس ظُرفاء، كل ما تعرفه عن الكتاب هو العنوان والدعاية، فأصابتك الصدمة، وهو كتاب صغير لا يضر أحدًا، مزيج من الأخضر المُعقد و الوردي الرومانسي، مع بعض البُقع المدرسية الأرجوانية، لكن العنوان كان فكرة جيدة.

- هذا يتوقف على ما تعنيه بالجيد، وأنتِ تضعين اسمك عليه.

- كان هذا خطًا بصراحة، أقنعني الناشرون أنه سيكون أفضل من ناحية الدعاية، وكانوا على حق من وجهة نظرهم، أصبحت مشهورة جدًا بضربة ناجحة، كنت أضحك في داخلي عندما أرى أشخاصًا ينظرون إليّ باختلاف توجهاتهم في المطاعم، وبدا أنهم يجدون صعوبة كبيرة في ربط ما رأوه بما كانوا يعتقدون بوجوده، كثيرون ممن لا أهتم بهم كانوا يُحيطون بالشقة بانتظام، وللتخلص منهم، ولأثبت أنني لست مُضطرّة للعودة إلى المنزل، عُدت إلى المنزل مرة أخرى، أفسد الكتاب الأمور إلى حدٍ ما، إذ تعامل الناس بحرص وحَرفية بالغة مع العنوان، وبقيت في حالة دفاعية دائمة، منذ ذلك الحين وأنا أقاوم من لا أُحبهم، أما الذين رغبت في إثارة إعجابهم فكانوا إما خائفين أو مصدومين، المُزعج هُنا هو أنه لم يكن كتابًا شريرًا؛ بل كان مُجرد كتاب صادم وسخيف، ويجب على العُقلاء أن يروا ذلك.

- توقفت عن الكلام، ففكرت أن العقلاء وأصحاب المشاعر سيُقررون غالبًا أن مؤلفة كتاب (الجنس مُغامرتي) هي فتاة سخيفة وصادمة مثل الكتاب، فما نتوقعه أننا كشباب وقعنا جميعًا في الحماقات التي نتحرج من تذكُرها، لكن غالبية الناس سيجدون صعوبة في تصور النجاح المالي لحماقة شبابية.

- ما حدث لوى عنق كل شيء، خضتُ غمار كتابة كتابٍ آخر في مُحاولة لموازنة الأمور، لكنني سعيدة لأنني لم أُكمله أبدًا، كانت تجربة مريرة.

- وهل كان العنوان مُثيرًا بنفس القدر؟

- كُنت سأُسميه (ها هي المنبوذة).

- حسنًا، هذا يفتقر إلى المُفاجأة الصادمة في الكتاب الأول، هل هُناك اقتباس؟

- نعم: "سيد كونجريف: هُنا تستريح العذراء المنبوذة من الحب".

فهززت رأسي وأخذت أفكر فيه قليلًا قبل أن أقول:

- أعتقد أن الوقت حان لوضع خطة، هل يُمكنني سرد بعض الملاحظات أولًا؟

استلقينا على كُرسيين مُريحين، وعلى المنضدة المُنخفضة الكائنة بيننا انتصبت آلة القهوة وكأسان من الخمر، أخذت جوسيلا رشفة من مشروبها ثم قالت وهي تتذوق النكهة:

- أتساءل ما إذا كنا سنتذوق البرتقال الطازج مرة أخرى؟ حسنًا، أسمعني ما تُريد قوله.

- من الأفضل أن نخرج قريبًا، غدًا أو بعد غد، يُمكنك أن ترَ ما سيحدث، الماء موجود في الخزانات لكنه لن يكون هُناك قريبًا، وستضرب الرائحة الكريهة المدينة بأكملها وكأننا في مجاري كبرى، وهناك بالفعل جثث تُحيط بنا، وسنجد كل يومٍ المزيد.

لاحظت ارتجافها، نسيت أنني أتخذ وجهة النظر العامة، لكن تطبيقًا مُحددًا سيُفهمها ما أقصده أكثر، فأسرعت قائلًا:

- قد يعني ذلك ظهور التيفويد أو الكوليرا، مُهم أن نبتعد قبل أن يبدأ أي شيء من هذا القبيل.

فأومأت جوسيلا بالموافقة.

- هُنا يأتي السؤال التالي؛ إلى أين نذهب؟ هل لديكِ أي أفكار؟

- مكانٌ بعيدٌ عن الطريق، وبه مصدر مياه جيد، بئر مثلًا، ومن الأفضل أن يكون مُرتفعًا بقدر ما نستطيع، وربما نحتاج مكانًا تهب عليه رياحٌ لطيفة.

- لم أفكر في موضوع الرياح اللطيفة، لكنكِ على حق، قمة تل بها إمدادات مياه جيدة؟ هذا ليس أمرٌ سهلًا..

فكرت قليلًا، أرض البحيرات(16)؟ كلا لأنها بعيدة جدًا، ويلز ربما؟ أو إكسموور أو

دارتموور؟ أو جنوب كورنوول؟ ستهب علينا الرياح الجنوبية الغربية فيما حول لاندز إند غير ملوثة بعد عبورها المُحيط الأطلسي، لكنها بعيدة جدًا أيضًا، لا حل أمامنا إلا المُدن عندما تُصبح زيارتها آمنة.

- ماذا عن ساسكس داونز يا بيل؟ أعرف منزلًا قديمًا في مزرعة جميلة على الجانب الشمالي، يطُل على الجانب الآخر من بالبروه(17)، هو ليس على قمة التلال لكنه مرتفع عن سطح الأرض بالتأكيد، وهُناك مضخة مياه تعمل بالرياح، أظن أنهم يصنعون الكهرباء بأنفسهم، وكل هذا مُحدَث.

- يبدو محل إقامة مرغوبٌ فيه، لكنه قريب من الأماكن المُكتظة بالسكان، ألا تعتقدين أننا يجب أن نبتعد أكثر؟

- حسنًا، دعني أتساءل، ما المدة التي سنستغرقها قبل أن يُصبح الذهاب إلى البلدات آمنًا مرة أخرى؟

- لا أعرف بالضبط، سنة مثلًا؟ أظنه هامشًا آمنًا بدرجة كافية؟

- ربما، ولكن إذا ذهبنا بعيدًا جدًا، فسيصعُب الحصول على الإمدادات في وقتٍ لاحق.

- عندكِ حق في هذا.

وبهذا أسقطنا مسألة وجهتنا النهائية في الوقت الحالي، وانطلقنا في تحديد التفاصيل الخاصة برحيلنا، قررنا أن نبحث في الصباح عن شاحنة كبيرة كبداية، وجهزنا قائمة بالأساسيات التي سنخُزنها فيها، وإذا تمكنا من إنهاء التخزين فسنتخذ طريقنا في المساء التالي؛ وإذا تأخرنا خاصةً وأن القائمة تتضخم، فسنُخاطر بليلة أخرى في لندن ونرحل في اليوم التالي.

جاء مُنتصف الليل تقريبًا عندما انتهينا من إضافة رغباتنا الثانوية إلى قائمة الضروريات، قسمناها لأقسام عدة كأي متجر حقيقي، تثاءبت جوسيلا ووقفت.

- أنا نعسانة، ملاءات الحرير تنتظرني على السرير المنتشي.

بدت وكأنها تطفو على السجادة السميكة، أوقفت يدها على مقبض الباب، واستدارت لتنظر إلى نفسها بجدية في مرآة طويلة، ثم قالت:

- استمتعت ببعض الأمور.

ثم قبلت يدها ونظرت إلى انعكاسها، فقُلت لها:

- ليلة سعيدة أيتها العابثة، إطلالة حلوة.

فاستدارت وابتسمت لي بخفة ثم اختفت خلف الباب كضبابٍ ينجرف بعيدًا، سكبت قطرة أخيرة من البراندي وسخنته بين كفيّ، وارتشفته، ثم قلت لنفسي:

لن تفوز بمشهدٍ كهذا بعد اليوم، سيك ترانسيت(18)..

وهكذا سحبت نفسي إلى سريري المتواضع، وشعرت بالراحة على حافة النوم عندما طرقت جوسيلا الباب.

- بيل، تعال بسرعة، هُناك ضوء!

سألتها وأنا أجد صعوبة في النهوض من السرير:

- أي ضوء؟

- بالخارج، تعال وأنظر.

وقفت في الممر تلتف برداء لا يُمكن أن يملكه أحد إلا واحدة في مثل ثراء صاحبة غرفة النوم الرائعة تلك، فقلت بعصبية:

- يا إلهي!

- لا تكُن أحمقًا، تعال وانظر إلى ذلك الضوء.

هُناك ضوء بالتأكيد، أنظر من نافذتها نحو ما أظن أنه الشمال الشرقي، بإمكاني رؤية شعاع ساطع يصدُر غالبًا مِن كِشاف ويشير إلى الأعلى بثبات.

- هذا يعني وجود شخصٍ آخر يُمكنه الرؤية.

- بالتأكيد.

حاولت تحديد مصدره، لكن الظلام المُحيط لم يُساعدني، هو غير بعيدٍ ويبدو أنه ينبع من أعلى مبنى مرتفعٍ.

- أُفضِلُ أن أترك الأمر إلى الغد.

ففكرة محاولة إيجاد طريقنا إلى الضوء عبر الشوارع المُظلمة ليست جذابة إطلاقًا، ويُرجح أن يكون فخًا، فحتى الأعمى كان ذكيًا، وربما يكون يائسًا بما فيه الكفاية، وقادرًا على تركيب مثل هذا الشيء ببعض المجهود.

عثرتُ على مُبرد أظافر وحددت بعينيّ مستوى عتبة النافذة، وقمت برسم خط دقيق في الطلاء لتحديد اتجاه مصدر الشعاع بما استطيع من دقة، ثم عُدت إلى غرفتي.

استلقيت لمدة ساعة أو أكثر دون نوم، الليلُ والقلقُ يُضخمان هدوء المدينة ويجعلان الأصوات التي حطمت المدينة أكثر إنعزالًا، وبين الحين والآخر ترتفع الأصوات بحدة وهستيريا، سمعت ذات مرة صرخة مُتجمدة وكأنها تنفجر بسبب تحرُرها من العقل، وهُناك بكاءٌ مُستمر بلا نهاية، بلا أمل، سمعت طلقات مسدس مرتين جعلتني أشكر الصدفة الخالصة التي جمعتني أنا وجوسيلا، الوحدة الكاملة هي أسوأ ما يُمكن تخيله في ذلك الوقت، الإنسان وحده لا يكون شيئًا، حاولت حجب الأصوات لأنعم بالتفكير في الأمور التي يجب فعلها غدًا، وبعد غدٍ، والأيام التي تلي ذلك؛ و تخمين ما قد يعنيه شعاع الضوء، وكيف سيؤثر علينا، لكن النحيب في الخلفية استمر، يُذكرني بأسوأ ما رأيت اليوم، وما سأراه غدًا..

فُتح الباب فجلست فجأة وألف جرس إنذار يُصفر في علقي، كانت جوسيلا تحمل شمعة مضاءة وتبكي بكاءً شديدًا، ثم قالت:

- لا أستطيع النوم، أنا خائفة، هل يُمكنك سماعهم؟ كل هؤلاء المساكين؟ لا أستطيع تحمل ذلك.

جاءت إليّ كطفلة تُريد الأمان، لست متأكدًا.. هل تحتاجُ إليّ أكثر مما أحتاج إليها؟

نامت قبل أن أفعل، وأسندت رأسها على كتفي، ذكريات اليوم لم تتركني في سلام، لكن المرء في النهاية ينام، وكان آخر ما أتذكره هو صوت الفتاة الحزين وهي تُغني:

سنتوقف عن التجول..

اللقاء

عندما استيقظت لمحت جوسيلا تتحرك في المطبخ، تُشير ساعتي إلى الساعة السابعة تقريبًا، حلقت شعر ذقني بطريقة غير مريحة وباستخدام ماءٍ بارد، ثم ارتديت ملابسي، وبحلول ذلك الوقت شممت رائحة الخُبز المُحمص والقهوة تغمر الشقة، وجدتها تحمل مقلاة فوق موقد الزيت.، تمتلك هالة من الثقة بالنفس ما يصعب ربطه بالشخصية المُرعبة التي تعرفت عليها الليلة السابقة، هنا وفي تلك الساعة، كانت عملية للغاية، قالت:

- أخشى أن الحليب المُعلب قد فسد، توقفت الثلاجة عن العمل، كل شيء آخر على ما يرام.

يصعُب للحظة أن أُصدق أن الفتاة التي ترتدي أمام عينيّ ملابس مُلائمة، تختلف عمن ارتدت زيًا مُناسبًا للرقص في القاعات الكبيرة في الأمسية السابقة، اليوم اختارت بذلة تزلج زرقاء داكنة مع جوارب بيضاء تلتف فوق حذائين متينين، وعلى خصرها يلتف حزام جلدي داكن يتدلى منه سكين صيد مصنوع بدقة، يحلُ محل السلاح المتوسط الفعالية الذي وجدته بالأمس، لم أكون فكرة أو توقع عن طريقة ارتدائها لملابسها، لكن التطبيق العملي لاختياراتها ليس الانطباع الوحيد الذي تلقيته عندما رأيتها.

- ماذا تظُن؟

- ممتاز.

ثم نظرتُ إلى نفسي:

- أتمنى لو كان لدي وقتٌ للتفكير، صالة ملابس الرجال لم تكُن مناسبة للوظيفة.

فقالت وهي تنظر بصراحة وجرأة إلى زيي المُجعد:

- يُمكنك فعل أفضل من ذلك، في الشقة الكثير من المميزات.

ثم استطردت:

- الضوء في الليلة الماضية صدر من برج الجامعة، أنا مُتأكدة تمامًا، لا شيء آخر يُمكن مُلاحظته على نفس الخط الذي رسمته.

دخلت غرفتها ونظرت إلى الخدش الذي رسمته على عتبة النافذة فوجدته يُشير بالفعل- كما قالت- مُباشرة إلى البرج، ولاحظت أن البرج يرفع علمين على ذات الصاري، ربما تُرك الأول مرفوعًا صُدفة، لكن اثنان معناهما إشارة مُتعمدة، قررنا أثناء تناول وجبة الإفطار تأجيل خطتنا والتحقق من أمر البُرج، فلنعتبرها أول مهمة لنا اليوم.

غادرنا الشقة بعد حوالي نصف ساعة، وجدنا عربة المحطة واقفة في مُنتصف الشارع كما تمنينا أن تُفلت من انتباه المُتطفلين وتبقى سليمة، ودون تأخيرٍ وضعنا الحقائب التي جهزتها جوسيلا في الخلف مع عُدتنا لمُحاربة التريفيدات، وانطلقنا.

وجدنا قلة من الناس في هذا الصباح الباكر، يُفترض أن يجعلهم الإرهاق والبرد يُدركون أننا لا زلنا بالليل، وبالتالي لم يخرج الكثيرون بعدُ من أماكن نومهم، من رأيناهم كانوا قريبين من المزاريب وأكثر بُعدًا عن الجدران مما كانوا في اليوم السابق، ومُعظمهم يحملون العصي أو أخشابٍ مكسورة يشقون بها طريقهم، هذا سهل عملية المرور بدلًا من التزام جدران المباني ومداخل المنازل وبروزاتها، وقلل تكرار الاصطدامات بين الناس في الطُرق.

عبرنا الطريق بسهولة أكبر، إلى أن وصلنا إلى الشارع حيث يرتفع أمامنا برج الجامعة في نهايته، قالت جوسيلا:

- استعد، أعتقد أن هناك شيئًا ما يحدث عند البوابات.

أوقفنا السيارة وتسلقنا سور حديقة مُجاورة للجامعة ليُمكننا التقدم في صمت، تمكنا من العثور على تلٍ عالٍ قليلًا منحنا إطلالة على البوابات وعبر رؤوس الحشد، هُناك رجل يرتدي قبعة يقف خارج الجامعة ويتحدث بصوتٍ عالٍ من خلال القُضبان، ولا يبدو أنه يُحرِز تقدمًا لأن ما التقطناه من ردود الرجل على الجانب الآخر من البوابات كان اهتزازات رأس سلبية بالكامل.

سألتني جوسيلا بصوتٍ خافتٍ:

- ماذا يحدث؟

ساعدتها لتقف بجواري، استدار الرجل الثرثار فحصلنا على لمحات من تفاصيل وجهه، يبدو في الثلاثين من عمره تقريبًا؛ له أنفٌ مُستقيمٌ ضيق وملامح عظمية نحيفة، أما ما ظهر من شعره فكان داكنًا، لكن شدة أسلوبه كانت واضحة أكثر من مظهره الشكلي، ولا يبدو أن الحوار عبر البوابات سيصل إلى توافق، فأصبح صوته أعلى وأكثر حزمًا، رغم عدم وجود تأثيرٍ مرئيٍ على الرجل الآخر، لا شك أن الرجل خلف البواباتِ قادرٌ على الرؤية؛ وكان يفعل ذلك بحذر من وراء نظارته، وخلفه بعدة أمتار يقف ثلاثة رجال، ينظرون إلى الحشد والرجل المُتحدث باسمه باهتمام شديد، ارتفعت حرارة حديث الرجل الذي يقف في جانبنا خارج الجامعة، وعلا صوته لنعرف أنه يتحدث لصالح الحشد، سمعته يقول بغضب وفي صوته مزيجٌ غريبٌ من حديث المُتعلمين والخَشنين:

- والآن استمع إليّ، هؤلاء الناس لديهم نفس الحق اللعين في العيش مثلك، أليس كذلك؟ ليس ذنبهم أنهم أُصيبوا بالعمى، أليس كذلك؟ ليس هذا ذنب أحد، ولكنه سيكون ذنبك إذا ماتوا من الجوع، وأنت تعلم ذلك، أريتهم كيف يحصلون على الطعام، فعلت ما بوسعي من أجلهم، لكن يا للمسيح، ليس معهم غيري، وهُم بالآلاف، تستطيع أن تُريهم أماكن تواجد الطعام لكن هل ستفعل؟ ماذا ستفعل حيال ذلك؟ اللعنة على كل شيء، سأقول لكم، اعتنوا فحسب بجلودكم الرديئة، قابلت الكثيرين من أشباهكم، شعاركم هو: اللعنة عليك يا جاك، طالما أنا بخير.

وشاهدته يبصق على الأرض باحتقار، ليقول وهو يُلوح بيده نحو لندن ويرفع ذراعه عاليًا:

- هُناك الآلاف بالخارج من الشياطين المساكين، يريدون من يُريهم كيف يحصلون على الطعام، ويُمكنك فعل ذلك، كُل ما عليك فعله هو أن تُظهر قُدرتك، لكن هل ستفعل أيها التافه؟ كلا، ما تفعلونه هو أنكم أغلقتم الأبواب على أنفسكم هنا، وتركتم غيركم يتضورون جوعًا ولو إلى الموت، بينما يستطيع كُل واحدٍ مُنكم إبقاء المئات

على قيد الحياة بالخروج وإخبار المساكين أين يجدون حشاش الأرض، ألستم بشرًا بحق الله العظيم؟

الرجُل عنيف، ولديه قضية يضعها أمام الجمع، ويطرحها بحماس، أحسستُ بيد جوسيلا تُمسك بذراعي دون وعي منها، قال الرجل على الجانب الآخر من البوابة شيئًا غير مسموع لنا، فصاح الرجل في جانبنا:

- إلى متى؟ كيف سأعرف بحق الجحيم إلى متى سيستمر الطعام؟ ما أعرفه هو أنه إذا لم يُساعدنا الأوغاد أمثالك فلن يتبقى الكثيرون منهم على قيد الحياة بحلول الوقت الذي يأتون فيه لإنهاء هذه الفوضى الدموية، الحقيقة هي أنك خائف، تخشى أن تُظهر لهم مكان الطعام، أتعرف لماذا؟ لأنه كلما زاد عدد هؤلاء الشياطين المساكين وتمكنت من إطعامهم كلما قل نصيبكم من الطعام، هكذا يسير الأمر أليس كذلك؟ هذه هي الحقيقة، إذا كُنت شُجاعًا كفاية لتعترف بذلك.

فشلنا مرة أخرى في سماع إجابة الرجل الآخر، لكنه لم ينجح في تهدئة المُتحدث مهما كان، وجدناه يُحدق بقتامة من خلال البوابات ثم قال:

- حسنًا، إذا كانت هذه هي الطريقة التي تُريدها.

وركض بسرعة خاطفة كالبرق ليُمسك بذراع الرجل الأخر من بين القُضبان، وجذبه تجاهه ثم لفها بقسوة، وأمسك بيدِ رجلٍ أعمى يقف بجانبه وجعله يتشبث بذراع الرجل، وقال له:

- أمسكه جيدًا يا صاح.

وتركهم وقفز نحو ما يربط البوابات ببعضها، تعافى الرجل بالداخل من المُفاجأة، فحاول ضرب من يُمسكه بعنف من خلال القضبان بيده الأخرى، وضربه على وجهه دون قصد فأخذ الأعمى يصرخ لكن لم يُرخي قبضته، حاول زعيم الحشد انتزاع ما يربط البوابات، وفي تلك اللحظة سمعنا صوت رصاصة، ارتطمت الرصاصة بالدرابزين وأصدرت أزيزًا عند ارتدادها، توقف قائد الحشد فجأة وتردد، لا يدري ماذا يفعل، ومن خلفه تفجرت الشتائم والصرخات، يتأرجح الحشد ذهابًا وإيابًا لأنهم غير مُتأكد

هل يركضون نحو البوابات أم بعيدًا عنها، أولئك الموجودين في الفناء اتخذوا القرار نيابة عنهم، رأيتُ شابًا يُمسِك بمدفعٍ رشاش ويضعه تحت ذراعه ثم يصوبه تجاه الحشد، أوقعت نفسي على الأرض وسحبت جوسيلا معي، ثم بدأت قعقعة الرشاش.

إطلاق النار هذا كان مُتعمدًا؛ أزيز الرصاص والأضواء الناتجة عنه يُثير قلقًا شديدًا، دفقة واحدة قصيرة كافية لإنهاء الأمر، وعندما رفعنا رؤوسنا وجدنا الحشد قد تفرق وأفراده تتلمس طريقها إلى أجزاء أكثر أمانًا في أي اتجاه من الاتجاهات الثلاثة الممكنة، توقف قائدهم لبُرهة ثم صرخ بشيءٍ غير مفهوم، ثم ابتعد بدوره، شق طريقه شمالًا إلى شارع ماليت وهو يبذل قصارى جهده لحشد أتباعه مرة أخرى.

جلست حيث كنا ونظرت إلى جوسيلا، مرت بضعة دقائق قبل أن تسألني وهي ترفع رأسها وتنظر إلى الطريق:

- حسنًا، ماذا سنفعل؟

نظرت كذلك إلى آخر أفراد الحشد وهم يتخبطون في طريقهم بشكلٍ مُثير للشفقة.

- أنت تعلم أنه على حق، أليس كذلك؟

أومأت أن نعم، هو على حق، ومع ذلك كان مُخطئًا تمامًا، لن يأتي أحد لإزالة هذه الفوضى، أنا مُتأكد تمامًا من ذلك الآن، يُمكننا أن نفعل ما يقول وأن نظهر لبعض من هؤلاء، يُمكننا أن نُريهم أماكن تواجد الطعام لبضعة أيام، وربما لبضعة أسابيع، ولكن ماذا بعد ذلك؟ قلت لها:

- هذا يبدو فظيعًا وقاسيًا جدًا، وإذا واجهنا الأمر بصراحة، فهُناك خيار بسيط، إما أن نبدأ في إنقاذ ما يُمكن إنقاذه من بين الحُطام- وهذا يشمل أنفُسنا- أو يُمكننا تكريس جهودنا لإطالة حياة هؤلاء الأشخاص لفترة أطول قليلًا، وهذه أكثر وجهة نظر موضوعية يُمكنني اتخاذها، يُمكنني أيضًا التحدث بأن أكثر مسارٍ إنساني واضح هو على الأرجح الطريق إلى الانتحار، هل يجب أن نقضي وقتنا في إطالة أمد البؤس رغم أنه لا توجد فرصة لإنقاذ الناس في النهاية؟ هل هذا أفضل ما نفعله بأنفُسنا؟ وبهذا لا يبدو أن هُناك الكثير من الخيارات، أليس كذلك؟ حتى لو تمكنا من

توفير القليل، فماذا سنختار؟ ومن نحن أصلًا لنختار؟ وإلى متى يُمكننا القيام بذلك؟

قالت وهي تنظر إليّ:

- يبدو أنك اتخذت قرارك.

ويبدو أن هناك مسحة من عدم الموافقة في صوتها.

- عزيزتي، لا أحب هذا أكثر منك، وقد وضعت البدائل أمامكِ، هل نُساعد أولئك الذين نجوا من الكارثة على إعادة بناء نوع من الحياة؟ أم نقوم بإيماءة أخلاقية في ظاهرها فحسب؟

حفرت بأصابعها في الأرض، ورفعت أصابعها لتترُك التربة تتساقط، ثم قالت:

- أظن أنك على حق، وأنت على حق أيضًا عندما تقول إنني لا أحب ذلك.

- يختفي إبداء الإعجاب وعدم الإعجاب بيننا كعوامل حاسمة بشكلٍ جيد.

- رُبما، لكن لا يسعني إلا الشعور بأن هُناك خطأ في أي شيء يبدأ بإطلاق النار.

فأشرت إلى أنه أطلق النار ليُخطئ ويُفرقهم، وأظن أنه فعل ذلك ليتجنب القتال، تفرق الحشد كله الآن فتسلقت الجدار وساعدت جوسيلا على النزول، وعلى الفور فتح رجل البوابة ليسمح لنا بالدخول دون أن نتحدث إليه، سألنا:

- كم عددكم؟

- نحن الاثنين فحسب، رأينا إشارتكم الليلة الماضية.

فقال وهو يقودنا عبر الفناء الأمامي:

- حسنًا، تعاليا معي لنجد العقيد.

عثرنا على العقيد في غُرفة صغيرة ليست بعيدة عن المدخل يبدو أنها كانت مُخصصة للبوابين، كان رجلًا بدينًا بلغ الخمسين من عمره أو ما يقرُب من ذلك، شعره رمادي غزير لكنه مُشذب جيدًا، وشاربه يتطابق مع شعره كما لو أن شعرة واحدة

لا تجرؤ على كسر النظام، بشرته زهرية نضرة توحي بصحته، أو ربما هو أصغر سنًا مما توقعت؛ يجلس خلف طاولة عليها رُزم ضخمة من الأوراق، عندما دخلنا استدار ليواجهنا واحدًا تلو الآخر بنظراتٍ قوية ثابتة، واستمر في هذا لفترة أطول مما هو ضروري، أعرف هذه التقنية؛ الغرض منها هو توصيل فكرة تنفيذ فحص بصري به يُسجل جميع نقاط ضعفنا، التقط العقيد قلمه وسألنا:

- الأسماء من فضلكما.

فأعطيناه.

- والعناوين؟

فقلت:

- أخشى ألا تكون مُفيدة في الظروف الحالية، لكن لا بأس.

تمتم بكلماتٍ عن النظام والتنظيم والأقارب، ثم كتب العنوانين، والسن والمهنة، ثم أخذ يتأملنا مرة أخرى، وكتب بعض المُلاحظات، ثم وضع كل الأوراق في ملف.

- أنا بحاجة إلى رجالٍ طيبين لأداء أعمالٍ كريهة، سيُخبركما السيد بيدلي بالمطلوب.

وخرجنا إلى الساحة مرة أخرى بينما تضحك جوسيلا وتقول:

- نسي أن يطلب ثلاث نسخ من كل وثيقة، لكني أظن أننا حصلنا على الوظيفة.

عندما عثرنا على مايكل بيدلي تبين أنه على النقيض تمامًا من العقيد، كان نحيفًا طويل القامة وعريض الكتفين، لكن أحدب الظهر قليلًا، في وجهه تعبيرٌ عن كآبة خفيفة وظُلمة تغشى عينيه الكبيرتين، وهُناك خطوط رمادية عرضية في شعره الخفيف تُشير إلى عمره وهو حسب ظني ما بين الخامسة والثلاثين والخمسين، لا يبدو أنه نام منذ فترة ولا بد أنه ظل مُستيقظًا طوال الليل، هُناك تعبٌ واضح على ملامحه جعلت تقدير عمره أكثر صعوبة؛ لكنه استقبلنا بمرح مع ذلك ولوح بيده ليُقدمنا إلى سيدة شابة، طلبت أسمائنا مرة أخرى فأعطيناهما لها.

- ساندرا تيلمونت هي من تتذكر كل شيء باحترافية، والاستمرارية عملها، لذلك نعتبر وجودها عناية إلهية.

أومأت الشابة برأسها وهي تنظر إليّ، في حين نظرت بجدية أكبر إلى جوسيلا، ثم قالت وهي تتمعن في ملامحها:

- لقد التقينا من قبل.

وابتسامة في خفوت جعل وجهها لطيفًا، فقالت جوسيلا وهي تُحاول التذكر:

- أوه، بالطبع، ماذا قلت لك يا بيل؟ ذلك الأمر يعلق بالإنسان كالمُلصقات في الشوارع.

فاستفسر مايكل بيدلي:

- ما معنى هذا؟

حكيت له عن كتاب جوسيلا، ففحصها ببصره أكثر، فتنهدت بتململ ثم قالت:

- من فضلك انسى الأمر، سئمت من مُحاولتي جعل الناس ينسون ما يُثير خجلي.

يبدو أن هذا فاجأه لكنه تقبل ما قالت، فأومأ بما يعني أنه سينسى الأمر وقال:

- حسنًا، والآن لنُتابع الأمور، هل تحدثتما مع جاك؟

قلت له:

- إذا كُنت تقصد العقيد، فقد قابلناه بالفعل.

فابتسم ابتسامة عريضة وقال:

- يجب أن أعرف أين نقف، لا يُمكن أن تصل إلى أي مكان دون معرفة نقاط قوتك، من الأفضل أن أُعطيكما فكرة تقريبية عن كيفية سير الأمور هنا، هُناك حاليًا خمسة وثلاثين شخصًا، نأمل ونتوقع أن يأتي المزيد خلال النهار، من بين هؤلاء ثمانية وعشرين شخصًا يُمكنهم الرؤية، والآخرون هم زوجات أو أزواج، وهناك طفلان

أو ثلاثة لا يستطيعون ذلك، الفكرة العامة في الوقت الحالي هي أن نبتعد عن هنا غدًا، هذا إذا استطعنا الاستعداد في الوقت المناسب للذهاب إلى الجانب الآمن كما تفهمان.

أومأتُ له موافقًا وقلت:

- قررنا الابتعاد هذا المساء لنفس السبب.

- ماذا لديكما لتتنقلا به؟

- معنا سيارة شحن من محطة القطار، وكنا في الطريق لتخزين ما نقدر عليه اليوم، لكن ما خزناه بالفعل هو كمية من العتاد المُضاد للتريفيدات.

رفع مايكل حاجبيه، كما نظرت ساندرا إليّ بفضول.

- غريبٌ أن تجعل هذا أول ضروریاتك.

أخبرتهم بأسبابي، ويُحتمل أنني قمت بعملٍ سيئ لأنهما لم يُبديا إعجابًا بما قلت، فأومأ مايكل برأسه وقال:

- حسنًا، إذا كنت ستأتي معنا، فإليك ما أقترحه؛ أحضر سيارتك، وأفرغها من أغراضك، ثم أخرج وحاول استبدالها بشاحنة كبيرة جيدة، صحيح، كدتُ أنسى، هل يعرف أي منكما شيئًا عن التطبيب؟

فهززنا رؤوسنا نفيًا، فعبس قليلًا قبل أن يقول:

- هذا مؤسف، ليس لدينا حتى الآن من يفهم في الطب أو التمريض، سأُصدم إذا لم نحتاج إلى طبيب قريبًا، وعلى أي حال يجب علينا جميعًا الحصول على التطعيمات، لكني لا أظنه مُلائمًا أن أُرسلكما معًا للبحث عن الإمدادات الطبية، ماذا عن المواد الغذائية والمخازن العامة؟ هل يُناسبكما ذلك؟

قلب بعض الصفحات المُرتبطة معًا بمشبك، وفصل ورقة منهم وسلمها لي، كان رقمها خمسة عشر وتحتها قائمة مطبوعة بالبضائع المعلبة والأواني والمقالي، وبعض المفارش.

- ما تجدونه هنا قابل للتعديلات، لكن ابقيا قريبين منه بشكل معقول وسنتجنب الكثير من التكرار، تمسكا بأفضل جودة بالنسبة للطعام، وركزا على القيمة لا الكميات، أعني حتى لو كانت رقائق الذرة هي شغفك الرئيسي في الحياة، فلا تشغل بالك بها، أقترح عليكما الاهتمام بالمستودعات وكبار مخازن تجار الجملة.

وأخذ القائمة وكتب عليها عنوانين أو ثلاثة.

- العلب والأكياس هي المطلب الأساسي، لا تجذبك أكياس الدقيق على سبيل المثال؛ أخشى أن المهمة مُرهقة، لكنها أكثر وظيفة مُفيدة يُمكن أن نقدمها لكما في الوقت الحالي، أفعلا قدر ما تستطيعان قبل حلول الظلام، وسيجتمع الجميع هنا في حوالي الساعة التاسعة والنصف مساءً.

و بمُجرد أن استدرنا لنذهب سألنا:

- هل معكما مُسدس؟

- لم أفكر في ذلك.

- من الأفضل أن تحمل واحدًا، واستخدمه وقت الضروة فقط، طلقتان في في الهواء يفعلان الأفاعيل.

وأخرج مُسدسين من درجٍ في الطاولة ودفعهما نحونا، وهو ينظر إلى سكين جوسيلا.

بمرور الوقت الذي قضيناه في السير بشاحنة المحطة بعد تفريغها، رأينا عددًا أقل من الناس عما كانوا عليه بالأمس، يميل المكفوفون اليوم إلى المشي على الأرصفة عند سماع صوت المُحرك بدلًا من التحرش بنا.

أول شاحنة جذبت انتباهنا لفخامتها أثبتت عدم جدواها؛ كانت مليئة بصناديق خشبية ثقيلة جدًا يتعذر علينا إخراجها، اكتشافنا التالي كان أفضل؛ تحمل حتى خمسة أطنان، وجديدة تقريبًا وفارغة، فانتقلنا إليها وتركنا عربة المحطة لمصيرها.

في أول عناوين قائمتي، وجدنا مصاريع حُجرة التحميل مُعطلة، وإن تراجعت

دون صعوبة كبيرة بعد إقناعي لها بسهولة عتلة أخذتها من متجرٍ مجاور، في الداخل اكتشفنا ثلاث شاحنات واقفات على المنصة، وإحداها مُحملة بالكامل بصناديق اللحوم المُعلبة، سألتني جوسيلا:

- هل يُمكنك قيادة واحد من هذه الأشياء؟

- حسنًا، لا أرى مانعًا، نفس الفكرة العامة أليس كذلك؟ ولا توجد مُشكلة مرورية بالتأكيد.

قررنا أن نعود ونُحضر الشاحنة المُحملة لاحقًا، وأخذنا شاحنة فارغة إلى مستودع آخر، حملناها بطرود من البطانيات والسجاد والألحفة، ثم ذهبنا إلى المستودع الثالث الأبعد من ذلك لنجمع الأواني والمقالي والمراجل والغلايات.

المزاج السائد في الأحياء التجارية كئيب، رغم أن الكآبة لا تزال تُشبه نمط يوم أحد أو عطلة عامة عادية أكثر من نمط الانهيار وتحلل المجتمع، شاهدنا قلة قليلة من الناس في تلك الأجزاء، لو حدثت الكارثة في النهار بدلًا من الليل؛ أعني بعد عودة العمال إلى منازلهم، لكان المشهد مُختلفًا تمامًا.

بعد قسطٍ قصير من الراحة لاستعادة نشاطنا عُدنا للشاحنة المُحملة بالفعل في مخزن المواد الغذائية، وقُدنا الشاحنتين ببطء وبهدوء إلى الجامعة، أوقفناهم في الفناء الأمامي هناك، ثم انطلقنا مرة أخرى، وفي حوالي السادسة والنصف عُدنا مرة أخرى مع شاحنتين مُحملتين جيدًا وشعور بإنجازٍ مُفيد.

خرج مايكل بيدلي من المبنى لتفقد مُساهماتنا، وقد وافق على كُل شيء باستثناء نصف دستة من الأشياء التي أضفتها إلى الحمولة الثانية.

- ما هذا؟

- بنادق صيد تريفيدات، وسهام قصيرة لقتلهم.

- ولكنك وصلت ومعك الكثير من مُضادات التريفيدات بالفعل.

- أعتقد أننا سنحتاجهم.

أرى أنه شعر بالضيق بشأن موضوع التريفيدات، ويفسر ذلك بالتحيز الذي يتوقع أن وظيفتي السابقة تُرغمني عليه، وقد تفاقم بسبب الخوف المرضي الناتج عن اللسعة التي تلقيتها مؤخرًا، فاقترحت عليه الآتي:

- انظر، لقد جلبنا أربع شاحنات كاملة، أريد فقط مساحة كافية في واحدة منهم لمُضادات التريفيدات، وإذا رأيت أنك لن تستطيع منحي ذلك، فسأخرج وأجد مقطورة أو شاحنة أخرى.

- كلا، أتركهم، لا يشغلون مساحة كبيرة.

دخلنا المبنى وتناولنا بعض الشاي في مقصفٍ مُرتجَل أقامته سيدة لطيفة المعشر حسنة الوجه، في مُنتصف العمر.

قُلت لجوسيلا:

- يظن مايكل أن هُناك نحلة تحت طاقيتي أنا مهووس بها ولا يُمكنني التوقف عن التفكير عنها اسمها التريفيدات.

- سوف يتعلم، المهم.. أنا قلقة، غريب أن لا أحد هنا قد رآهم على ما يبدو.

- هؤلاء الناس كانوا قريبين من قلب لندن، لذا لا أستغرب مواقفهم، ونحن لم نر منهم أحدا اليوم.

- هل تعتقد أنهم سيأتون إلى هنا، وينتشرون في الشوارع؟

- لا أستطيع الجزم، ربما نجد التائهين منهم.

- وكيف سيتوهون؟

- إذا حاولوا الهرب بقوة ولمدة كافية، فعادةً ما يهربون في النهاية، كل الاختراقات التي رأيناها في المزارع حدثت بسبب ازدحامهم على أجزاء مُحددة من السياجات حتى تستسلم لهم وتنهار.

- لكن ألا نستطيع تقوية السياجات؟

- بإمكاننا فعل ذلك، لكننا لم نرغب في إصلاحها بشكلٍ دائم إذ لم يحدث ذلك كثيرًا، ويحدث في حقلٍ واحد في كل مرة، لذلك كنا نُعيدهم ونُقيم السياج مرة أخرى، لا أعتقد أن أيًا منهم يتعمد القيام بهذا، فمن وجهة نظر التريفيد ستتشابه المدينة مع الصحراء بشكلٍ كبير، لذلك أعتقد أنهم سيتجهون إلى الأماكن المفتوحة في أي وقت، صحيح.. هل سبق لكِ أن استخدمتِ بندقية تريفيد؟

- فهزت رأسها نفيًا:

- بعد أن نُغير ملابسنا، أظن أننا يجب أن نتدرب قليلًا، لست بارعًا لكن ما المانع؟ خاصةً إذا رغبتي في ذلك.

عُدت بعد ساعة أو نحو ذلك، رأيتها ترتدي فستانًا ربيعيًا أخضر، أخذنا اثنين من بنادق صيد التريفيدات وخرجنا إلى حديقة ميدان راسل القريب، أمضينا حوالي نصف ساعة في قص وقنص البراعم العلوية من الشجيرات القريبة المُحيطة، ثم اقتربت منا فتاة ترتدي سُترة حمراء مثقوبة وسروالًا أخضر، تمشي على العشب وتوجه كاميرا صغيرة نحونا، فسألتها جوسيلا:

- من أنتِ؟ صحافة؟

- شيء من هذا، أنا مسؤولة السجل الرسمي، اسمي إلسبيث كاري.

- بهذه السرعة! أظن أنكِ تتبعين العقيد الذي يُدرك أهمية للنظام.

- أنت مُحقٌ تمامًا.

ثم التفتت إلى جوسيلا وقالت:

- وأنتِ الآنسة بلايتون، تساءلتُ كثيرًا..

فقاطعتها جوسيلا:

- انظري، لماذا يجب أن يكون الشيء الوحيد الثابت في عالمٍ ينهار هو سمعتي؟ ألا يُمكننا أن ننسى ذلك؟

تجاهلت كاري طلبها وسألت:

- وما موضوع التريفيدات؟

- أنتم تعتقدون أن بيل هنا خائف أو مجنون بشأن التريفيدات.

ألقت الآنسة كاري نظرة مباشرة إلى وجهي، بشرتها بُنية فعلت فيه الشمس أفعالها بأقوى مما فعلت في بشرتنا، وعيناها ثابتتان بُنيتان وتبدوان قويتا الملاحظة، قالت لي:

- أنا أسألك أنت.

- أعتقد أن التريفيدات مُزعجة بما يكفي ويجب أخذها على محمل الجد خاصةً عندما تخرج عن للسيطرة.

- هذا حقيقي، رأيت أماكن خرجت عن السيطرة، وكان وضعًا مُزعجًا لكن في قلب إنجلترا، حسنًا، يصعب تخيل هذا هنا.

- لسنا كثيرين لنمنعهم الآن.

كادت ترد لكن منعها صوت محرك في الأعالي، نظرنا ورأينا مروحية تنجرف إلى ما فوق سطح المتحف البريطاني.

قالت الآنسة كاري:

أيعتقد أنه سيتمكن من الهبوط دون أن ألتقط له صورة وهو يفعل؟ أراكما لاحقًا.

ثم أسرعت عابرة فوق العشب، فاستلقت جوسيلا عليه وشبكت يديها خلف رأسها وأخذت تحدق في السماء، وعندما توقف محرك المروحية، هدأت الأمور أكثر مما كانت عليه من قبل، ظننت أني سأقدر على تخمين ما يسري في ذهنها لكنني لم أقل شيئًا، صمتت لفترة ثم قالت:

كما تعلم، أكثر ما يُثير صدمتي هو إدراك مدى سهولة فقدنا لعالم بدا آمنًا.

جوسيلا مُحقة تماما، تلك البساطة هي بطريقة ما نواة الصدمة، ينسى المرء كل

القوى التي تحافظ على التوازن بسبب كثرة الإلمام بالمعلومات، ويعتبر الأمان أمرًا طبيعيًا فطريًا، لا أظن إني فكرت من قبل في حقيقة أن تفوق الجنس البشري لا يرجع أساسًا إلى عقله كما يظن البشر في معظم الكتب، بل يرجع إلى قدرة الدماغ على الاستفادة من المعلومات المنقولة إليه

سيكون نوعًا غريبًا من العالم يا بيل، أقصد ما تبقى منه، ولا أعتقد أننا سنحبه كثيرًا.

بدت لي وجهة نظر غريبة، كما لو أن باستطاعة المرء أن يحتج على حُبه لفكرة الموت أو الولادة، أُفضل فكرة اكتشاف كيف سيكون الأمر أولًا، ثم أقرر هل سأحب الأمر أم لا، لكنني لم أرد عليها في العموم.

سمعنا بين الحين والآخر أصوات شاحنات تتجه نحو الجانب البعيد من المبنى، واضح أن معظم مجموعات البحث عن الطعام ستعود بحلول هذه الساعة.

الاجتماع

توقعنا أن يكون الاجتماع نوع من الخطابات الإعلامية؛ يعني إعلان الجدول الزمني والتعليمات وهدف اليوم وهكذا، ليس هذا ما حدث.

أُقيم الاجتماع في قاعة مُحاضرات صغيرة، وأضاءت المصابيح الأمامية للسيارات المكان بدون ترتيب، وعندما دخلنا وجدنا نصف دستة من الرجال وامرأتين- بدوا وكأنهم لجنة مُشكلة- يتشاورون خلف مكتب المُحاضر، أما ما أدهشنا فهو تواجد ما يقرب من مائة شخص جالسين في القاعة، والغلبة للإناث بنسبة حوالي أربعة إلى واحد، لم أدرك الحقيقة حتى أوضحت لي جوسيلا أن القليلين منهم قادرين على الرؤية.

سيطر مايكل بيدلي على المجموعة الاستشارية بطوله الفارع، تعرفت على العقيد الجالس بجانبه، أما باقي الوجوه فهي جديدة بالنسبة لي، باستثناء وجه إلسبيث كاري، التي استبدلت الكاميرا بدفتر ملاحظات، ما تفعله على الأرجح مُفيد لصالح الأجيال القادمة.

جُل اهتمامهم تركز حول رجل مسن ذو مظهر غير وسيم، يرتدي نظارات ذات إطار ذهبي، وشعره أبيض ناعم يسرحه كما يفعل السياسيين.

أظن أن السيدة الأخرى في مُقتبل العشرينات من عُمرها، لا تبدو سعيدة وتدور بنظراتها في وجوه من حولها وفي أماكن أخرى من الهواء، كما ألقت نظرات من حينٍ لآخرٍ على الجمهور بعصبية حاولت إلباسها ثوب الثقة.

دخلت ساندرا تيلمونت وهي تحمل ورقة فولسكاب، تفرست فيها للحظاتٍ، ثم قامت بتقسيم وتوزيع الحضور بخفة على مقاعد، ثم لوحت بيدها لمايكل كي يبدأ الاجتماع فوقف هناك خلف المكتب وظهر انحناء ظهره قليلًا، راقب الجمهور بعينين حزينتين بينما ينتظر توقف الغمغمات، وعندما تحدث ظهر صوته لطيفًا تمرن عليه كثيرًا ليظهر هكذا:

- الكثيرون منا هنا يشعرون بالخُدر في ظل هذه الكارثة، لقد انتهى العالم الذي

عرفناه في ومضة، وقد يشعر البعض أن هذه نهاية كل شيء، ما سأقوله هو أن هذا ممكن، يُمكن أن تكون اللحظة الحالية هي نهاية كل شيء بالفعل، فقط إذا سمحنا بذلك، ورغم أن الكارثة هائلة إلا أن هُناك هامش للبقاء على قيد الحياة، من المُفيد أن نتذكر أننا لسنا وحدنا ننظر إلى المصيبة الكبرى، مهما كانت الأساطير التي نشأت حولها، لا شك في حدوث فيضانٍ عظيمٍ في مكان ما وزمنٍ ما من تاريخنا، أولئك الذين نجوا من ذلك نظروا إلى كارثة مُماثلة في حجم ما يحدث لنا، بل وأكثر إفزاعًا في بعض النواحي، لكن اليأس ليس خيارًا، لا بد أنهم قاموا، وبدأوا مرة أخرى، كما يُمكننا أن نبدأ من جديد، الشفقة على الذات والإحساس بضخامة المأساة لن يبنيا شيئًا على الإطلاق، لذا من الأفضل أن نطرد تلك المشاعر السلبية على الفور، لأننا يجب أن نُصبح بناة، ولتقليص أشكال الدراما أود أن أوضح لكم أن ما حدث حتى الآن ليس أسوأ ما يُمكن أن يحدث، لقد أمضيت مُعظم حياتي- وكثيرون منكم فعلوا على الأرجح- في انتظار حدوث الأسوأ، منذ السادس من أغسطس عام 1945 تقلص هامش النجاة بشكل مروع، في الحقيقة كان هامش نجاتنا قبل يومين أضيق مما هو عليه اليوم، فإذا كُنت بحاجة إلى الدراما يُمكنك أن تبدأ في ضم السنوات التي تلت عام 1945 لموادك الدراسية، عندما يتقلص مسار السلامة المُجهز الآمن الواسع إلى حبل مشدود عليك السير بطوله وعيناك مُعلقتان عمدًا بالأعماق من تحتك، فإن الانزلاق المُميت في أي لحظة مرت من تلك السنوات كان مُحتملًا، وإن عدم حدوث الانزلاق لمُعجزة، وإنها لمُعجزة مزدوجة أن استمررنا لسنوات، لكن لا بد أن يقع الانزلاق؛ عاجلًا أم آجلًا، ولا يهم حدوثه بسبب الحقد أو الإهمال أو الصُدفة المحضة، المهم أن حدوثه يعني ضياع التوازن وإطلاق سراح الدمار، لا يُمكننا أن نعرف مدى سوء ذلك، ربما لا ينجو أحد؛ وربما ينتهي وجود الكوكب.. لكن الأرض سليمة ولا تزال مُثمرة، ويُمكنها تزويدنا بالطعام والمواد الخام، ولدينا مستودعات للمعرفة يسهُل بها تعلُم فعل أي شيء فعله الناس من قبلنا، رغم وجود بعض الأشياء التي من الأفضل عدم تذكرها، ولدينا الوسائل والصحة والقوة لإعادة الإعمار.

كان خطابًا طويلًا لكن لم يكُن أثره سيئًا، وعلى الرغم من عرضه للكثير من المعلومات العامة، كان الجو أكثر يقظة بعدما جلس.

تبعه العقيد بخطابٍ عملي وواقعي، وذكرنا أنه لأسباب صحية يُستحسن لنا الابتعاد عن جميع المناطق ذات البنايات في أقرب وقت مُمكن، ويُحتمل أن يكون في الساعة الثانية عشرة ظهر اليوم التالي، وقال أننا جمعنا معظم الضروريات الأساسية تقريبًا، بالإضافة إلى ما يوفر مستوى معقول من الراحة، وعند النظر في مخزوننا فهدفنا هو أن نستقل بأنفسنا عن المصادر الخارجية قدر الإمكان ولمُدة عام واحد على الأقل، كما يجب أن نقضي تلك الفترة وكأننا تحت الحصار تقريبًا، وهُناك بلا شك العديد من الأشياء التي نُحب أن تتواجد إلى جانب الضروريات الموجودة في قوائمنا، لكن عليهم الانتظار حتى يعتبر الطاقم الطبي- وهنا وضح الخجل العميق على الفتاة التي لا نعرفها- أنه من الآمن مُغادرة العزلة والذهاب لإحضارهم، أما بالنسبة لموقع عزلتنا فقد فكرت فيه اللجنة كثيرًا، واضعة في الاعتبار رغبات الاكتفاء الذاتي وحالات الاندماج والانفصال، وقد توصلت إلى نتيجة؛ إما مدرسة ريفية ذات سياج كبير، أو في حالة فشل ذلك؛ قصر ريفي كبير، وكلاهما من شأنه أن يخدم أغراضنا على أفضل وجه.

لا أستطيع أن أُخمن، هل لم تُقرر اللجنة بالفعل مكانًا مُعينًا، أو هل يُطبِق الفكرة العسكرية القائلة بأن السرية ذات قيمة جوهرية، ولكن فشله في تسمية المكان أو الموقع المُحتمل كان الخطأ الأكبر في تلك الليلة، وإن كانت طريقته العملية ذات تأثيرٍ مُطمئنٍ.

عندما جلس العقيد قام مايكل مرة أخرى، وتحدث إلى الفتاة بشكلٍ مُشجع ثم قدمها إلينا، وقال:

- إن أكبر مخاوفنا كانت عدم وجود أي شخص لديه معرفة طبية بيننا؛ لذا من دواعي الارتياح أن نُرحب بالسيدة بير، صحيح أنها ليست حاصلة على شهادات طبية لكنها تتمتع بمؤهلات تمريضية عالية.

قالت السيدة بير- ووجنتاها تحمران خجلًا مرة أخرى وبوضوح- جملة قصيرة عن رغبتها وتصميمها على أداء الوظيفة، وأنهت بفكرة تافهة مُفاجئة مُفادها أنها ستقوم بتلقيحنا جميعًا ضد مجموعة متنوعة من الأمراض قبل مُغادرتنا القاعة.

قام رجل وجهه صغير شبيه بالعصفور، ولم ألتقط اسمه، وقال بسخط أن صحة كل فرد تهم الجميع، وأنه يجب الإبلاغ عن أي اشتباه بأي مرض على الفور لأن آثار العدوى بيننا ستكون خطيرة، وعندما انتهى صعدت ساندرا وقدمت المُتحدث الأخير: دكتور إي إتش فورليس؛ دكتوراه في العلوم من جامعة إدنبرة، وأستاذ علم الاجتماع في جامعة كينغستون، مشى الرجل ذو الشعر الأبيض إلى المكتب ووقف هناك بضع لحظات ووضع أطراف أصابعه عليه، وأحنى رأسه كما لو كان يدرُس المكتب، واستمر هكذا لدقائق، فبدأ من هم وراءه ينظرون إليه ببعض القلق، ثم انحنى العقيد ليهمس بشيء في أذن مايكل، الذي أومأ برأسه دون أن يرفع عينيه عن الطبيب، ثم نظر الرجل العجوز إلى الأعلى ومرر يده على شعره وقال:

- أصدقائي، أدعي أنني الأكبر سنًا بينكم، مرت عليّ قرابة سبعين عامًا تعلمت أمورًا كثيرة، وأمور أخرى كان عليّ أن أتخلص من تعلُمها، رغم أنها لم تكن كثيرة كما أتمنى، لكن إذا كان هناك شيئًا واحدًا قد صدمني أكثر من عناد المؤسسات البشرية، فهو تنوعها، حسنًا، في الواقع وكما يقول الفرنسيون: maurs autres temps autre(19) يجب علينا جميعًا إذا توقفنا بُرهة للتفكير أن نفهم حقيقة كون نوعٍ ما من فضائل المجتمع قد يُصبح نوعًا آخر من جرائم نفس المُجتمع؛ وأن ما يُثير الاستياء هنا يُمكن أن يُثنى عليه في مكانٍ آخر؛ وأن العادات المُدانة في قرنٍ من الزمان يتغاضي عنها الناس في قرنٍ آخرٍ، ويجب علينا أيضًا أن نعرف بوجود إيمانٍ واسعِ النطاق في كُل مجتمع وفي كل زمنٍ بأخلاقيات العادات، والآن يتضح- بما أن العديد من هذه المُعتقدات تتعارض مع بعضها وبالتالي لا يُمكن اعتبارها كلها صحيحة بالمعنى المطلق- أن أكثر الأحكام التي يُصدرها المرء- إن كان له حق إصدار الأحكام- تعود إلى حقيقة كونها (صوابًا) في تلك المجتمعات التي جرأتهم على إطلاق الأحكام، وأن المجتمعات التي تواصل اتباعهم بشكل أعمى دون الاهتمام بالظروف المتغيرة بما يُناسب مصالحها، ستؤدي إلى تدميرها في نهاية المطاف.

لم يدرك الجمهور إلى أين قد تقود هذه المقدمة، فتململوا بوضوح، وعندما يواجه الإنسان منا مثل هذا الموقف، يعمل على إيقاف الراديو في الحال، ولهذا قرر المُتحدث أن يكون أكثر وضوحًا:

- وهكذا، لن تتوقع أن تجد نفس السلوكيات والعادات والأشكال في قرية هندية فقيرة تعيش على حافة المجاعة، وفي مايفير(20) على سبيل المثال، وبمعنى آخر، البيئات المُختلفة تتبع معايير مختلفة، أُذكركُم بأن العالم الذي عرفناه قد انتهى، والظروف التي صاغت معاييرنا ذهبت معه، احتياجاتنا مُختلفة الآن، وأهدافنا يجب أن تكون مُختلفة، أود أن أوضح لكم أننا جميعًا أمضينا اليوم في الانغماس فيما كان قبل يومين جرائم اقتحام منازل وسرقة، وبضمائر مرتاحة لأقصى حد، ومع كسر الأنماط القديمة يتعين علينا تحديد نمط الحياة المُناسب الجديد، ليس علينا ببساطة أن نبدأ إعادة الإعمار؛ علينا أن نبدأ في إعادة التفكير، وهو الأصعب والأكثر كراهة، الإنسان قابل للتكيف الجسدي لدرجات ملحوظة، لكن من عادة كل مجتمع تشكيل عقول صغارها ووضعها في قالب، وإدخال عامل التحيُز، والنتيجة هي مادة صلبة قادرة على تحمل ضغوط الغرائز الفطرية، وبهذه الطريقة يظهر إنسان يُخاطر طوعًا بالموت من أجل المُثل العليا رغم كل أحاسيسه الضرورية بالحفاظ على ذاته، وبهذه الطريقة أيضًا يظهر البُلهاء الذين يظنون أنهم يعرفون (الصواب)، وسيتعين على عدد كبير جدًا من هذه الأفكار المسبقة التي تلقيناها في قوالبنا وتحيزاتنا أن تذهب، أو أن نُغيرها بشكلٍ جذري، يُمكننا أن نقبل تحيزًا أساسيًا واحدً فقط وهو أن الجنس البشري يستحق الإبقاء عليه، ولهذا ستبقى كل التحيزاتِ الآخرى ولفترة من الوقت تحيزات ثانوية، يجب أن ننظر إلى كل ما نفعله مع وضع هذا السؤال في الاعتبار: هل سيُساعد ما نفعله الآن في بقاء عرقنا؟ فإذا كان سيُساعد، إذن يجب أن نفعله سواء كان يتعارض مع الأفكار التي نشأنا عليها أم لا، وإذا لم يكن الأمر كذلك، فيجب علينا تجنبه رغم أن إغفاله قد يتعارض مع مفاهيمنا السابقة عن الواجب والحق والعدالة، لن يكون هذا سهلًا؛ فالتحيزات القديمة لن تموت بسهولة، والآن بعدما ذهبت كل مُنظماتنا يجب أن نتخلى بالشجاعة الأخلاقية للتفكير والتخطيط لأنفسنا.

وتوقف للحظات ليستطلع رد فعل المتواجدين، ثم قال:

- هُناك شيء يجب توضيحه لكمّ قبل أن تُقرروا الانضمام إلى مُجتمعنا؛ يجب أن يعمل الرجال، ويجب أن تُنجب النساء أطفالًا، من لا يوافق على هذا لن يكون له

مكان هنا في مُجتمعنا.

وأضاف بعد فترة من الصمت:

- يُمكننا تحمل نفقات دعم عدد محدود من النساء اللواتي لا يستطعن الرؤية لأنهن سيُنجبن أطفالًا يُمكنهم الرؤية غالبًا، ليس لدينا ما ينفي قدرتهم على ذلك، لكن لا يسعنا دعم الرجال الذين لا يستطيعون الرؤية في عالمنا الجديد، وبهذا يُصبح الأطفال أكثر أهمية بكثير من الأزواج.

استمر الصمت لبضع ثوان بعد توقفه عن الكلام، ثم تحولت النفخات المُنعزلة بسرعة إلى ضجيج عام، نظرت إلى جوسيلا، كانت تبتسم ابتسامة عريضة:

ما المُضحك في هذا؟

تعبيرات وجوه الناس.

نظرت حولي في المكان، ثم انتقلت إلى مايكل، عيناه تنتقلان من قسمٍ إلى آخر من الجمهور في مُحاولة لتلخيص رد الفعل:

- مايكل يبدو قلقا بعض الشيء.

- يجب أن يقلق، إذا تمكن بريغهام يونغ(21) من تحقيق ذلك ونقل أتباعه في مُنتصف القرن التاسع عشر، فلا بد أن يكون هذا مهمة سهلة.

- يا لكِ من شابة فظة في بعض الأحيان، هل كُنتِ في مثل هذا من قبل؟

- ليس بالضبط، لكنني لست غبية، أثناء تواجدك بعيدًا أتى شخص ما بمُعظم هؤلاء الفتيات الكفيفات في حافلة، كانوا هُناك في مؤسسة ما لرعاية المكفوفين، فقلتُ لنفسي: لماذا يجمعونهم من هناك بينما يُمكنهم تجميع الآلاف من هنا؟ من الواضح أن الإجابة كانت (أ) كونهن كفيفات قبل حدوث ذلك، وبالتي تدربوا على القيام بأعمالٍ أيًا كان نوعها، و(ب) كلهن فتيات، وبالتالي لن نجد مُقاومة كبيرة، وهُناك ما قالوه عن دور الإناث في الإنجاب.

ثم قالت لي: صه، صه. حل الصمت والهدوء في القاعة، وقفت فتاة سمراء جميلة، ذات شفاهٍ رفيعة، تبدو عارفة لما تريد، وبينما تنتظر سكوت الهامسين، بدا عليها صعوبة أن تفتح فمها لتتكلم، لكنها فعلت ذلك في النهاية، سألت بصوتٍ يتسم بالصلابة:

- هل نفهم أن المُتحدث الأخير يدافع عن الحب المجاني؟

وجلست وسط همهمات مزعجة، فقام دكتور فورليس بتسريح شعره للخلف بيده وهو ينظر إليها وقال:

- أظن أن السائلة تُدرك أنني لم أذكر الحب أبدًا؛ لا مجاني ولا مدفوع ولا مقايضة، هلا ألقيتي سؤالك بطريقة أوضح من فضلك؟

فوقفت الفتاة مرة أخرى وقالت:

- أعتقد أن المُتحدث يفهمني، أسألك ما إذا كنت تقترح إلغاء قانون الزواج؟

- القوانين التي عرفناها أُلغيت بسبب الظروف، ويقع على عاتقنا الآن سن قوانين مُناسبة لأوضاعنا وتنفيذها إذا لزم الأمر.

- لا يزال هناك قانون الله، وقانون التحشُم.

- سيدتي، كان لسُليمان ثلاثمائة أو خمسمائة زوجة، ويبدو أن الله لم يكن ضده، المُحمدي يحترم بصرامة وجود ثلاث زوجات(22)، هذه عادات محلية، ما ستكون عليه قوانيننا في هذا الشأن وشؤون أخرى هو ما نقرره جميعًا في وقتٍ لاحقٍ لتحقيق أكبر فائدة للمجتمع، قررت اللجنة بعد المُناقشة أنه إذا أردنا بناء حالة اجتماعية جديدة لتجنُب الانتكاس إلى الهمجية- وهو خطر قابل للحدوث- يجب أن نأخذ تعهُداتٍ مُعينة من الراغبين في الانضمام إلى المجتمع، لن يستعيد أحد الحالة التي فقدناها، ما نقدمه هو حياة تحتشد بالمهام في أفضل الظروف، والسعادة التي سننالها بعد الإنجاز والتغلب على الصعاب ستتعاظم، ما نطلبه في المقابل هو الرغبة والإنتاج، لا إكراه والخيار لكم، أولئك الذين لا يروق لهم عرضنا يتمتعون بحرية تامة

للرحيل والذهاب إلى مكان آخر وبدء مُجتمع مُنفصل على النحو الذي يُفضلونه، لكني أطلب منكم أن تفكروا مليًا فيما إذا كان أحدٌ هنا يحمل أمرًا من الله بحرمان أي امرأة من سعادة القيام بوظائفها الطبيعية.

النقاش الذي أعقب ذلك تحول إلى عبارات متطايرة، وفرضيات لن نجد إجابات عليها الآن.

انتقلت أنا وجوسيلا إلى الطاولة حيث وضعت الممرضة بير أدواتها، أخذنا عدة طلقات في أذرعنا ثم جلسنا مرة أخرى لنستمع إلى الجدل، سألتها:

- كم منهم سيُقرر المجيء في رأيك؟

- جميعهم تقريبًا، بحلول الصباح.

- لكن هُناك الكثير من الاعتراضات.

- إذا كُنت امرأة، ستقضي الليلة ساعة أو ساعتين قبل ذهابك إلى النوم في الاختيار ما بين الأطفال ومُنظمة ترعاك أو الالتزام بمبدأ قد يعني عدم وجود أطفال ولا أحد يعتني بك، وهنا لن تتشكك كثيرًا، مُعظم النساء تُرِدن الأطفال على أي حال.

- هذا أمر مُثير للسخرية حين يصدُر منكِ.

- إذا كُنت تعتقد أن هذا مُثير للسخرية فلا بد أنك شخصية عاطفية للغاية، أنا أتحدث هنا عن النساء الحقيقيات لا النساء كما يظهرن في العالم.

ثم أخذت تتأمل لبعض الوقت حتى اكتسب وجهها عبوسًا تدريجيًا قبل أن تقول:

- ما يُقلقني هو كم يتوقعون من الأطفال؟ أنا أحب الأطفال لكن هناك حُدود.

بعد أن استمر النقاش العام بخشونة لمدة ساعة أو نحو ذلك انتهى الأمر، طلب مايكل أن تُترك أسماء الراغبين في الانضمام إلى خطته في مكتبه بحلول الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، وطلب العقيد أن يُبلغه كُل من يستطيع قيادة شاحنة قبل الساعة السابعة صباحًا، وهكذا انتهى الاجتماع.

تجولت أنا وجوسيلا خارج الأبواب، كان مساءً لطيفًا، والضوء على البرج يطعن السماء المُظلمة، والقمر بزغ للتو فوق سطح المتحف، وجدنا حائطًا مُنخفضًا فجلسنا عليه، ننظر إلى ظلال حديقة سكوير ونستمع إلى صوت الريح الخافت وهو يُداعب أغصان الأشجار ونُدخن السجائر في صمت، وعندما وصلت إلى نهاية سيجارتي رميتها بعيدًا وسحبت نفسًا عميقًا ثم قُلت:

- جوسيلا.

أجابتني بهمهمة تعني غرقها في التفكير وهي نادرا ما تخرج من أفكارها، فقلت لها ما أُفكر فيه مُباشرة:

- امم، أنظري، هؤلاء الأطفال، سأكون فخورًا وسعيدًا إذا.. نوعًا ما.. إذا أمكن أن يكونوا لي كما هم لكِ.

جلست بلا حراك للحظة، ولم تقل شيئًا، ثم أدارت رأسها ليلمع ضوء القمر على شعرها، لكن وجهها وعينيها غرقتا في الظل، انتظرت ردها وشعرت وكأن مطرقة مريضة تنزل على رأسي، ثم قالت بهدوء مُدهِش:

- شكرا لك عزيزي بيل، أعتقد أنني سأسعد بذلك أيضًا.

تنهدت، وإن لم تهدأ الطرقات كثيرًا، ورأيت يدي ترتجف وهي تحاول الوصول إلى يدها، لم أعرف ماذا أقول لكن جوسيلا قالت:

- لكن الأمر ليس بهذه السهولة الآن.

- ماذا تقصدين؟

- أعتقد أني لو كنت مكان هؤلاء الأشخاص هناك، إذن ينبغي وضع قاعدة هامة، يجب أن نُقسم الناس إلى مجموعات، كل رجل يتزوج مُبصرة ويتخذ فتاتين كفيفتين أيضًا، أنا مُتأكدة أني سأفعل هذا.

- لا تقصُدين هذا يا جوسيلا.

- أخشى أني أفعل يا بيل، لكن ألا تعتقد أنهم يملكون فكرة من هذا القبيل في

أذهانهم، ألا تستشف هذا مما قالوه؟

- هذا مُحتمل، لكن إذا وضعوا القاعدة، فهذا شيء أخر، ولا أرى..

- هل تقصد أنك لا تحبني كفاية لدرجة اتخاذ امرأتين أخريتين معي؟

- انتظري هنا، هذا كله جنون غير طبيعي، ماذا تقترحين بالضبط؟

- استمع إليّ فحسب يا بيل، أعلم أن الأمر يبدو مُخيفًا بعض الشيء في البداية لكنه ليس جنونًا، كل شيءٍ واضح تمامًا وإن لم يكُن سهلًا، ما حدث هنا فعّل شيئًا ما بداخلي، أرى كُل شيءٍ الآن بطريقة مُختلفة، ومن أهم ما أراه الآن أن ما نمُر به سيجعلنا أقرب لبعضنا البعض، وسنعتمد أكثر على بعضنا البعض، وسنُصبح كأسرة أو قبيلة مُتماسكة أكثر مما كنا عليه من قبل، طوال ما سبق رأيت أشخاصًا بؤساء أعرف أنهم سيموتون قريبًا، فأقول لنفسي طول الوقت: هذه معجزة! أنا لا أستحق أي شيء أفضل من هؤلاء الناس، لكن هذا ما حدث؛ أنا ما زلت هنا لذا فإن الأمر متروكٌ لي الآن لتفسير ما جرى، وبطريقة ما جعلني هذا التفكير أشعر بأنني أقرب إلى أشخاص آخرين رغم أننا لم نعرف بعضنا بالفعل، وهذا جعلني أتساءل طوال الوقت عما يمكنني فعله لمُساعدتهم، وهكذا يجب أن نفعل شيئًا لتبرير تلك المعجزة يا بيل، ماذا لو كُنت واحدة من الفتيات المُصابات بالعمى؟ ماذا لو كنت أحد الرجال المتجولين في الشوارع؟ لا شيء يُفيد المجتمع الناشئ، لكن إذا حاولنا الاعتناء ولو بعددٍ قليل ومنحهم السعادة بقدر ما يُمكننا، فسوف نرد جزءً صغيرً مما ندين به، هل ترى ما أراه يا بيل؟

قلت بعد تفكيرٍ قصير:

- أعتقد أن هذا أكثر تفسيرٍ غريب سأسمعه في حياتي.

- لكنه صحيح، أليس كذلك يا بيل؟ أعرف أني على حق، حاولت أن أضع نفسي مكان إحدى الفتيات الكفيفات، فقلت أننا نتمتع بفرصة حياة كاملة كانوا سيعيشونها، أفلا نُقدم جزءً من حياتنا كامتنان، أم نحجُب كل هذا ببساطة بسبب التحيزات التي تعلمناها؟

أعرف أن جوسيلا تعني كل كلمة قالتها، تأملت قليلًا في طرق النسويات العازمات صاحبات مناهج التغيير أمثال فلورنس نايتنجايل(23) وإليزابيث فراي(24)، لا يُمكنك فعل أي شيء مع هؤلاء النساء، وغالبًا ما يتبين أنهن على حق:

- حسنًا، إذا كان هذا ما تعتقدين وجود حدوثه، ولكني أتمنى..

فقاطعتني:

أوه يا بيل، علمت أنك ستفهم، أوه، أنا مُبتهجة جدًا، لقد جعلتني سعيدة جدًا.

فقلت لها:

أتمنى..

فربتت جوسيلا على يدي وقالت:

لا داعي للقلق على الإطلاق يا عزيزي، سأختار لك فتاتين لطيفتين عاقلتين.

أوه.

جلسنا هناك على الحائط وأيدينا تتعانق، وننظر إلى الأشجار المُرقطة، ومن المبنى الذي يقع خلفنا شغل أحدهم فونوغراف يعزف موسيقى فالس لشتراوس، وفجأة أصبح الطريق أمامنا شبحًا في قاعة رقص، وسط دوامة من الألوان والقمر كثريا من الكريستال.

انزلقت جوسيلا ونزلت من فوق الحائط، امتدت ذراعيها وموجت أصابعها وتركت جسدها يتأرجح، رقصت بخفة مثل شوكة مُزغبة طائرة في مهب الريح وسط دائرة كبيرة من ضوء القمر، اقتربت مني وعيناها تلمعان وذراعاها تدعواني للاقتراب.

ورقصنا على شفا مستقبل مجهول وصدى نوستالجيا تتلاشي.

الإحباط

أسيرُ في مدينة مجهولة مهجورة، يُقرع جرس بشناعة وصوت قبرٍ شبحي يُنادي في الفراغ: الوحش طليق! احذروا! الوحش طليق! وعندما استيقظت وجدت أن الجرس يدُق حقًا، كان جرسًا يتشابك مع قعقعة نحاسية مزدوجة قاسية لدرجة جعلتني لا أتذكر مكان وجودي للحظة، وبينما أنا جالسٌ ومُرتبك، جاءت أصوات تُنادي: حريق! فقفزت من تحت أغطيتي وركضت إلى الممر، هُناك رائحة دخان وضجيج أقدام متسارعة، وأبواب كثيرة تُدق، أحسست أن الأصوات تأتي عن يميني؛ الأجراس والأصوات الخائفة، وهكذا استدرت وركضت، يمر قليلٌ من ضوء القمر عبر النوافذ الطويلة في نهاية الممر مما أدى إلى تخفيف العُتمة بما يكفي لي كي أبقى في منتصف الطريق وأتجنب الأشخاص الذين يتحسسون طريقهم باستخدام الجدران.

وصلت إلى السَلم، الجرس يدق في القاعة بالأسفل، شققت طريقي بأسرع ما يُمكن مُخترقًا الدخان الذي أصبح أكثر كثافة، وبالقرب من قاع المبنى تعثرت في شيء وسقطت للأمام، فأصبح الظلام مُفاجئًا ينفجر فيه ضوء كسحابة من الإبر، وكان هذا كل شيء.

أول ما شعرت به بعدها كان وجعًا في رأسي، ثم تلا ذلك ومضات نور أصابت عينيّ، الوميض الأول كان مُبهرًا كأضواء الكليج(25)، لكن عندما فتحت عينيّ مرة أخرى ورفعت الأغطية بحذر اتضح أنها مُجرد نافذة عادية قذرة، عرفت أنني مُستلقٍ على فراش، لكنني لم أجلس قبل أن أتحقق أكثر؛ هُناك شيء ما في رأسي يتحرك كالمكابس مما أثبط مُحاولاتي للحركة، فاستلقيت بهدوء لأدرس السقف، حتى اكتشفت أن معصميّ مربوطين معًا، وهذا ما أخرجني من الخمول على الرغم من الصخب في رأسي، لم يكُن القيد مشدودًا بشكلٍ مؤلم، عدة لفات من الأسلاك المعزولة عن بعضها على كل مِعصم، وعقدة مُعقدة في الجانب البعيد يستحيل الوصول إليها بأسناني، سببتُ من فعل هذا ونظرت حولي، كانت غرفة صغيرة وفارغة باستثناء السرير الذي استلقي عليه.

- مرحبًا، أنتم، هل من أحدٍ هُنا؟

بعد نصف دقيقة أو نحو ذلك سمعت أقدامًا تختلط في مشيها بالخارج، فُتح الباب وظهر رأس صغيرٌ عليه قبعة تويد(26)، ويرتدي قلادة من الخيط ولحيته غامقة وغير مُشذبة، لم ينظر نحوي مُباشرة وهو يقول بودٍ كافٍ:

- مرحب يا ديك البرايا، إذًا فقد صحوت، أليس كذلك؟ تماسك للحظة وسأحضر لك فنجانًا من أي شيء محروق.

ثم اختفى مرة أخرى، لم أضطر إلى الانتظار طويلًا إذ عاد بعد بضعة دقائق حاملًا عبوة شرب ذات مقبض سلكي وبها بعض الشاي.

- أين أنت؟

- أمامك مباشرة، على السرير.

فتحسس طريقه إلى الأمام بيده اليسرى حتى عثر على مؤخرة الفراش، فدار بجسمه ليجلس عليه مُمسكًا بالعلبة.

- هذا صحيح يا صاح، سوف تتذوق طعمًا مُضحكًا بعض الشيء لأن تشارلي وضع دفقة روم في العبوة أولًا، أعتقد أنك لن تُمانع ذلك.

أمسكتها ببعض الصعوبة بسبب يديّ المقيدتين، كان الطعم قويًا وحلوًا، ولم يطغى طعم الروم، لم يكن طعمًا شاذًا، لكنه عمل كإكسيرٍ للحياة ذاتها، قلت له:

- شُكرا، اسمي بيل.

- وأنا ألف.

- ماذا يحدث هنا يا ألف؟

قدم لي علبة سجائر وعلبة أعواد ثقاب، أخذت واحدة وأشعلتها، ثم أعدت له العُلبة.

- تعلم بوجود قليلٍ من الضجة في الجامعة صباح أمس، رُبما كنت هُناك؟

- رأيت ذلك، نعم.

- حسنًا، بعد تضييع الوقت في الصباح السابق، استاء كوكر- وهو الرجل الذي تحدث- وقال أنهم من طلبوا أن يحدث ذلك، مطالبنا عادلة في المقام الأول، كانت الخطة هي إيصال شابة تستطيع الرؤية داخل الجامعة، وهي من فعلت الأمر، كوكر هذا رجل بصحيح.

- تقصد أن كوكر هذا هو من خطط للأمر كله؟ لم يكن هُناك حريق؟

- حريق، يا خالتي! ما فعلاه هو توصيل سلك تعثر أو اثنين، وإشعال الكثير من الأوراق والعصي الخشبية في القاعة، ثم نقرع الأجراس، وهكذا أتيتم، من تعثر منكم سحبناه إلى الشاحنة فورًا، أمرٌ بسيط كالتقبيل بالضبط..

- تبدو خطة فعالة، كم منا وقع في هذا الفخ الصغير؟

- العشرات حسبما أعرف، رغم أنه تبين أن خمسة أو ستة منهم مُصابون بالعمى، عندما امتلأت مساحة الشاحنة رحلنا، وتركنا البقية ليستجمعوا شتاتهم.

مهما كان ما ظنه كوكر فينا، من الواضح أن ألف لا يحمل أي عداء تجاهنا، سأرفع قبعتي عقليًا لهم، انتهيت من الشاي وقبلت سيجارة أخرى منه.

- وما الخطة الآن؟

- كوكر يُفكر أن يجمعنا في فرق، يضع واحدًا منكم مع كل فرقة، فيتولى المُبصر مسح المناطق ويتصرف كأنه عيون الباقين، مهمتك هي مُساعدتنا على الاستمرار حتى يأتي شخص ما ليُصوب هذا الضياع.

- وهل تظن أن أحدهم سيأتي فعلًا؟

صعد برأسه نحوي وقال:

- هل تظن أن هذا لن يطول؟

- لا أعلم، ماذا يقول كوكر؟

يبدو أن كوكر هذا لم يُلزم نفسه بالتفاصيل، أما ألف فكان له رأيه الخاص:

- إذا سألتني فأعتقد أنه لن يأتي أحد، سيكون الأمر مُختلفًا لو كُنا في بلدة صغيرة، لكن لندن! المنطقي أنهم سيأتون إلينا قبل أي مكانٍ آخر، كانوا ليمروا علينا، بسياراتٍ ومُكبرات للصوت ويُخبروننا بما يجب أن نفعله، لكن لم يأتِ أحد وهذا يعني أنهم لن يأتوا أبدًا، أظن أنك توافقني، لكن لا تزال هُناك فرصة، ربما أشخاص من مكانٍ ما خارج البلاد..

صمتنا لبعض الوقت، ثم قال:

- حسنًا، لم تكُن حياة سيئة رغم أنها لم تستمر.

تحدثنا قليلًا عما فعلناه من قبل، عمل في عدة وظائف مُختلفة ويبدو أن منها بعض الأعمال السرية المُثيرة للاهتمام، لخص الأمر بقوله:

- لكني لم أفعل أمورًا سيئة، بطريقةٍ أو أخرى، وأنت، ما هو ميدان عملك؟

أخبرته فلم ينبهر.

- تريفيدات، هاه! كائنات سيئة حسبما أعتقد، بل نبت شيطاني غير طبيعي.

توقفنا عند هذا الحد، خرج وتركني لأفكاري وترك أيضًا غلبة سجائره، حاولت توقع ما سيجري وتساءلت كيف سيتقبل الآخرون أسرنا، تُرى ما هي وجهة نظر جوسيلا؟ عاد ألف ومعه مزيد من الطعام وغلبة الشاي التي لا مفر منها، وبرفقته الرجل الذي يُدعى كوكر، بدا مُتعبًا للغاية، أكثر مما أتذكره عليه أو ربما هو تأثير المسافة البعيدة، كان يحمل تحت إبطيه مجموعة من الأوراق، سألني وهو يتفحصني بدقة:

- هل فهمت الفكرة؟

- ألف قال لي كُل شيء.

- حسنًا.

وألقى أوراقه على الفراش ثم التقط الورقة العلوية، كانت خريطة شوارع لندن الكبرى، أشار إلى منطقة تغطي جزءً من هامستيد وسويس كاتدج مُحددة بقلم رصاص أزرق ثقيل.

- هذا نصيبك، فريقك سيعمل داخل تلك المنطقة، وليس أي منطقة أخرى، مُهمتك هي العثور على الطعام والتأكد من حصول أفراد فريقك عليه، الطعام وأي شيء آخر يحتاجون إليه، فهمت؟

- أو ماذا؟

- أو سوف يجوعون، وإذا حدث ذلك، فسيكون أمرًا سيئًا للغاية بالنسبة لك، بعض الشباب هنا أقوياء، ولا يفعل أيّ منا هذا من أجل المتعة، لذا انتبه لخطواتك، سنوصلك صباح الغد إلى موقعك في شاحنة، بعدها سيكون عليك أن تستمر في العمل حتى يأتي شخص ما ليُرتب الأمور.

- وإذا لم يأتِ أحد؟

- سيأتون، هذا واجبٌ عليهم، كفى تشاؤمًا، أدِ وظيفتك واهتم بمنطقتك فحسب.

كان على وشك المغادرة فأوقفته بسؤالي:

- هل أنسة بلايتون هنا؟

- لا أعرف أسماؤكم.

- شعرها أشقر، طولها حوالي خمسة أقدام، لون عينيها رمادي أزرق.

- هناك فتاة شقراء بهذا الطول لكني لم أنظر إلى عينيها.

قالها وهو يُغادر، درست الخريطة التي أعطانيها، لا أعرف المنطقة المُخصصة لي بشكلٍ كبير، هي ضاحية قريبة من الميناء وستتضمن أرصفة ومستودعات يأملون أن نجد فيها ما يُفيد، وعلى أي حال ليس لدي نية للبقاء هناك لفترة طويلة، وعندما ظهر ألف مرة أخرى سألته أن يأخُذ مُلاحظة مني إلى جوسيلا، فهز رأسه رافضًا وقال:

- آسف يا صديقي، هذا غيرُ مسموحٍ به.

وعدته بأني لا أنوي أي ضرر، لكنه ظل ثابتًا على موقفه، لا أستطع إلقاء اللوم عليه فليس لديه أسباب تدعوه للثقة بي، ولن يقدر على قراءة المذكرة ليعرف أنها غير ضارة كما زعمت، وليس معي أصلًا قلم ولا ورقة، لذلك تخليت عن الفكرة، وبعد ضغوطٍ مني وافق على إخبارها بأنني هنا وأن يعرف المنطقة التي ستذهب إليها، وعندما عاد إليّ قال:

Telegram:@mbooks90

- وستمنستر.

أيقظني ألف صباح اليوم التالي، يرافقه رجل أكبر حجما صوب ساطور جزار نحوي في تبجح لا داعي له، تقدم ألف وأسقط كومة ملابس على السرير، أغلق زميله الضخم الباب واتكأ عليه ناظرًا تجاهي بعينيه الماكرتين مُتلاعبًا بالسكين.

قال ألف:

- مُد يديك للأمام.

فعلت ذلك، تحسس الأسلاك المُحيطة بمعصمي وقصها بقاطع الصُلب، ثم قال وهو يتراجع:

- والآن ارتدي ملابسك فحسب يا صديقي.

فعلت بينما أتابع صاحب السكين وهو بدوره يتابع كل حركة أقوم بها كصقرٍ حارس، وعندما انتهيت أخرج زوجًا من الأصفاد وقال:

- كبل نفسك.

ترددت فتوقف الرجل عند الباب عن الاتكاء عليه ورفع سكينه في وجهي، وابتسم في شراسة توضح أنها لحظات ثثير اهتمامه، بعد تفكيرٍ قصير قررت أنه ليس الوقت المناسبٌ لتجربة أي حماقة، فأخذت القيود وكبلت معصميّ، تحسس ألف ما فعلته ونقر على الأصفاد، وذهب بعدها ليُحضر وجبة الإفطار.

بعد ساعتين تقريبًا ظهر الرجل الآخر مرة أخرى، يدعوني للخروج بتلويح سكينه،

شعرت بالنصل يُحدِث إحساسًا غير مريحٍ في ظهري، نزلنا عددًا من درجات السلالم ثم عبر الصالة، وفي الشارع رأيت شاحنتين مُحملتين بالناس تنتظران، وقف كوكر برفقة اثنين من رجاله ثم أشار إليّ دون أن ينبس ببنت شفة، مرر سلسلة بين ذراعيّ وفي كل طرف منها هناك ربطة، تلتف حول معصميّ رجلين كفيفين شديديّ البنية، بحيث أبقى بينهما ولا يخاطروا بأي فرصة يُمكن استغلالها.

نصحني كوكر بقوله:

- لن أجرب أي محاولة مضحكة لو كنت مكانك، أفعل لهم الصواب وسيفعلون لك نفس الشيء.

صعدنا نحن الثلاثة واحدٌ تلو الأخر بطريقة مُحرجة من باب الشاحنة الخلفي، ثم انطلقت الشاحنتان.

توقفنا في مكانٍ ما بالقرب من سويس كاتدج، تجول هناك حوالي عشرون شخصًا بلا هدف واضح، عند سماع صوت المحركات استدار كل واحد منهم نحونا بتعبيراتٍ ذهولٍ ترتسم على وجوههم، وبدأوا يقتربون منا وكأنهم أجزاء من آلية موحدة على أمل الاقتراب منا، وأخذوا ينادوننا، صاح السائقون يأمروننا أن نتراجع، واستداروا وابتعدوا عن الطريق، توقف الناس وصاح واحد منهم أو اثنان يحثوننا على العودة، عاد معظمهم بلا أمل وبصمت إلى تجولهم، هُناك امرأة على بُعد حوالي خمسين ياردة انخرطت في حالة هستيرية وبدأت تضرب رأسها بالحائط، مما أصابني بالاشمئزاز والحزن.

التفتُ نحو المتواجدين وسألتهم:

- حسنًا، ماذا تريدون أولًا؟

قال أحدُهم:

- نُريد بيتًا؛ مكان نقضي الليل فيه.

حسنًا، يجب أن نعثر على ذلك لهم على الأقل، لن أُحاول الهرب وأتركهم عالقين

هكذا في هذه البقعة، سأعثر لهم على مقرٍ رئيسي يُمكن التخزين والأكل والبيات فيه ويتمكنون به من الوقوف على أقدامهم، أحصيتهم فكانوا ما يقرب من خمسين شخصًا، أربعة عشر منهم من النساء، يبدو أن أفضل حلٍ هو العثور على فندق يوفر عناء تجهيز الأسرّة.

عثرت على مبنى مكون من أربعة طوابق سكنية، مبني على الطراز الفيكتوري، وجدنا بالفعل ستة أشخاص في المكان عندما وصلنا إلى هناك، مُجتمعين في إحدى الصالات معًا وخائفين، رجلٌ مُسن وامرأة عجوز- تبين أنها كانت مُديرة المكان- ورجل في منتصف العمر وثلاث فتيات، والسماء أعلم بما حدث للباقين، تمتعت المديرة بالروح الشجاعة وجمع شتات نفسها وأخذت توزع بعض التهديدات بعلو صوتها: أنا مُديرة المكان. لكنها كانت رقيقة رغمًا عنها، حاول المُسِن مُساندتها بالتهييج قليلًا، لكن البقية لم يفعلوا شيئًا سوى التوتر والنظر نحونا.

شرحت لهم أننا سنسكُن المكان، وعددنا كبير، إذا لم يعجبهم ذلك فيُمكنهم الرحيل، وإذا فضلوا البقاء ومُشاركة ما هو موجودٌ عندهم وما سنأتي به بعد ذلك بالعدل والمساواة، فهم أحرار بالطبع، لم يبدُ عليهم السرور، طريقتهم وردود أفعالهم تُشير إلى وجود مخازن مُخبأة ليسوا مُتحمسين لمشاركتها، لكن عندما أدركوا أن نيتنا هي تكوين مخازن أكبر غيروا موقفهم بشكل ملحوظ واستعدوا لتحقيق أقصى استفادة منه.

قررت أن أبقى يومًا أو يومين فقط لتجهيز المجموعة ومُساعدتهم، وخمنت أن جوسيلا ستفعل نفس الشيء، كوكر هذا ذكي، حيلته الثانية تُسمى حمل الطفل، لن يُطاوعك قلبك على ترك طفل في الشارع دون أن تمنحه حماية كاملة، وهؤلاء العُمي مجموعة من الأطفال، لكن بعدما أطمئن عليهم سأراوغهم وأفر، وانضم إلى جوسيلا.

عملنا خلال اليومين التاليين بشكلٍ منهجي، بحثنا عن المتاجر الكبيرة القريبة، ومعظمها سلاسل متاجر وبالتالي ليست كبيرة جدًا، في كل مكان نذهب إليه نجد آخرين قبلنا، واجهات المحال مُحطمة وتتناثر على الأرضيات علب نصف مفتوحة ومُنتجات خيبت آمال مُكتشفيها فأصبحت كُتل من مواد لزجة نتنة مُلتصقة بشظايا

زجاج النوافذ، لكن كقاعدة عامة كانت الخسارة صغيرة والضرر سطحي، وكُنا نجد معظم ما داخل المتجر سليمًا لم يُمس.

لم يسهُل على المكفوفين حمل الحقائب الثقيلة والتحرك بها خارج المكان ثم تحميلها على العربات اليدوية، ثم هُناك مهمة إعادتهم إلى البيت وتخزينهم هُناك، لكن المُمارسة المُستمرة منحتهم موهبة هذا الجانب من الأعمال، أكثرُ ما أعاق مجهوداتنا هو ضرورة وجودي لأستمر في توجيههم، لذا يستحيل استخدام أكثر من فريق عمل واحد رغم قدرتنا على تكوين عدة فرق، ولا أستطيع العودة إلى الفندق أثناء خروجي مع فريق البحث عن الطعام، كما إن الوقت الذي قضيته في فحص المنطقة ضائع إلى حدٍ كبير، سيُحقق رُجلان مُبصران معًا أكثر من ضعف الإنتاج.

لم أستطع التفكير كثيرًا فيما هو أبعد من العمل الحالي لأنه يُبقيني مشغولًا جدًا خلال النهار ومُرهقًا جدًا في الليل، فأنام في نفس لحظة استلقائي على الفراش، أقول لنفسي بين الحين والآخر: ستأتي ليلة الغد، وأتأكد أن ما خزنوه يكفيهم ليبقوا مُستمرين، ثم سأخرج من هذا وأذهب للعثور على جوسيلا.

لكن كل يوم يُصبح الأمر أكثر صعوبة، بدأ بعضهم يتعلم ببطء لكن لا خبرة عملية فعلية؛ يبحثون عن الطعام ويفتحون العلب ويُمكنهم أن يستمروا دون أن أكون بجوارهم، وبالطريقة التي تسير بها الأمور يبدو فراري صعبًا لكن أعتقد أن الاستغناء عني مُمكن، ما يجعل الأمر صعبًا هو أن ما حدث لي من اختطاف ليس خطأهم، بعضهم يُحاول النجاة بكل ما أوتي من قوة، ألعن كوكر عشرات المرات في اليوم لأنه أرغمني على هذا الموقف، وتركني أتساءل كيف يُمكن أن ينتهي، تهيأت لي فكرة أولية رغم أنني نادرًا ما أدركت وجودها، في صباح اليوم الرابع- أو ربما كان الخامس- وإذ نستعد للانطلاق نادت امرأة منهم وهي واقفة على السلم أن هُناك مريضين في الطابق الأعلى، وتظن أن حالتهما سيئة للغاية.

لم يُعجب الاثنان اللذان يُراقبان وجودي بالكلام، فقُلت للجميع:

- اسمعوا، سئمت عمل العصابات هذا، سنفعل ما هو أفضل بكثير بدون مُراقبتكم لي.

فقال أحد المتواجدين:

- هل تُريد العودة لعصابتك القديمة؟

- لا تخدع نفسك، بإمكاني ضرب زوج الغوريلات الهواة هاذين في أي ساعة من نهارٍ أو ليلٍ، لم أفعل ذلك لأنه ليس في نفسي شيء ضدهم سوى كونهم زوجًا من المُضايقات الحمقاء.

زمجر أحد المُراقبين وكاد يدخل معي في جدل، فسبقته بقولي:

- لكن إذا لم يسمحوا لي برؤية ما الخطأ الذي أصاب المريضين فيُمكنهم توقع تعرضهم للضغوط مني في أي دقيقة منذ الآن.

رأى الاثنان منطقية ما أقول، عندما وصلنا إلى الغرفة وقفا بعيدًا بقدر ما تسمح به السلسلة، وتبين أن الضحيتين ذكران؛ أحدهما شاب والآخر رجل في مُنتصف العمر، كلاهما يُعاني من ارتفاع في درجة الحرارة وآلام مؤلمة في الأمعاء، لا أعرف الكثير عن هذه الأمور في ذلك الوقت، لكنني لست بحاجة إلى معرفة الكثير كي أشعُر بالقلق، لم أُفكر سوى في التوجيه بوجوب نقلهم إلى منزل فارغ بالقرب منا لعزلهم عن الأصحاء، والقول لإحدى النسوة أن تعتني بهما قدر استطاعتها، تلك بداية يوم الانتكاسات، ففي الظهيرة قُمنا بمسح معظم متاجر المواد الغذائية القريبة منا، وقررت توسيع نطاقنا قليلًا، فمن خلال ذكرياتي عن الحي اعتقدت بوجوب إيجاد شارع آخر للتسوق على بعد نصف ميل إلى الشمال، فقُدت فريقي إلى هُناك، وقد وجدنا المتاجر هناك بالفعل بالإضافة إلى أمرٍ آخر، رأيتهم بمُجرد عبورنا الزاوية فتوقفت على الفور؛ مجموعة من الرجال يجرون صناديق ويحملونها إلى شاحنة أمام متجر بقالة، أوقفت مجموعتي المُكونة من عشرين شخصًا وأخذت أُفكر في السبيل الذي يجب اتخاذه، ملت إلى الانسحاب وتجنب المشاكل المُحتملة بالعثور على منطقة تجارية أخرى إذ لا معنى من الدخول في صراع لن ينتهي إلا بالشر، القرار بالطبع يقع على عاتقي لكن بقيتُ مُترددًا للحظات انتهت عندما خرج شابٌ أحمر الشعر بثقة من باب المتجر، وقد رآنا دون شك ولم يُشاركني التردد، مد يده

بسرعة إلى جيبه وفي اللحظة التالية أصابت رصاصة الجدار إلى جواري.

وكانت لوحة توجز حال العالم.

وجه رجاله ورجالي أعينهم العمياء تجاه بعضهم البعض، يُحاولون فهم ما يجري، أطلق النار مرة أخرى فتيقنت أنه يُريد قتلي، لكن الرصاصة وجدت مُستقرها في الرجل إلى يساري، سمعته ينخر وهو يتفاجئ بموته ثم تنهد تنهيدة أخيرة، هربت إلى ما خلف الزاوية، وجررت معي المُراقب المُتبقي وقُلت له:

- أسرع، أعطني مُفتاح هذه الأصفاد، لا يُمكنني فعل شيء هكذا.

ابتسم ابتسامة عريضة وقال:

- ها، لن تخدعني.

- بحق الله، أيها المُهرج اللعين.

هذا الأبله لا يضع في عقله سوى فكرة واحدة، ولا يستطيع التأقلم مع المُتغيرات، هُناك ما يكفي من ترهُلٍ في طولِ السلسلة الآن يسمح لي برفع ذراعيّ، فعلت ذلك وطرقت كلتا قبضتيّ على رأسه حتى اصطدم بالحائط خلفه فتصدعا معًا، ووجدت المفتاح في جيبه، ثم قُلت للبقية:

- اسمعوا، استديروا على أعقابكم جميعًا واستمروا في المُضي قدمًا، لا تنفصلوا عن بعضكم وإلا فهي النهاية، تحركوا الآن.

حررتُ نفسي من القيد وقفزت فوق الحائط إلى حديقة أحدهم، ثم انتقلت لأختلس النظر بحذر إلى الزاوية البعيدة، لم يندفع الشاب الذي يحمل المسدس وراءنا كما توقعت وبقى مع فريقه ليُعطيهم التعليمات، ولماذا يُسرع؟ نحن لم نزد عليه وبذلك يعرف أننا غير مُسلحين ولن نتمكن من الهروب سريعًا، عندما أنهى توجيهاته سار بثقة إلى النقطة التي رأى فيها فريقي وهم ينسحبون، توقف عند الزاوية لينظُر إلى المُراقبين الضخمين، فأوحت له القيود بأن أحدهما كان عينيّ الفريق، إذ أعاد المُسدس إلى جيبه وبدأ يُتابع أمره، لم يكن هذا ما توقعته، استغرق

الأمر مني دقيقة لأفهم مُخططه، ثم اتضح لي أن أكثر خُطة يربح بها هي بمُتابعة الفريق إلى مقرنا الرئيسي ثم يرى ما يُمكنه أخذه من هُناك، وعليّ أن أعترف أنه أسرع مني بكثير مني في اكتشاف الفرص، لكني أعتقد أن فريقي لن يتمكن من العثور على طريق العودة إلى مقرنا، وبالتالي لن يقودوه إليه، وطالما بقوا معًا سأتمكن من جمعهم لاحقًا دون صعوبة كبيرة، أما ما يجب اتخاذ إجراء فوري بشأنه فهو حيال رجل مُبصر يحمل مسدسًا ولا يُمانع في استخدامه.

في بعض أنحاء العالم سيذهب المرء إلى أول منزل يلوح في الأفق ويلتقط منه سلاحًا ناريًا مناسبًا دون الكثير من البحث، لكن هامستيد ضاحية مُحترمة للغاية، للأسف، وسيكون البحث عن سلاحٍ صعبًا لكن غير مُستحيل، ما فكرت فيه هو إبقائه في مرمى بصري وآملُ أن تتوفر فرصة تسمح لي بالتعامل معه، كسرت غصن شجرة، واندفعت إلى الحائط لأدق عليه وأتخذه طريقًا، تمنيت ألا يُمكن تمييزي عن مئات الرجال المكفوفين الذين يتجولون في الشوارع بنفس الطريقة، كان الطريق مُستقيما لبعض المسافة، أظن أن الشاب أحمر الشعر يقف أمامي بعد خمسين ياردة، وفريقي أمامه بعد خمسين ياردة أخرى، واصلنا السير لما يزيد عن نصف ميل، ومما يبعث على الارتياح أن أفراد الفريق لم يميلوا للانعطاف نحو الطريق المؤدي إلى القاعدة، تساءلت كم سيستغرقون من الوقت قبل أن يقرروا أنهم مشوا بعيدًا بما فيه الكفاية، ثم حدث تحول غير مُتوقع، توقف رجل كان مُتخلفًا عن البقية، وألقى عصاه وضغط بيديه على بطنه، ثم انكمش وسقط على الأرض يتدحرج من الألم، لم يتوقف الآخرون ولا يبدو أنهم سمعوا أنينه، ربما لم يعرفوا أنه واحدٌ منهم، نظر الشاب ذو الشعر الأحمر إليه بعناية، ثم ببطء وتعمُد، أخرج مسدسه من جيبه وأطلق النار على رأسه.

توقف الفريق بالأمام عند سماع صوت الطلقة وكذلك فعلت أنا، لم يحاول الشاب اللحاق بهم، بل بدا فجآة أنه فقد الاهتمام بهم، استدار وعاد مشيًا فتذكرت أن ألعب دوري بإتقان أكثر، لم يُعيرني اهتمامًا أثناء مروره بي لكنني تمكنت من رؤية وجهه وكان قلقًا بالتأكيد والقتامة ظاهرة على فكه، واصلت السير حتى أصبح على مسافة مُناسبة منه ثم أسرعت إلى الفريق فوجدتهم يُفيقون من صدمة صوت

الطلقة ويتجادلون حول ما إذا كانوا سيسيرون لمسافةٍ أبعد أم لا، فأوقفتهم عن ذلك وقلت لهم أني لم أعد مُثقلًا بفردي المُراقبة ومعدلات ذكاءهم السلبية، وسنُنفذ أمورنا بشكلٍ مُختلف، سأُحضر شاحنة وأعود بعد عشر دقائق أو نحو ذلك لأُعيدهم إلى المقر، وهو ما فعلته، بعد عودتنا عرفت أن رجلين آخرين وامرأة أُصيبوا بنفس أعراض آلام البطن والحرارة ونُقلوا إلى المنزل الآخر، جهزنا استعدادات تُمكننا من دفع أي لصوص قد يصلون أثناء غيابي بعيدًا، ثم اخترت فرقة جديدة وانطلقنا في الشاحنة هذه المرة في اتجاه مختلف.

تذكرت أنه أثناء زيارتي لهامستيد هيث في الأيام الخالية كُنت أمر عبر محطة حافلات بها مجموعة من المتاجر الصغيرة، وبمساعدة مُخطط الشارع في المحطات وجدت المكان بسهولة، بل ووجدته سليمًا باستثناء ثلاث أو أربع نوافذ مكسورة، بدت المنطقة وكأنها مُغلقة لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، لكن هُناك بعض الاختلافات، فاليوم ليس السبت أو الأحد، وهُناك جُثث مُرتمية في الشارع، اعتدت رؤية ذلك وبدأت أُعيره القليل من الاهتمام، وتساءلت هل هُناك المزيد من الأشياء التي يُمكن رؤيتها، ثم استنتجت أن معظم الناس يبحثون عن مأوى إما بسبب الخوف أو الضعف، وهذا أحد أسباب عدم رغبتي في دخول أي مسكن.

أوقفت الشاحنة أمام متجر لتقديم السلع التموينية، وأخذت استمع لبضع ثوانٍ، حل الصمت علينا ليُغطي كل شيء، ليس هُناك نقرٌ بالعصي ولم أرَ تائهًا في الأفق، لا شيء يتحرك، فقلت لهم:

- حسنًا، هيا يا رجال.

فتحت باب المتجر وفي الداخل وجدت مجموعة نظيفة وغير ملوثة من قوالب الزبد والجبن وشرائح لحم الخنزير المُقدد وعُلب السكر، انشغل الفريق بجمعهم وقد طوروا حيلًا للعمل بكفاءة أكبر وثقة أكبر في طُرق تعاملهم، تمكنت من تركهم يتعاملون معًا لبعض الوقت بينما ذهبت لفحص غرفة التخزين الخلفية والقبو، فتحت باب القبو السحري وبمجرد نزولي سمعت صوت صراخ بالخارج، ثم وكأن صوت رعد تصدُر من أحذية تدوس على الأرض من فوقنا، سقط رجل من الباب

السحري فجأة على رأسه، لم يتحرك ولم يصدر أي صوت آخر، يبدو أن معركة تجري مع عصابة مُنافسة، تجاوزت الرجل وصعدت السلم بحذر، رافعًا إحدى ذراعيّ لحماية رأسي، أول ما رأيت كان أحذية كثيرة تتشابك وقريبة بشكلٍ مُزعج من وجهي، صعدت بسرعة قبل أن يدوسوا عليّ، وتنبهت فجأة لأرى النافذة الزجاجية في المقدمة يضغط عليها ثلاثة رجال من الخارج قبل أن يكسروها ويسقطوا بالداخل، رأيت سوطًا أخضر يهوي من خلفهم فضرب أحدهم وهو راقدٌ على الأرض، زحف الاثنان الآخران بين الحُطام ليتعمقا في المتجر، بينما سقط رجلٌ أخر إلى القبو من الباب السحري، لم أكن بحاجة إلى أكثر من لمحة لأعرف حقيقة السوط، لقد أنساني العمل في الأيام الماضية وجود التريفيدات.

وقفت فوق صندوق لأستطيع الرؤية فوق رؤوس الرجال فأمكنني رؤية ثلاث تريفيدات؛ واحدٌ في الطريق، واثنان على الرصيف، استلقى أربعة رجال على الأرض دون حراك، ففهمت سبب عدم تعرض المتاجر للنهب ووجود جثث في الشارع، ولماذا لا يوجد أحد في الحي، وسببت نفسي لأني لم أفحص الجُثث عن كثب، لو رأيت أثر اللسعة لكان تحذيرًا كافيًا، صرخت في الرفاق:

- توقفوا حيث أنتم.

وقفزت من فوق الصندوق لأدفعهم برفق نحو الغرفة الخلفية، حذرتهم من باب القبو السحري في نهاية الغرفة، ساروا ببطء في البداية، ثم أرسل تريفيد صفير لاسعته إلى الغرفة عبر النافذة المكسورة، فصرخ رجل وهو يسقط، وأُصيب الباقون بحالة من الذعر، فازدحموا عند مدخل الغرفة وتأرجحت اللسعات خلفهم مرتين بعدها، دخلت الغرفة الخلفية لاهثًا ونظرت حولي، كُنا سبعة فحسب.

- اهدأوا، نحن بأمان هنا.

الجزء الخلفي من المحل خارج نطاق التريفيدات طالما بقوا في الخارج، رفعت باب القبو السحري لأجد الرجلين اللذان سقطا هناك وقد كُسر ذراع أحدهم في حين أُصيب الأخر- الذي ظننته مات من فوره- بكدمات وشتائم على لسانه، هُناك ممر صغير بعد الغرفة الخلفية، ثم جداران من الطوب يبلغ ارتفاعهما ثمانية أقدام تقريبًا

وفي النهاية باب للخروج، بدلًا من الذهاب مُباشرة إلى الباب وعلى سبيل الحيطة صعدت باستخدام الطوب إلى سطح المبنى المجاور، الباب يُفضي إلى زقاق ضيق يمتد بطول المبنى كله، وكان خاليًا من الأحياء، لكن ما وراء الجدار وفي الجانب الآخر منه رأيت قمم اثنين من التريفيدات يقفان بلا حراك بين الشجيرات، وربما يكون هُناك المزيد، كان الجدار مُنخفضًا وبالتالي سيتمكن التريفيدات من لسع من يمرون إلى جوارهم، شرحت هذا للرفاق فقال أحدهم:

- المتوحشون الدمويون غير الطبيعيين، لطالما كرهت هؤلاء اللقطاء.

تحققت أكثر فتبين أن المبنى المجاور للجانب الشمالي عبارة عن مكتب خدمة تأجير سيارات، وهُناك ثلاث سيارات في المبنى، كانت مهمة صعبة؛ أن أجعل الجميع يتخطون الزقاق مُنخفض الجدارين خاصة الرجل ذو الذراع المكسورة، لكننا تمكنا من ذلك بطريقة ما، جمعتهم في شاحنة دايملر كبيرة، وعندما أصبحنا مُستعدين فتحت الأبواب الخارجية للمكان وركضت عائدًا إلى السيارة.

لم تكن التريفيدات بطيئة، لديهم تلك الحساسية الغريبة للأصوات، وأثناء خروجنا بالسيارة وجدت اثنان منهم يتمايلان بالفعل نحو المدخل، لسعاتهم تضرب النوافذ المُغلقة بالسياط اللاسعات دون أذى يُذكر، تأرجحت بالشاحنة واصطدمت بواحدٍ منهم وأسقطته، ثم ابتعدنا إلى حيٍ أكثر حياة.

الأمسية التي تلت ذلك كانت أسوأ ليلة قضيتها منذ وقوع الكارثة، استوليت على غرفة صغيرة أبقى فيها وحدي، ووضعت ستة شموع مُضاءة على التوالي على الرف وجلست لفترة طويلة على كُرسي ذي ذراعين، مُحاولًا التفكير، عُدنا لنجد أن أحد الرجال المُصابين بالمرض قد مات والآخر يحتضر بوضوح، وهناك أربع حالات جديدة، وبانتهاء وجبتنا المسائية أُصيب اثنان آخران، ربما يكون التيفويد، لا أعرف فترة الحضانة بالضبط، ولا أظن هذا سيُشكل فارقًا كبيرًا، ما أعرفه هو أنه شيءٌ سيئ بما يكفي لجعل ذلك الشاب ذو الشعر الأحمر يستخدم مسدسه، ويُغير رأيه بشأن متابعة فريقي.

وكأني أُقدم لهم خدمة مشكوك فيها منذ البداية، نجحت في إبقائهم على قيد

الحياة، تنافسنا مع عصابة من جانب وتريفيدات من جانب أخر، ثم هُناك هذا المرض، كل ما فعلته هو تأجيل المجاعة والموت المُحقق لفترة قصيرة.

الأمور تسري، وأنا لا أرى طريقي.

ثم هُناك جوسيلا، لم تُفارق ذهني، ولا بد أنها تواجه نفس الصعاب وربما أسوأ في منطقتها..

فكرت في مايكل بيدلي ومجموعته، عرفت حينها أنهم يفكرون بمنطقية، الآن أظن أنهم كانوا أكثر إنسانية وصدقًا أيضًا، لقد رأوا أن إنقاذ أي منهم باستثناء القلائل أمر ميؤوس منه.

قررت أن أذهب غدًا للبحث عن جوسيلا، وسنقوم بتسوية الأمر معًا.

تحرك مزلاج الباب بنقرة واحدة، فُتح الباب ببطء.

- من هناك؟

فسمعت فتاة تقول:

- أوه، هذا أنت.

فدخلت وأغلقت الباب خلفها.

- ماذا تُريدين؟

كانت طويلة ونحيفة، تحت سن العشرين حسب تخميني، موجت شعرها فلاحظت لونه الكستنائي، سارت نحوي بهدوءٍ مُلاحظ، عيناها بُنيتان ذات تألقٍ ذهبي، تنظران إلى ما فوق كتفي الأيسر، وإلا فهي تدرسني لو كانت ترى، لم تُجبني على الفور فانتظرت أن تتكلم، شعرت بكتلة ما في حلقي فحاولت ازدرادها، كانت صغيرة ولطيفة، وينبغي أن تملك كل الحياة بما فيها من روعة، ألا يوجد شيء محزن بصورة ما في الشباب والجمال؟ قالت لي:

- هل ستتركنا وترحل؟

- لم أقل ذلك قط.

- كلا، لكن هذا ما يقوله الآخرون، وهم على حق، أليس كذلك؟

لم أرد على ما قالت، فأردفت:

- لا يُمكنك تركهم هكذا، إنهم بحاجة إليك.

- لا أفعل خيرًا هنا، كل الآمال كاذبة.

- افترض أن الآمال ليست كاذبة..

- لعرفنا هذا بمرور الوقت.

- وماذا لو ظهر الأمل بعد كل شيء، لكن بعد انسحابك بكل بساطة؟

- أتظنين أنني لم أفكر في ذلك؟ أنا مثل الأدوية التي يحقنون بها المرضى ليبقونهم أحياء لأطول فترة أطول ممكنة، لكن بلا قيمة علاجية.

- الحياة ثمينة للغاية، حتى من المنظور الذي تتحدث عنه، يُمكنك أن تجعلنا نستمر، الأمر صعب للغاية، آه لو كان بإمكاني رؤيتك، وبعد ذلك.. بالطبع.. إذا كان بإمكاني.. هل أنت شاب؟ يبدو أنك شاب.

- أنا تحت الثلاثين.

- عمري ثمانية عشر عامًا، كان عيد ميلادي في اليوم الذي جاء فيه المذنب.

لم أستطع التفكير في أي شيء أقوله ولا يبدو قاسيًا، رأيت أنها تُمسك يديها معًا، ثم أسقطتهما على جانبيها، تُحرك شفتيها وكأنها تتكلم، لكنها لم تفعل، سألتها:

- ماذا يُمكنني أن أفعل؟

عضت شفتيها ثم قالت:

- قالوا.. قالوا أنه ربما لأنك وحيد.. ففكرت ربما إذا.. ربما لو كان لديك شخص ما.. أعني.. شخص ما هنا.. أتفهمني؟ ربما لا ترغب في تركنا وقتها، ربما ستبقى معنا؟

- يا إلهي..

نظرت إليها بتمعُن، تقف باستقامة، ترتعش شفتاها قليلًا، أظن أن كثيرين طالبوا بأن يروا أخف ابتسامة منها، كان ينبغي أن تكون سعيدة وغير مُهتمة بأي شيء، الحياة بالنسبة لها سحر، والحب حلو..

- ستكون طيبًا معي، أليس كذلك؟ انظر، أنا لم أفعل ذلك من قبل..

- توقفي! توقفي أرجوكِ! لا يجب أن تقول لي مثل هذا، من فضلك اذهبي بعيدًا الآن.

لكنها لم تذهب، وقفت تحدق بعينين لا تستطيع رؤيتي.

- ابتعدي.

لكنها اقتربت أكثر، لم تكن هي نفسها فحسب- بل حياة الآلاف والآلاف من الشباب..

اقتربت وقالت:

- لماذا تُبعدني؟ أظن أنك تبكي.

- ابتعدي، بحق الله ابتعدي.

ترددت قليلًا، ثم استدارت وتحركت نحو الباب، فقلت لها وهي تهم بالخروج:

- يُمكنكِ أن تقولي لهم أني سأبقى.

***

أول ما عرفته صباح اليوم التالي كان الرائحة، لن أخوض في تفاصيلها؛ أولئك الذين عرفوها لن ينسوها أبدًا، لقد اجتاحت كل مدينة وبلدة لأسابيع، وسافرت مع كل ريح تهب، عندما استيقظت على انتشارها ذلك الصباح أقتنعت بما لا يدع مجالًا للشك أن النهاية قد حانت، الموت مُجرد نهاية صادمة؛ الحل النهائي.

كان المكان هادئًا بغرابة، سمعت صوتًا يئن في غرفة أخرى، ثم لا شيء، نهضت مُسرعًا وذُعرٌ شديد ينتابني، لا أصوات أقدام ولا حتى همسات، وكأن التاريخ يُعيد نفسه، وكأني عُدت إلى المُستشفى مرة أخرى.

- هل من أحدٍ هُنا؟

أجابتني عدة أصوات خافتة، فتحت بابًا قريبًا لأرى رجلًا في حالة سيئة للغاية ويُعاني من الهذيان، فأغلقت الباب مرة أخرى، في الطابق التالي سمعت صوت امرأة تُناديني:

- بيل، بيل!

كانت راقدة على سرير في غرفة صغيرة، الفتاة التي جاءت لرؤيتي في الليلة السابقة.

- لا تقترب، هل هذا أنت يا بيل؟ أظن أن هذا أنت، لا يزال بإمكانك المشي، أما هم فيزحفون فحسب، أنا سعيدة يا بيل، قلت لهم إنك لن ترحل، والآن هم من رحلوا.

- كُنتُ نائمًا، ماذا حدث بالضبط؟

- كانوا خائفين، كُلنا أُصبنا بنفس المرض.

- ماذا يُمكنني أن أفعل لك؟

رأيت وجهها يتشنج وذراعيها تتلوى، ثم انتهى التشنج فتصبب العرق من جبهتها.

- من فضلك يا بيل، أنا لست شجاعة، هل يُمكنك أن تُحضر شيئًا يُنهي الأمر؟

- نعم، نعم..

ذهبت إلى الصيدلية وعُدت خلال عشر دقائق، أعطيتها كوبًا من الماء ووضعت الأشياء في يدها الأخرى، فأمسكت بها قليلًا دون أن تتحدث ثم قالت:

- من العبث العيش هكذا، ولربما كان الأمر مُختلفًا، وداعًا يا بيل، وشكرًا لك على مساعدتنا.

ولم أعرف حتى اسمها.

الإخلاء

ما فعله الشاب أحمر الشعر بإطلاقه النار علينا هو ما حفزني للذهاب إلى وستمنستر.

منذ السادسة عشرة من عمري وأنا لا أهتم بالأسلحة؛ لكن في بيئة عادت إلى الوحشية يجب على المرء أن يستعد للتصرف بوحشية بشكلٍ أو بآخر، وإلا سيتوقف عن التصرف على الإطلاق، هناك العديد من المتاجر في شارع سانت جيمس تبيع لك أنواع القتل، من بندقية قنص الغربان إلى بندقية قتل الفيل، مع أكبر قدر من التحضر.

هناك شعرت بخليط من المشاعر، أأنا أدعم نفسي أم أدعم اللصوصية؟ لدي سكين صيد ومسدس دقيق التصويب، وعلى المقعد بجانبي بندقية صيد عيار 12 مُلقمة وصناديق من الخراطيش، اخترت البُندقية بدلًا من الرشاش لأن انفجار طلقة الخرطوش ليس أقل إقناعًا كما أنه يقتل التريفيد بفعالية لا تحققها الرصاصة، أصبحت أرى التريفيدات في لندن الآن، لا زالوا يتجنبون الشوارع لكنني لاحظت تجمعاتهم في هايد بارك وجرين بارك، يُحتمل أنها عينات آمنة مُخصصة للحدائق والزينة، وربما ليست كذلك.

وهكذا أتيت إلى وستمنستر.

الموت نهاية كل شيء، وها هو ماثلٌ هناك، وسط التناثر المُعتاد للسيارات المهجورة في الشوارع، ورأيت قلة من الناس، ثلاثة منهم فقط يتحركون؛ اثنان منهم يشقان طريقهما بالطرق على الجدران وتحت مزاريب مباني وايتهول، والثالث كان في ساحة البرلمان، يجلس بالقرب من تمثال لنكولن ويمسك بأغلى ما يملك؛ شريحة لحم خنزير مُقدد يقتطع منها بسكينٍ ثَلِم.

عقارب ساعة مبنى البرلمان متوقفة عند ثلاث دقائق بعد الساعة السادسة، يصعُب تصديق أن الوقت لا يكاد يعني شيئًا الآن، الزمن ينهار بذرواته المُنهمرة على المَطَلات غير المسقوفة(27)، فتكسح أمامها الساخطين على الأخطار التي

تواجه حياتهم القيمة، في أيام مجد قاعات وستمنستر ترددت أصداء النوايا الحسنة والمنافع المُتبادلة المُحزنة، فانهارت الأسطح اليوم ولا يوجد ما يمنع هذا ولا من يهتم، ويتدفق بجوارهم نهر التيمز بلا انقطاع إلى اليوم الذي تنهار فيه السدود ويطغى الماء وتعود وستمنستر مرة أخرى كجزيرة وسط مستنقع.

أمضيت قرابة ثمان ساعات في تمشيط المنطقة، تركني هذا يائسًا جاف الأفكار، ربما لو عُدتُ إلى الجامعة سأفكر بطريقة أفضل، ربما تفكر جوسيلا بنفس الطريقة، ولهذا هجرت وستمنستر، ربما عاد المُشتتون من حزبنا إلى هناك في مُحاولة للم شملهم.

لا يزال العلمان يُرفرفان فوق البرج، ومن بين عشرين شاحنة أو نحو ذلك كانوا واقفين في الفناء الأمامي، تبقت أربعة فقط منهم، لم يمسهم أحد على ما يبدو، أوقفت السيارة بجانبهم ودخلت المبنى فتناثرت خطواتي في طرقاتٍ من الصمت.

- هل من أحدٍ هنا؟

تردد صدى صوتي بعيدًا في الممرات ليتضائل مع مرور الثواني إلى مُحاكاة ساخرة للنزول من الهمس إلى الصمت، ذهبت إلى أبواب جناحٍ آخر وناديت مرة أخرى، فتلاشت أصداء الصوت دون أن تنكسر ثم استقرت بهدوء مثل غبارٍ على الأرض، لكن عندما عُدت إلى الوراء، لاحظت نقشًا مكتوبًا بالطباشير على الحائط بجوار الباب وبأحرفٍ كبيرة توضح عنوان مكان:

عزبة تينشام،

تينشام.

بالقرب من ديفايزس،

ويلتس(28).

هذا شيء يستدعي التفكير، بعد ساعة أخرى أو أقل سيحل الغسق، أظن أن ديفايزس على قرابة مائة ميل أو ربما أكثر، خرجت مرة أخرى وفحصت الشاحنات،

واحدة منهم هي التي قُدتها أخر مرة وخبأت فيها مُعداتي المكروهة المُضادة للتريفيدات، وتذكرت أن باقي حمولتها هو تشكيلة مُفيدة من المواد الغذائية والأدوات، يُفضل أن أصل بها إلى هُناك بدلًا من وصولي خالي الوفاض، لكن لا داعي للعجلة، فلا أتخيل قيادة شاحنة كُبيرة مُحملة عن أخرها ليلًا دون التعرض لعددٍ من المخاطر، جاءت بدايات الصباح لتُقدم لي آفاقًا أفضل، فنقلت صناديق الخراطيش من السيارة إلى كابينة الشاحنة واحتفظت بالمسدس معي.

وجدت الغرفة التي خرجت منها لتلبية نداء إنذار الحريق الوهمي تمامًا كما تركتها؛ ملابسي على الكُرسي، وعلبة السجائر والولاعة حيث وضعتهما بجوار سريري المُرتَجل.

من السابق للأوان أن أُفكر في النوم، فأشعلت سيجارة ووضعت العلبة في جيبي، وقررت الخروج، وقبل أن أذهب إلى حديقة ميدان راسل سكوير فحصتها بعناية بصرية إذ بدأت أشك في المساحات المفتوحة، اكتشفت تريفيدًا واحدًا على الأقل في الزاوية الشمالية الغربية، يقف بثباتٍ، لكنه أطول بكثير من الشُجيرات التي تُحيط به، اقتربت منه وفجرت الجزء العلوي منه بطلقة واحدة، الضوضاء الحادثة في الساحة الصامتة كانت مُقلقة أكثر من ضربي لطلقة مدفع هاوتزر، تأكدت بعدها من عدم وجود آخرين كامنين لاستمرار الصمت والهدوء، فخرجت إلى الحديقة وجلست لأُسند ظهري على شجرة.

مكثت هناك ربما لعشرين دقيقة؛ الشمس مُنخفضة بينما يغرق نصف الميدان في الظل، ألقيت نظرة أخيرة وكأنها صفحة من التاريخ سأطويها بنفسي، وبينما أقف لأعود سمعت صوت خطوات أقدام على الطريق؛ هو صوتٌ ضعيف ولكن بسبب الصمت أصبح كأنه صادر من طاحونة، جهزت بندقيتي، لم يندهش كروزو عند رؤية أثر قدم أكثر مما أذهلني صوت أقدام رجل أعمى مُتردد، خرجت من الطريق ودخلت الحديقة فتأكدت أنه رجل، واضح أنه رآني قبل أن أسمعه لأنه كان يتجه نحوي مُباشرة، قال وهو يرفع يديه الفارغتين المُتباعدتين:

- لست بحاجة إلى إطلاق النار.

لم أعرفه حتى أقترب مني، وتعرف عليّ في نفس الوقت فقال:

- أوه، هذا أنت؟

أبقيت البُندقية مرفوعة قائلًا:

- كوكر، ماذا تريد؟ أن أذهب إلى حفلة أخرى من حفلاتك الصغيرة؟

- كلا، يُمكنك وضع البندقية جانبًا، تُصدر الكثير من الضوضاء، هكذا وجدتك، لقد اكتفيت وسأرحل من هنا.

- وأنا كذلك.

أنزلت البندقية فسألني:

- ماذا حدث لفريقك؟

أخبرته بما حدَث فأومأ برأسه وقال:

- نفس الشيء مع فريقي، ومع كل الباقين حسبما أظن، لقد حاولنا..

- في الاتجاه الخطأ.

- نعم، سأعترف بذلك، أعتقد أن مجموعتك كانت مُحقة في البداية، لكن هذا لم يبدو صحيحًا على الإطلاق منذ أسبوع.

- منذ ستة أيام.

- بل أسبوع.

- كلا، أنا مُتأكد، ماذا تُريد بحق الجحيم على أي حال؟

- في ظل المُستجدات، ماذا تقول عن إعلان العفو والبدء من جديد؟ لقد فهمت الأمر بشكل خاطئ، اعتقدت أنني الشخص الذي أخذ الأمر على محمل الجد، لكن ليس بما فيه الكفاية، لم أصدق أن الوضع سيستمر، أو أن المُساعدة لن تظهر، لكن انظر الآن، لا بد أن هذا يحدث في كُل مكان، فكر في أمريكا مُبتلية بهذا! لا بد أنهم

كذلك وإلا لكانوا هُنا ليُساعدوننا ويُعيدون البلد إلى الطريق الصحيح، نعم، أعتقد أن مجموعتك فهمت الأمر بشكل أفضل منذ البداية.

تأملته للحظات ثم سألته:

- هذا المرض، أو الطاعون، ما هو رأيك؟

- لا أعرف، اعتقدت أنه التيفويد، لكن أحدهم قال إنه يستغرق وقتًا أطول كي يتطور، لذلك لا أعرف ولا أعرف لماذا لم أُصَب به باستثناء أنني ابتعدت عمن أُصيبوا به، والتأكد من سلامة ما كُنت أكله، احتفظتُ بالعُلب وفتحتها بنفسي، وشربت زجاجة بيرة، أظن أننا محظوظان حتى الآن، لا أتخيل أن نتجول هنا لفترة أطول، إلى أين ستذهب؟

أخبرته بالعنوان المكتوب على الحائط داخل الجامعة، قال إنه لم يره إذ كان في طريقه إلى مبنى الجامعة عندما دفعه صوت رصاصتي إلى جولة استكشافية مع اتخاذ الحذر اللازم.

من أحد الشوارع الغربية جاء صوت سيارة تنطلق مُسرعة فجآة، خرجت منه ثم انطلقت بعيدًا وأخذت تتضاءل، قال كوكر:

- حسنًا، على الأقل عرفنا أن هُناك آخرون، ألا تعرف من كتب هذا العنوان؟

هززت كتفيّ نافيًا، افتراضي هو أنه عضو عائد من المجموعة التي داهمها كوكر، أو ربما شخص مُبصر فشل كوكر في القبض عليه.

- من الأفضل أن نكون اثنان معًا، سأُرافقك مُتطفلًا وأرى ماذا يحدث، ما رأيك؟

- حسنًا، سنرى بالغد.

***

كان لا يزال نائما عندما استيقظت، غيرت ملابسي ثم ذهبت لأُجهز طبقًا من الطعام المُعلب، وحالما عُدت وجدته يرتدي ملابسه، وخلال وجبة الإفطار قررنا تحسين فرصة الترحيب بنا في تينشام بأخذ شاحنتين مُحملتين بالبضائع بدلًا من

السفر معًا في شاحنة واحدة.

- تأكد أن نافذة الكابينة تُغلَق جيدًا، هُناك عدد كبير جدًا من التريفيدات في كل أنحاء لندن وخاصة في الغرب.

فقال باستخفاف:

- آها، لقد رأيت القليل من المُتوحشين القبيحين.

- لقد رأيتهم في كُلِ مكان، وبكل قوتهم.

انطلقنا غربًا إلى الشوارع الصامتة كقافلة من دبابتين؛ شاحنتي في المقدمة، وكان طريقًا مُرهقًا، فكل بضعة عشرات من الأمتار يتعين علينا الالتفاف حول مركبة مهجورة، وفي بعض الأحيان نجد مركبتين أو ثلاثة يغلقون الطريق تمامًا بحيث تُضطر إلى السير ببطء لإبعادهم عن الطريق، هُناك سيارات مُدمرة شكلٍ كامل واتخيل أن العمىَ أصاب السائقين أثناء قيادتهم وبسرعة لم ينجحوا بها في التوقف السليم، من حُسن حظنا أن الكارثة حدثت ليلًا وإلا لوجدنا الطرق الرئيسية مسدودة بالكامل، ولاستغرق إفساح طريقٍ لمرورنا بعيدًا عن المنتصف إلى الشوارع الجانبية أيامًا نقضيها غالبًا في الرجوع إلى الخلف أمام غابة من المركبات لا يُمكن اختراقها ومحاولة إيجاد طريق آخر.

حينما وصلنا إلى ضواحي ستينز بدأنا نشعر أن لندن خلفنا فعليًا، توقفنا فعاد الصمت يُغلف كل شيء، أدركت فجأة أنني لم أر مخلوقًا حيًا واحدًا سوى عدد قليل من العصافير، قفز كوكر من سيارته ووقف في منتصف الطريق.

- وتمتد أمام أعيننا صحاري الأبدية الشاسعة(29).

نظرت إليه وأنا أتصوره كشاعر، فجأة تحولت تعبيراته الجادة والخطيرة إلى ابتسامة.

- أم تفضل شيلي(30)؟

"اسمي أوزيمانداياس، ملك الملوك، انظروا إلى أعمالي أيها الأعزاء، ويأسي! تعالوا،

لنبحث عن بعض الطعام".

قلت له ونحن جالسين على منضدة متجر ونفرد مربى البرتقال على البسكويت:

- قد غلبتني، من أنت بالضبط؟ في أول مرة أراك فيها وجدتك صاخبًا- إذا كانت هي الكلمة المناسبة- وعصبيًا، والآن تقتبس من مارفل، هذا غير منطقي.

- لم يكن منطقيًا بالنسبة لي قط، يتعلق الأمر بكوني هجينًا، فأنت لا أعرف حقًا ما أنا عليه، ولم تعرف والدتي ما أنا عليه أيضًا- على الأقل لم تستطع إثبات ذلك، وحمل هذا في قلبها ضدي لأنها لم تستطع الحصول على إعانة بسببي، أصابني هذا بالحزن بشأن كل شيء في طفولتي، وعندما تركت المدرسة كنت أذهب إلى أي اجتماع يحتّجون فيه على أي موضوع، أدى ذلك إلى اختلاطي بالكثيرين من المُعترضين، أعتقد أنهم وجدوا فيّ نوعًا من التسلية، فعرفوني على أنواع الأحزاب السياسية وأخذوني إليهم، ثم سئمت تلك التسلية ورؤيتهم يضحكون عليّ بضحكات ذات وجهٍ مزدوج؛ نصفه معي والنصف الأخر ضدي، كلما تحدثت فيما أفكر فيه ضحكوا، فاعتقدت أنني بحاجة إلى بعض المعارف الأساسية التي يملكونها، وسأكون قادرًا وقتها على رد الضحك عليهم، ولذلك بدأت ألتحق بدروسٍ مسائية، وتدربت على التحدث بالطريقة التي يتحدثون بها لاستخدمها عند الضرورة، ويبدو أن هناك كثيرين لا يفهمون أنه يجب عليك التحدث إلى الرجل بلغة يفهمها قبل أن يأخذك على محمل الجد، فإذا تحدثت بصعوبة واقتبست من شيلي فسيعتقدون أنك لطيف بزيادة؛ كقردٍ مُمثل أو شيء من هذا القبيل، لكنهم لن يدفعوا أي شيء مُقابل ما تقوله، عليك أن تتحدث باللغة التي يأخذونها على محمل الجد، نصف المُثقفين السياسيين الذين يتحدثون إلى جمهور العُمال لا يستطيعون تمرير قيمة ما يتحدثون عنه، ليس لأنهم يضعون نفسهم فوق جمهورهم ولكن لأن نصف الجمهور يستمع إلى الصوت لا الكلمات، لذلك يتناسون كثيرًا مما يسمعونه لأنه خيالي بعض الشيء وليس مثل الكلام العادي، فاعتقدت أن ما يجب فعله هو أن أجعل نفسي ثنائي اللغة؛ فأستخدم اللغة المُناسبة في المكان والوقت المُناسب، وأحيانًا استخدم اللغة الخاطئة في المكان الخطأ بشكل غير متوقع، استغربت أن هذا هزهم، نظام الطبقات

الإنجليزي هذا رائع، ومنذ ذلك الحين حققت نجاحًا رائعًا في مجال الخطابة، لن أسميه وظيفة ثابتة ولكنها مليئة بالتنوع والمهتمين، وهكذا أصبحت ويلفريد كوكر، المُتحدث في الاجتماعات، الموضوع لا الكيان. هذا أنا.

- ماذا تقصد بالموضوع لا الكيان؟

- حسنًا، أنا أقدم نوعًا من الكلمات المنطوقة تمامًا مثلما تُقدم الطابعة الكلمات المطبوعة، لا يجب أن تُصدق كل ما تطبعه.

تجاهلت الموضوع وسألته:

- كيف لم يحدُث لك مثل الباقين؟ لم تكن في مستشفى، أليس كذلك؟

- أنا؟ هذا حدث فقط لأنني كنت أخطب في مجموعة تحتج على تحيزات الشرطة، كان إضرابًا بسيطًا، بدأ حوالي الساعة السادسة صباحًا وبعد نصف ساعة وصل رجال الشرطة لتفريق وفض الإضراب، فررت ووجدت بابًا سحريًا ينزل إلى قبو، ولقد تبعوني لإلقاء نظرة، لكنهم لم يجدوني إذ اختبأت وسط كومة من الأعمال الخشبية، استمروا بالأعلى قليلًا ثم ساد الهدوء، لكنني بقيت بالأسفل لئلا أدخُل في فخٍ صغير لطيف، وكان الجو لطيفًا للغاية فاستسلمت للنوم، وفي الصباح خرجت بحذر لأتشمم الوضع، فوجدت ما حدث قد حدث.

انتهينا من وجبتنا وقال:

- هيا، من الأفضل أن نتحرك، "غدًا إلى الحقول والمراعي الجديدة" إذا كنت مُهتمًا باقتباس(31) مُبتذلٍ حقًا هذه المرة.

- بل هو أكثر من ذلك، اقتباسك غير دقيق، إنها (الغابة(32)) وليست (الحقول).

عبس ثم اعترف:

- حسنًا، تبًا لي يا صديقي، هو ما تقول.

بدأت أشعر بخفة روح كوكر، منحني مرأى الحقول أملًا وحيدًا، فالمحاصيل

الخضراء الصغيرة موجودة لكن لن تُحصد أبدًا عند نضوجها، ولن تُجمع الثمار فوق الأشجار؛ لن يبدو الريف جميلًا مرة أخرى كما هو اليوم، ولكنه سيستمر وفقًا لأسلوبه الخاص، فالحقل ليس كالمُدن؛ عقيمٌ ومتوقف إلى الأبد، بل يُمكن للمرء أن يعمل فيه ويجد مُستقبلًا، جعلتني حياتي الأسبوع الماضي أبدو كفأر يعيش على الفُتات ويتجول في أكوام القمامة، لكن النظر إلى الحقول سمح بتحسن معنوياتي.

أعادت المدن على طريقنا مثل ريبيدينج أو نيوبري الحالة المزاجية عن لندن إلى تحسنها لبعض الوقت، لكنها لم تُحسن من الرسم البياني لعدد الأحياء، هُناك صعوبة في الاحتفاظ بالحالة المزاجية المُتعكرة أو التراجيدية، لأنها حالة تُشبه العنقاء، ستظهر وتُسيطر ثم تموت وتتحول إلى رماد، لكن لا بد أن تُخلق مرة أخرى من وسط هذا الرماد، ربما كان هذا مُعينًا للمرء أو مُدمرًا له، لكنه جزء من رغبة المرء في النجاة، وهو كذلك ما يجعل انخراطنا في حروبٍ مُتتالية تُضعفنا، وهو جزء ضروري من آلياتنا البشرية؛ قُدرتنا على البكاء لفترة من الوقت لو انسكب منا مُحيط لبن مسكوب.

تُبحر بعض السحب كجبالٍ جليديةٍ سماوية عملاقة في سماء زرقاء واسعة، ومن تحتها تتحول المدن إلى ذكريات مقموعة، ويعود إحساسنا بالحياة مع استنشاقنا للرياح النظيفة، هذه التناقضات البصرية والمشاعرية ربما لا تكون عُذرًا، لكنها على الأقل ما يفسر لماذا وجدت نفسي أُغني وأنا أقود السيارة.

توقففنا في هنجرفورد للبحث عن المزيد من الطعام والوقود، استمر شعورنا بالتحرُر المُتصاعِد بينما نمُر عبر أميالٍ من بلداتٍ لم يمسسها أحد، ولا تبدو مهجورة بعد، فقط نائمة وودودة، حتى مرأى مجموعات صغيرة من التريفيدات تتمايل عبر الحقول أو مجموعات أخرى تستريح بحفر جذورها في التربة لم يُفسد مزاجي، عادوا مرة أخرى إلى كونهم الأشياء البسيطة محط اهتمامي المهني.

بالقرب من ديفايزس توقفنا لاستشارة الخريطة، انعطفنا إلى طريقٍ جانبي نحو اليمين ومنه توجهنا إلى تينشام.

تينشام

هُناك احتمال ضئيل بأن يفوت القصر على من يبحث عنه؛ سور عقارٍ عالٍ خلف الأكواخ القليلة التي تُشكل قرية تينشام يمتد بجانب الطريق، تبعنا الجدار حتى وصلنا إلى بوابات ضخمة حديدية، وقفت خلفهم امرأة شابة رسمت على وجهها الجدية والرصانة بأعمق ما قد يرتسم على وجه بشري، تسلحت ببندقية تحتضنها بطريقة غير احترافية، أشرت إلى كوكر كي يتوقف وناديتها وأنا أقترب، تحرك فمها لكن كلماتها لم تستطع التغلب على قعقعة المحرك، فأغلقته ثم سألتها:

- هل هذه عزبة تينشام؟

- من أين أتيت؟ وكم عددكم؟

لم تُجب على سؤالي، راقبت أصابعها المُضطربة وهي تتلاعب ببندقيتها، شرحت لها باختصار من نحن ولماذا أتينا وما نحمله معًا، وأكدت لها عدم وجود أحد مُختبئ في الشاحنات، تشككت للحظة فيما إذا كانت ستستقبلنا، ثبتت عيناها على وجهي بتأملٍ وحزن كنظرة الكلب الدموم(33)، وهي غير مُطمئنة إطلاقًا، خرجت لإلقاء نظرة على ظهور الشاحنات والتحقق مما أقول، تمنيت ألا تُتاح لها فُرصة مُقابلة فرقة من الناس تؤكد شكوكها، يبدو اعترافها بأنها راضية من شأنه أن يُضعف دورها في التشكك والدقة، لكنها وافقت في النهاية- وإن أبدت تحفُظها- على السماح لنا بالدخول.

- اتخذ يمين مُفترق الطرق القادم.

أمرتني بهذا وعادت على الفور لحراسة البوابات، خلف طريق قصير مُحاط بأشجار الدردار رأينا حديقة خلابة تنتشر فيها الأشجار، صورت على طريقة أواخر القرن الثامن عشر، المنزل لم يكُن فخمًا بالمعنى المعماري لكن ظهر عليه العديد من الأنماط البنائية، وكأن المُلاك السابقين لم يقدروا على مُقاومة إغراء ترك بصماتهم الشخصية عليه، كلُ واحدٍ مُنهم شعر أن من واجبه التعبيرعن روح عصره مع احترامه لعمل أجداده، فأدى التجاهل الأكيد للمستويات الفنية السابقة إلى غرابة قوية الوضوح،

كان منزلًا مضحكًا، لا مفر من ذلك، لكنه كان ودودًا كذلك.

قادنا الاتجاه الأيمن إلى فناءٍ واسع تقف فيه عدة شاحنات، تمتد منازل المُدربين والإسطبلات حوله وعلى مساحة عدة أفدنة، لم نرَ أحدًا، فشققنا طريقنا عبر الباب الخلفي المفتوح للمبنى الرئيسي ثم سرنا في ممرٍ طويل، وفي نهايته وجدنا مطبخًا ضخمًا يليق بقصور البارونات ينبعث منه الدفء ورائحة الطهي، ومن وراء الباب هُناك أصوات دويّ الأطباق، وكان علينا أن نمشي في ممرٍ مُظلم آخر ثم بابٍ آخر قبل أن نصل إليهم.

أظن أن القاعة التي دخلناها هي قاعة الخدم في الأيام التي كان عدد الموظفين فيها كبيرًا بما يكفي بحيث يُسمون خدمًا بالفعل؛ وواسعة بما يكفي لاستيعاب مائة أو أكثر جالسين على الطاولات دون ازدحام، الجالسون اليوم أعمارهم ما بين الخمسين والستين، وواضح أنهم عميان؛ جالسين في صبرٍ بانتظار عدد قليل من المُبصرين المشغولين للغاية، وعلى طاولة جانبية هُناك ثلاث فتيات يجتهدن في تجهيز قطع دجاج، فاقتربت من واحدة منهن وقُلت:

- لقد جئنا للتو، ماذا نفعل؟

دفعت خصلة شعر إلى الوراء بمعصمها وقالت:

- سيكون مُفيدًا أن يتولى أحدكم مسؤولية الخضار، ويُساعد الأخر في الأطباق.

توليت مسؤولية حوضين كبيرين من البطاطس والكرنب، وفي فترات توزيعها تأملت وجوه شاغلي الصالة، لم تكُن جوسيلا من بينهم، ولم أرَ أيًا من الشخصيات البارزة في المجموعة التي سكنت مبنى الجامعة، وإن تخيلت أنني رأيت وجوه بعض النسوة من قبل.

نسبة الرجال هُنا أعلى بكثير مما كانت عليه في المجموعة السابقة، وكانوا متنوعين، عددٌ قليلٌ منهم من سكان لندن أو سُكان المدن بشكل عام، لكن مُعظم المُتواجدين يرتدون ملابس العمل المعروفة لسُكان الريف، وهُناك كاهن وحيد في مُنتصف العمر، لكن القاسم المشترك بين كل الرجال هو العمى.

النساء كُن أكثر تنوعًا، بعضهن ترتدين ملابس المدينة غير الملائمة للمحيط؛ والباقيات من المحليات غالبًا ومن بينهن فتاة واحدة مُبصرة، لكن في المجموعة الأولى هُناك نصف دستة أو نحو ذلك من المُبصرات، وعددٌ من الكفيفات غير البلهاوات.

كوكر قيم المكان بدوره، همس لي:

هل رأيتها؟

هززت رأسي نفيًا، مُدركًا أنني منيت نفسي بالعثور على جوسيلا هُناك أكثر مما هيأت نفسي للعكس.

- شيءٌ مُضحك، لا يوجد عمليًا أي من الناس الذين اختطفتهم غيرك، باستثناء تلك الفتاة هُناك.

- هل تعرفت عليك؟

- أعتقد ذلك، فقد منحتني نظرة قذرة.

عندما اكتمل حمل الأطباق وتقديمها، أخذنا أطباقنا الخاصة ووجدنا مكانًا على الطاولة، لم يشكو أحد من في طريقة الطهي أو الطعام نفسه، والعيش بأكل الأطعمة المُعلبة الباردة لمدة أسبوع يزيد من تقديرك للطعام المطهو، وفي نهاية الوجبة طرق أحدهم على المنضدة، ثم وقف الكاهن وانتظر أن نصمُت جميعًا قبل أن يتكلم:

- أصدقائي، من المُناسب في نهاية اليوم أن نُجدد شكرنا للرب على رحمته العظيمة بحفظنا وسط الكارثة، أسألكم جميعًا أن تصلوا للرب حتى ينظُر بعين الشفقة إلى أولئك الذين ما زالوا يهيمون على وجوههم في الظُلمة، وأن يُرضيه هداية أقدامهم إلى هنا حتى نتمكن من مساعدتهم، دعونا جميعًا نطلب منه أن ننجو من المحن والكُربات التي تنتظرنا حتى نتمكن بمُساعدته وقدره كم أداء دورنا في إعادة بناء عالم أفضل لمجده الأعظم.

ثم أحنى رأسه وقال:

- ربنا القدير الرحيم..

وبعدما قال الجميع (آمين) قادنا لغناء ترتيلة، وبعد الانتهاء قسم الرجل التجمع نفسه إلى فرق، كل فرد منهم يتصل مُباشرة بجاره، تقودهن أربع مُبصرات، أشعلت سيجارة وأخذ كوكر واحدة مني وهو شارد الذهن، ثم جاءت إلينا فتاة.

- هل ستُساعدان في تنظيم المكان؟ أتوقع أن تعود آنسة دورانت قريبًا.

- آنسة دورانت؟

- إنها المُنظِمة، ستكون قادرًا على ضبط الأمور معها.

مرت ساعة وحل الظلام عندما سمعنا أن الآنسة دورانت عادت، وجدناها في غرفة مكتب صغيرة مُضاءة بشمعتين على المكتب، تعرفت عليها على الفور فهي السيدة السمراء ذات الشفاه الرفيعة التي تحدثت باسم المعارضة في الاجتماع بالجامعة، تركز كل اهتمامها على كوكر ولم تكُن تعبيراتها ودية، وقالت ببرود لكوكر وكأنه نوع من الطمي:

قيل لي إنك الرجل الذي قاد الغارة على مبنى الجامعة؟

هز كوكر رأسه مُعترفًا، ثم وقف مُنتظرًا.

- سأُخبرك مرة واحدة وأخيرة، في مجتمعنا هنا لا نستخدم الأساليب الوحشية، ولا نتسامح معها.

ابتسم كوكر ثم أجابها بلهجته المُنتمية إلى الطبقة الوسطى:

- هذه مسألة وجهة نظر، من الذي سيحكم على الأكثر وحشية؟ أولئك الذين رأوا مسؤولية فورية فبقوا، أم أولئك الذين رأوا مسؤوليات أخرى، فرحلوا؟

واصلت النظر إليه بجدية ولم تُغير تعبيرات وجهها، من الواضح أنها تُحاول تشكيل حُكمًا مختلفًا على نوع الرجل الذي تتعامل معه، إذ لم يكن رده ولا أسلوبه كما توقعت آنسة دورانت، ثم تركت هذا الجانب على الرف لبعض الوقت والتفت إليّ.

- هل شاركت في ذلك معه؟

شرحت الجزء السلبي إلى شاركت فيه، ثم سألتها:

- ماذا حدث لمايكل بيدلي والعقيد، والبقية؟

لم تستقبل سؤالي برحابة صدر وقالت بحدة وتحدٍ:

لقد ذهبوا إلى مكانٍ آخر، هذا مُجتمع نظيف ولائق وذو معايير.. معايير مسيحية، ونعتزم الالتزام بها، ليس لدينا مكان هنا للأشخاص ذوي الآراء الفضفاضة؛ الانحطاط والفجور وانعدام الإيمان سبب العلل السارية في العالم، ومن واجب أولئك الذين نجوا منا فهم أننا نبني مجتمعًا لا يحدث فيه ذلك، لا نرغب في تواجد الأذكياء والساخرين هنا، بغض النظر عن النظريات الرائعة التي قد يطرحونها لإخفاء فسادهم وماديتهم، نحنُ مُجتمع مسيحي ونعتزم أن نظل كذلك.

- إذن فقد انقسمتم، أليس كذلك؟ أين ذهبوا؟

فأجابت بجمود صخر:

انتقلوا وبقينا هنا، وهذا ما يُهم طالما أنهم يُبقون نفوذهم بعيدًا عن هنا ويعملون على إبادة أنفسهم كما يحلو لهم، وبما أنهم اختاروا اعتبار أنفسهم مُتفوقين على كل قوانين الرب والأعراف الحضارية، فلا شك لدي أنهم سيُبادون.

يبدو أنني سأُضيع وقتي إذا حاولت مُتابعة سؤالها، كما أنها عادت إلى كوكر وسألته:

- ماذا يُمكنك أن تفعل؟

- العديد من الأشياء، أقترح أن أجعل نفسي مفيدًا بشكلٍ عامٍ حتى أرى أين ستحتاجين إليّ أمس الحاجة.

ترددت وأخذت قليلًا، واضح أنها نوت اتخاذ قرار وإصدار تعليمات لكنها غيرت رأيها.

- حسنًا، انظر حولك وأبحث ثم تعال لنتحدث معًا مساء الغد.

لكن طرد كوكر ليس بهذه السهولة، أراد معرفة تفاصيل عن حجم العزبة، وعدد الأشخاص الموجودين حاليًا، ونسبة المُبصرين إلى المكفوفين، بالإضافة إلى عدد من الأمور الأخرى، وقد حصل على ما أراد، وقبل أن نُغادر سألناها عن جوسيلا، فعبست الآنسة دورانت وهي تُجيب:

- يبدو أنني أعرف هذا الاسم، والآن أين..؟ أوه هل وقفت مع مصالح المُحافظين في الانتخابات الأخيرة؟

- لا أعتقد ذلك، لقد اعترفت لي بأنها كتبت كتابًا مرة.

- هي، أوه، أوه، حسنًا، حقًا، الأنسة بلايتون، لا أعتقد أنها من النوع الذي يهتم كثيرًا بالمجتمع الذي نبنيه هنا.

في الممر ابتسم لي كوكر وأشار إلى (أرثوذكسية قمعية إلى حد ما موجودة حولنا)، ثم اختفت الابتسامة وهو يُضيف:

- الكبرياء والتحامل، أتعرف هذا؟ إنها تُريد المساعدة وتعرف أنها في حاجة ماسة إليها، لكن لا شيء سيجعلها تعترف بذلك.

توقف أمام باب مفتوح لكان الظلام أصبح كاحلًا بحيث لا يُمكننا رؤية أي شيء في الغرفة، لكن عندما تجاوزناها من قبل وفي وجود ما يكفي من الضوء عرفنا أنها مهجع الرجال.

- سأذهب للتحدث مع هؤلاء الرجال، أراك لاحقًا.

تابعته وهو يتجول في الغرفة ويُحيي من فيها بشكل جماعي، ثم عدت إلى قاعة الطعام، أتى الضوء الوحيد هناك من ثلاث شموع موضوعة بالقرب من بعضها على طاولة واحدة، وإلى جانبهم تُحدق فتاة بسخطٍ في شيء ما تحاول حياكته، قالت لي:

فظيع، أليس كذلك؟ كيف تمكنوا بحق السماء من فعل أي شيء بعد حلول الظلام

في الأيام الخالية؟

لا نعيش في الأيام الخالية، هذا هو المستقبل كما هو الماضي، بشرط أن يوجد شخص ما ليوضح لنا كيفية صنع الشموع.

رفعت رأسها ونظرت إليّ وقالت:

- أجئت من لندن اليوم؟

- نعم.

- الوضع سيء هُناك الآن؟

- لقد انتهت.

سألتها عن جوسيلا فلم تستطع إخباري بأي شيء عنها، يبدو أنها لم تسمع اسمها من قبل، ومُحاولاتي في وصفها لم تُثر أي ذكريات، وبينما نتحدث أُشعِلت الأنوار الكهربائية في الغرفة فجأة، نظرت الفتاة إلى المصابيح برُعبٍ كمن يتلقي الوحي، وأخذت تنظر إلى المصابيح من حين لآخر وكأنها تتأكد من كونها لا تزال موجودة، وبعد بضعة دقائق دخل كوكر، فقلت له وأنا أومئ برأسي نحو الأضواء.

- أنت من فعل ذلك يا كوكر حسبما أظن.

- نعم، لديهم مصنعهم ومُحركاتهم الخاصة هنا، ومستودعات غاز لحام كذلك.

فسألته الفتاة:

- هل تقصد أنه بإمكاننا الحصول على أضواء طوال الوقت؟

- إذا تحملتِ عناء تشغيل المحرك؛ لكن إذا كُنتِ تُريدين الضوء فلماذا لم تحاولي تشغيله؟

- لم أعرف أن المحرك هُناك؛ كم أني لا أعرف أي شيء عن المُحركات أو الكهرباء.

فواصل كوكر النظر إليها وهو يُفكر ثم قال:

- فتبفين جالسة في الظلام، وإلى متى تعتقدين أن تبقى على قيد الحياة إذا استمررتِ جالسة في الظلام عندما تحتاجين إلى فعل الأشياء؟

لُسعت الفتاة من لهجته وتلعثمت وهي ترد:

- ليس خطأي إذا لم أجُيد أشياء من هذا القبيل.

- سأختلف معكِ، هذا ليس خطأك فقط بل إنه خطأ خلقته ذاتك، إذ تعتبرين نفسك روحانية للغاية لدرجة لا تفهمين بها الأمور الميكانيكية، هذه تفاهة وسخافة وشكل من أشكال الغرور، يبدأ كل إنسان منا بعدم معرفة أي شيء عن أي شيء، ولكن الله يعطيه- ويُعطيها- العقل ليتعلم، وعدم استخدامها ليس فضيلة تستحق الثناء، حتى للنساء العابثات التافهات.

بدت مُنزعجة بسبب إساءاته، فقالت له:

- لا أفهم سبب حاجتك إلى صب كل ازدرائك عليّ وعلى النساء فقط بسبب مُحرك قديم قذر.

- يا إلهي العظيم! كُنت سأشرح لكِ أن النساء لديهن العديد من الأدمغة مثل أي شخص آخر، لكن إذا كانوا سيستخدمونها فقط.

- قُلت إننا تافهات وعابثات، هذا ليس شيئًا لطيفًا على الإطلاق.

- لا أحاول أن أقول أشياء لطيفة، وما قصدته هو أنه في العالم الذي اختفى كان للمرأة مصلحة خاصة في تمثيل دور الطُفيليات.

- كل ذلك لمجرد أنني لا أعرف أي شيء عن محرك ذو رائحة كريهة وصاخب!

فقال كوكر بصبر:

- اسمعي، إذا كان لديك طفل، هل تُريدينه أن يكبر ليصبح رجلًا متوحشًا أو متحضرًا؟

- مُتحضر بالطبع.

- حسنًا، إذن عليك أن تتأكدي من وجود حضارة مناسبة حوله وصالحة لتنشئته، ومعرفة المعايير التي سيتعلمها، وهو سوف يتعلم منا وعلينا جميعًا أن نفهم بحق ونعيش بذكاء قدر الإمكان من أجل منحه أقصى ما في وسعنا، سيتطلب ذلك العمل الجاد والمزيد من التفكير بالنسبة لنا جميعًا، ويجب أن تعني الظروف المُتغيرة وجهات نظر متغيرة.

- مع مثل آرائك أعتقد أنك ستجد فرقة السيد بيدلي أكثر مُلاءمة، هُنا ليس لدينا أي نية لتغيير نظرتنا أو التخلي عن مبادئنا، لهذا انفصلنا عن الطرف الآخر، لذا إذا لم تكن طرق الأشخاص المُحترمين جيدة بما يكفي بالنسبة لك فمن الأفضل أن تذهب إلى مكانٍ آخر.

زمجرت بصوتٍ خرج من أنفها وابتعدت، تابعها كوكر وهي تغادر، وحالما أغلقت الباب، عبر عن مشاعره بطلاقة لسان حمّال صناديق سمك وسبابه، فأضحكني أثناء محاولتي القول:

- ماذا توقعت؟ تقف وتخطب في الفتاة كما لو كانت بذاتها تُمثل مُجتمعًا رجعيًا يهتم بالمظاهر- ومسؤولة عن النظام الاجتماعي الغربي بأكمله- وبعد ذلك تتفاجأ من انزعاجها.

- ظننت أنها ستكون عاقلة.

- معظم الناس ليسوا كذلك، يُفضلون أن يقنعهم أو يقودهم أحد، وبهذه الطريقة لن يخطئوا أبدًا، وإذا حدث خطأ فهو بسبب شخص آخر لا بسببهم، هذا التوجه المتهور هو وجهة نظر آلية، والناس بشكل عام ليسوا آلات، لديهم عقول.

- لا يبدو أنك ستمنح بيدلي فرصة كبيرة، كان لديه خطة كاملة.

- ستقع مشاكل بالطبع، لكن مجموعته اختارت طريقها، وهؤلاء الناس هنا ببساطة بسبب مقاومتهم لأي نوع من الخطط، الفتاة مُحقة في شيء واحد، ورد فعلها هو عينة مما ستحصل عليه إذا حاولت التعامل مع هؤلاء الناس بطريقتك، لا يمكنك قيادة قطيع من الأغنام إلى السوق في خط مستقيم، لكن هناك طرق متفرعة عديدة

للوصول إليه.

- أنت ساخر بشكل غير عادي هذا المساء يا بيل، وتستخدم المجاز بإفراط.

فاعترضت على قوله:

- ليست سخرية أن نُلاحظ كيف يقود الراعي خرافه.

- اعتبار البشر كالخراف سُخرية منهم في رأي البعض.

- لكن أقل تشاؤمًا وأكثر جدوى بكثير من اعتبارهم آلات وهياكل مُجهزة للتحكم عن بعد.

- ربما، حسنًا، سأفكر في الآثار المترتبة على ذلك.

وأكثر من ذلك

طغت العواطف على الصباح التالي، قدمت يد المساعدة هنا وهناك وطرحت الكثير من الأسئلة، أما الليلة فكانت بائسة؛ أفكر في جوسيلا والاحتمالات المُتلاشية للعثور عليها في تينشام، ورغم إرهاقي الشديد لم أستطع النوم؛ استلقيت في الظلام، أقول لنفسي إنني عالق وبلا خطة، سأفترض بكل ثقة مرة أخرى أنها وجدت بيدلي وبالتالي يجب أن تلتزم خُطتي بالانضمام إليهم، ثم جال بذهني أولُ شكٍ منطقي؛ ربما لو نجحت في الانضمام إليهم لا أجدها هُناك أيضًا، نظرًا لكونها غادرت وستمينستر قبل وقت قصير من وصولي إلى هناك بحثًا عنها، فلا بد أنها كانت في إثر الفريق الرئيسي، واضح أن ما يجب فعله هو الاستفسار التفصيلي بشأن كل من وصل إلى تينشام خلال اليومين الماضيين.

في الوقت الحاضر سأفترض أنها جاءت من هذا الطريق، هذا دليلي الوحيد، وهذا يعني الافتراض أنها عادت إلى الجامعة وعثرت على العنوان المكتوب بالطباشير، أو رُبما لم تذهب إلى هناك على الإطلاق، ربما سئمت الأمر برمته واتخذت أسرع طريق للخروج من المكان الكريه الذي تحولت إليه لندن الآن.

الاحتمال الذي أرغب في مُقاومته هو إصابتها بالمرض الذي أدى إلى القضاء على كلتا المجموعتين، لن أفكر في إمكانية ذلك إلا حين الاضطرار.

وفي خضم الأرق اكتشفت أن رغبتي في الانضمام إلى زُمرة بيدلي هي رغبة ثانوية بالنسبة لرغبتي في العثور على جوسيلا، فإذا عثرت عليهم ولم تكن مع.. حسنًا، سأنتظر الخطوة التالية لكنها لن تكون شيئًا كالاستقالة.

لم أجد كوكر على سريره عندما استيقظت، فقررت تخصيص صباحي للاستفسارات، اسم جوسيلا لا يعني شيئًا لأي شخص باستثناء أولئك القلائل الذين تذكروه في حالة من الرفض، ولم يُثر وصفي لها أي ذكريات تفصيلية، ولا حتى كونها ترتدي بدلة تذلج زرقاء داكنة، ولكني غير مُتأكد أنها ستظل ترتدي نفس الملابس، انتهيت بإصابة الجميع بالتعب مني وتضخم إحباطي.

ظهر كوكر مرة أخرى أثناء وجبة مُنتصف النهار، قال إنه وجد معظم الرجال غارقين في الكآبة بسبب تأكيدات القس وحُسن نيته بوجود الكثير من الأشياء المُفيدة التي سيقومون بها مثل صنع السلال والحياكة، وقد بذل قصارى جهده لتبديد هذا الاكتئاب بآفاقٍ أكثر تفاؤلًا، وأثناء مواجهة الآنسة دورانت أخبرتها أنه ما لم تأخذ النسوة الكفيفات أعمالًا من فوق أكتاف المُبصرين فإن كل شيء سينهار في غضون عشرة أيام، وأيضًا؛ إذا صلى القس كي ينضم المزيد من المكفوفين إلينا، لن يصلُح المكان بأكمله للعمل، وقال بضرورة البدء فورًا في تخزين احتياطيات غذائية وبناء الأجهزة التي من شأنها تمكين المكفوفين من القيام بأعمالٍ مُفيدة، فقاطعته؛ رأى أنها مُتوترة لكنها لم تقل ذلك وأنكرت وجوده، الحسم الذي دفعها إلى قطع العلاقات مع الطرف الآخر جعلها تنفجر في وجهه دون شكر لنصائحه، وأخبرته أنه بِناءً على معلوماتها فمن غير المُحتمل أن ينسجم هو ولا آرائه مع المجتمع.

قال لي:

- مشكلة تلك المرأة هي أنها تعني بجدية أن تكون رئيسة، سَتُدير هذا المكان حتى يتحول إلى جحيم من الفوضى ما لم تبدأ مهمة تنظيمه بسرعة كبيرة، ماذا ستفعل؟

- أنا ذاهب إلى حشد مايكل بيدلي.

- وإذا لم تجد جوسيلا هُناك؟

- آمل أن تكون هُناك، يجب عليها أن تكون، في أي مكان آخر ستكون؟

بدأ يقول شيئًا وتوقف، ثم تابع:

- أظن أني سوف آتي معك، يُحتمل ألا يسعد الحشد هُناك برؤيتي أكثر مما حدث هُنا، لقد شاهدت مجموعة تنهار إلى أجزاء صغيرة، ويُمكنني أن أرى أن هذا يحدث هنا، لكن ببطء أكبر وبشكل أكثر شرًا، يبدو أن النوايا الحسنة هي أخطر شيء موجود الآن، هذا عار ولعنة، لأن هذا المكان يُمكن إدارته رغم نسبة المكفوفين الكبيرة، كل ما تحتاجه هو التنظيم المطلوب فحسب.

- والاستعداد للتنظيم.

- وهذا أيضًا، أتعرف؟ المُشكلة هي أنه على الرغم من كل ما حدث، فإن المرض والتريفيدات لم يصلوا إلى المنازل هُنا بعد، وإذا جاءوا ستكون النهاية، في الجزء الخلفي من أذهان الناس هُنا كلّهم مُتعلقون، ينتظرون شيئًا أو آخر.

- صحيح، لكنه لن يكون مُفاجئًا، لقد تطلب إقناعنا الكثير، ولم يروا ما رأيناه، وبطريقة ما، يبدو الوضع هنا أقل إلحاحًا وقتامة.

- حسنًا، يجب أن يبدأوا في إدراك ذلك قريبًا إذا أرادوا النجاة، لن تأتي مُعجزة لإنقاذهم.

- امنحهم بعض الوقت، سيفهمون كما فهمنا، أنت دائمًا في عجلة من أمرك، والوقت لم يعُد مالًا كما تعلم.

- المال لم يعُد مهمًا يا بيل، لكن الوقت مُهم، يجب أن يفكروا في الحصاد وتجهيز طاحونة لطحن الدقيق، والاهتمام بالتخزين للشتاء.

- الأمر ليس عاجلًا لكُل ذلك يا كوكر، لا بد أن هُناك مخزون ضخم من الدقيق في البلدات ولا يستخدمه سوى القليل منا الآن، أما الوظيفة الفورية فهي تعليم المكفوفين كيفية العمل قبل أن يضطروا إجبارًا على الانخراط في ذلك.

- هُناك أمر أخر، المبصرون هُنا سينهارون قريبًا، يحتاج الأمر فقط أن ينهار واحد أو اثنين منهم، وستبدأ الفوضى.

- أنت مُحق.

***

في وقت لاحق من بعد الظهر تمكنت من العثور على الآنسة دورانت، لا يبدو أن أي شخص آخر يعرف أو يهتم بالمكان الذي ذهب إليه مايكل بيدلي لكنني لم أصدق أنهم لم يتركوا وراءهم أي مؤشر لمن قد يرغبون في إتباعه، لم تبدو الآنسة دورانت مسرورة، في البداية اعتقدت أنها سترفض إخباري، ليس بسبب تفضيلي الضمني لفريقٍ أخر فقط، فخسارة رجل قادر جسديًا أمر خطير في هذه الظروف، لكنها

فضلت ألا تُظهر ضُعفها بمطالبتي بالبقاء، قالت في النهاية:

- كانوا يعتزمون الإقامة في مكانٍ ما بالقرب من بيمينستر في دورست، لا يُمكن أن أخبرك أكثر من ذلك.

عُدت وأخبرت كوكر، فنظر حوله ثم هز رأسه أسفًا وقال:

- حسنًا، فلنتحقق مما قالت غدًا.

شهدت الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي خروجنا للسفر كما كان من قبل في شاحنتينا، سنقطع مسافة اثني عشر ميلًا أو نحو ذلك، تسائلنا إذا كُنا سنترك الشاحنات لصالح تينشام، لكنني لم أرغب في التخلي عن سيارتي، لقد جمعت محتوياتها بنفسي وأعرف ما بداخلها، كان الطقس جيدًا فوق الأراضي المُرتفعة، هُناك القليل من التلوث في الهواء النقي رغم أن الرائحة المُنبعثة من معظم القرى أصبحت سيئة مُزعجة، نادرًا ما رأينا أحدًا من البشر أو التريفيدات موجود في حقل أو على جانب الطريق، فكما في لندن بدا أن الغريزة الرئيسية كانت الاختباء بعيدًا في أي مأوى، مُعظم شوارع القرى خالية والريف المُحيط به مهجور، كأن الجنس البشري كله ومعظم حيواناته قد تبخروا.

في طريقنا رأينا منظرًا بديعًا أثناء نزولنا التل، قرية ستيبيل ظهرت بكاملها من أعلى، تتجمع عند الطرف الأبعد لجسر حجري مُقوس فوق نهر صغير يتلألأ في ضوء النهار، المكان هادئ حول الكنيسة الجميلة النائمة، وتنزل على حوافه أكواخ بيضاء، لا يبدو أن شيئًا قد حدث خلال قرن أو أكثر يُزعج الحياة الهادئة تحت أسقفها المصنوعة من القش، لكنها- مثل القُرى الأخرى- خالية الآن من الضجة والدخان، وعندما أصبحنا في منتصف الطريق أسفل التل، لفتت انتباهي حركة عن يسارنا، عند الطرف البعيد من الجسر هُناك منزل ينحرف قليلًا عن الطريق بحيث يواجهنا بشكلٍ غير مُباشر، هُناك لافتة نُزُل مُعلقة من قوس على جداره، ومن النافذة التي تعلوها مباشرة هناك شيء أبيض يتموج في الهواء، مع اقتربنا استطعت رؤية الرجل الذي يميل إلى الخارج ويلوح لنا بمنشفة بيضاء، لا بد أنه أعمى وإلا لخرج ليعترضنا، أما قوته وحماسه فتليقان برجلٍ مريض.

تجاوزنا الجسر ثم أشرت إلى كوكر أننا سنتوقف إلى جوار النزل، أسقط الرجل المنشفة وصاح بشيءٍ لم أسمعه بسبب ضجيج المحركات، فأطفأناها ليعُم هدوءٌ شديدٌ لدرجة سمعنا بها صوت أقدام الرجل تتسارع في النزول على الدرج الخشبي، فتح الباب وخرج منه مُمسكًا بكلتا يديه أمامه، وكالبرق جلده شيء من السياج عن يساره فسقط الرجلُ أرضًا وهو يصرخ، التقطت بندقيتي وخرجت، ذُرت قليلًا حتى استطعت التقاط التريفيد واقفًا وسط ظلال الشجيرات، ثم فجرت الجزء العلوي منه.

وقف كوكر بجانبي ونظر إلى الرجل على الأرض ثم إلى التريفيد المقصوص إلى نصفين ثم قال:

- كانت.. اللعنة، لا يُمكن.. هل كانت تنتظره؟ كيف عرف أنه سيخرُج من ذلك الباب.. أعني.. كيف سيعرف؟ هل يُفكرون ويتربصون بنا؟

- وها قد فعلتِ، كان أداءً أنيقًا مُلاحظًا.

نظر كوكر إليّ بعينين غيرُ مُرتاحتين وهو يقول:

- أنيق للغاية، أنت لا تؤمن حقًا..

- هُناك مؤامرة تهدُف لعدم تصديق الأمور عن التريفيدات، المهم، قد يكون هُناك المزيد.

اجتزنا باب الثُزُل واقتربنا من الحانة، فاقترح كوكر:

- يُمكنني تناول مشروب.

وسكب لنا كأسيّ ويسكي وتجرع كأسه دُفعة واحدة، ثم قال:

- لا يُعجبني ذلك على الإطلاق، يبدو أنك تعرف الكثير عن تلك الأشياء الدموية أكثر من معظم الناس، بيل.. لا بد أنها كانت هُناك مُصادفة، أليس كذلك؟

- أعتقد..

قاطعنا صوت قرع طبولٍ خافت بالخارج، فتحت النافذة لأرى التريفيد المقطوع

يهز عصوياته الثلاث بشدة، فضربت ساقه ضربة قاطعة أخرى.

- المشكلة بشأن التريفيدات هي الأمور التي لا نعرف عنها شيئًا.

وأخبرته بواحدة أو اثنتين من نظريات والتر.

- أنت لا تقترح بجدية أنهم يتحدثون عندما يصدرون هذا الضجيج؟

- لم أحسم أمري أبدًا، سأذهب إلى القول بأنني مُتأكد من كونها إشارة من نوعٍ ما، لكن والتر اعتبرها حديثًا حقيقيًا، وكان يعرف عنها أكثر من أي شخص آخر قابلته على الإطلاق.

أعدت تلقيم البندقية وكوكر يقول لي:

- وذكر ميزاتهم ضد العميان خاصة؟

- وكان هذا قبل عدة سنوات.

- صُدفة مُضحكة.

- أي ضربة قدرية قد تبدو مُصادفة مُضحكة إذا حاولت بجدية كافية، وانتظرت وقتًا كافيًا.

شربنا ثم تجهزنا للذهاب، نظر كوكر من النافذة ثم أمسك بذراعي وأشار إلى الخارج، هُناك تريفيدان يتمايلان حول زاوية المبنى مُتخذين من السياج مكانًا للاختباء، انتظرت حتى توقفا ثم قطعت رأسيهما، غادرنا من النافذة نفسها لأنها خارج نطاق أي تريفيد قد يكون مُختبئًا، وأخذنا نفحص مُحيطنا ونحن نقترب من الشاحنات، وقال كوكر:

- صُدفة أخرى؟ أم أتوا ليروا ما حدث لصديقهم؟

توقفنا لمرتين أُخريتين؛ مرة للطعام وأخرى للوقود، وقضينا وقتًا ممتعًا، مررنا ببيمينستر في حوالي الرابعة والنصف عصرًا، ودخلنا مُباشرة إلى وسط المكان دون أن نرى أي شيء يُشير إلى وجود جماعة بيدلي.

بدت المدينة خالية من الحياة للوهلة الأولى مثل أي مدينة أخرى رأيناها، لا يوجد في شارع التسوق الرئيسي سوى شاحنتين متوقفتين على جانب واحد، قُدت الطريق لمسافة عشرين ياردة تقريبًا عندما نزل رجل من خلف إحدى الشاحنات وصوب بندقيته نحوي ثم أطلق النار عمدًا في الهواء فوق رأسي قبل أن يخفض فوهة البندقية.

شارع سد

هذا تحذير من نوعٍ لا يُناقش، توقفت ونظرت إلى الرجل، كان كبير الحجم أشقر الشعر، يتعامل مع بندقيته بألفة دون أن يُبعدها عن الهدف، هز رأسه مرتين ففهمت أنها علامة موافقة على النزول، فعلت ذلك وعرضت عليه يديّ الفارغتين، خرج رجل آخر برفقة فتاة من خلف الشاحنة الواقفة أثناء اقترابي منها، فين حين قال كوكر من خلفي:

- من الأفضل أن تضع تلك البندقية جانبًا يا صديقي.

تحركت عينا الرجل الأشقر للبحث عن كوكر، بإمكاني القفز عليه إذا أردت ذلك لكنني قلت:

- إنه على حق، نحن مُسالمان.

قال لنا الرجُل الثاني:

- أأنتما اثنان فقط؟

نظر إليه كوكر قائلًا:

- ماذا تتوقع؟ مُجتمع كامل؟ نعم نحن اثنان فقط.

أرتاح الثلاثي بوضوح وقال ذو الشعر الأشقر:

- اعتقدنا أنكم عصابة من مدينة مجاورة، كنا نتوقع مجيئهم للإغارة على الطعام.

فقال كوكر:

- أوه، سأفترض أنك لم تُلقِ نظرة على القرى والمدن المحيطة بكم مؤخرًا، فإذا كان ما تقوله هو مصدر قلقك الوحيد فيُمكنك أن تنساه.

- ألا تعتقد أنهم سيأتون؟

- أنا على يقين أنهم لن يأتوا..

- هل تنتميان إلى ضيعة بيدلي؟

فأجبناه بالصمت.

***

شعرت بالذبول والجفاف بعد بضعة ساعات من القيادة في كابينة القيادة والشمس الضاربة فيها، اقترحت أن نؤجل المناقشة من منتصف الشارع إلى مكان أكثر مُلاءمة، مررنا بشاحناتهم عبر نفايات مألوفة من عُلب البسكويت وأكياس الشاي وجوانب قوالب لحم الخنزير وأكياس السكر وكُتل الملح، جلسنا في بار صغير مُجاور فوق أواني مقلوبة سعة نصف لتر، وحكينا لهم أنا وكوكر لمحات مُختصرة عما فعلناه وما عرفناه.

كانوا ثُلاثيًا مُتنوعًا، تبين أن الرجل أشقر الشعر كان عضوًا في البورصة، واسمه ستيفن برينيل، أما رفيقته حسنة المظهر فكانت تعمل في عرض الفساتين وبيعها والقيام بأعمال إضافية في الأفلام وفقدان فرص الذهاب إلى هوليوود واستضافة نوادٍ غامضة ومساعدة هذه الأنشطة بوسائل أخرى، وكان لديها اقتناع لا يتزعزع أن لا شيء خطير سيحدث لأمريكا، وأن الأمر مُجرد مسألة انتظار قبل أن يصل الأمريكيون لإعادة النظام لكل شيء، كانت أقل الأشخاص اضطرابًا ممن قابلت منذ وقوع الكارثة رغم أنها كانت تتلهف قليلًا من حين لآخر للأضواء الساطعة، فتأمل أن يُسرع الأمريكيون ويعيدون النظام.

أما الشاب الثالث فكان أسمر البشرة وقد ظل على تحفظه، قال إنه عمل وادّخر بجد واجتهادٍ ليبدأ إدارة متجر راديو صغير، وكانت طموحات عالية:

- انظروا إلى فورد، أو لارد نافيلد، لقد بدأ بمتجر دراجات في نفس حجم متجري، وانظر إلى أين وصل! هذا هو ما كنت سأصل إليه، والآن انظر إلى الفوضى اللعينة! هذا ليس عدلا!

القدر- كما رآه- لا يُريد المزيد من سيارات فورد أو نافيلد، لكنه لا ينوي الاستسلام للأمر، هي فترة انتقالية وسينجو منها، وفي يوم من الأيام سنراه مرة أخرى في

متجر الراديو وقد وضع أقدامه بثبات على الدرجة الأولى نحو مملكة المليونيرات.

لا يعرفون شيئًا عن مكان زُمرة مايكل بيدلي، المجموعة الوحيدة التي واجهوها كانت في قرية تقع على حدود ديفون مُباشرة؛ نصحهم رجلان يحملان بنادق الصيد بعدم العودة إلى هذا الطريق مرة أخرى، قالوا إنهم رجالٌ محليين بوضوح، فقال كوكر إن هذا يعني كونهم مجموعة صغيرة.

- إذا كانوا ينتمون إلى مجموعة كبيرة لأظهروا توترًا أقل وفضولًا أكبر، لكن إذا كانت ضيعة بيدلي قريبة إذن يجب أن نعثر عليها بطريقة ما، انظر يا ستيفن، افترض أننا جئنا معك؟ يُمكننا الاقتراب وعندما نجدهم سنجعل الأمور أسهل بالنسبة لنا جميعًا.

نظر الثلاثة إلى بعضهم البعض بتساؤل ثم أومأوا برأسهم موافقين:

- حسنًا، قدم لنا يد المساعدة وسنكون على ما يرام.

في شاركوت وجدنا منزلًا قديمًا يبدو أنه كان قصرًا مُحصنًا في يوم من الأيام، ويبدو كذلك أن عملية إعادة التحصين كانت جارية قبل حدوث الكارثة، في الماضي القريب جفّ الخندق المُحيط، وجُدران المنزل الحجرية سميكة، رأيت فوق ثلاث نوافذ على الأقل في المقدمة مدافع رشاشة، وهُناك مدفعان آخران مُثبتان على السطح، أما داخل المبنى فوجدنا ترسانة من قذائف الهاون والقنابل وعدد من قاذفات اللهب، أشار إليهم ستيفن وقال بفخر:

- لقد وجدنا مستودعًا للأسلحة، وأمضينا يومًا في جمع هذه الكمية.

نظرت إلى الأشياء وأدركت لأول مرة أن الكارثة- بمعناها الشامل- كانت أرحم من الأمور التي ستتبع كارثة أخف ضررًا ظاهريًا، لو بقى عشرة أو خمسة عشرة في المائة من السُكان سليمين لكان مُحتملًا أن تجد مجتمعات صغيرة كهذه تُقاتل عصابات جائعة من أجل الحفاظ على حياتها، وإن كانت بعض استعدادات ستيفن الحربية تبدو عابثة مثل قذائف الهاون مثلًا، لكن هُناك جهاز واحد يُمكنه استخدامه جيدًا، أشرت إلى قاذفات اللهب وقُلت:

- قد تكون هذه مفيدة ضد التريفيدات.

- أنت مُحق، هي مؤثرة جدًا، في الحقيقة هي الشيء الوحيد الذي استخدمناه ضدهم، وبالمناسبة هو الشيء الوحيد الذي يجعل التريفيدات تهرب حسبما أعرف، يُمكنك الاستمرار في إطلاق الرصاص عليهم ولن يتزحزحوا، لكن لعقة دافئة واحدة من هذه وسينهارون.

- هل واجهت الكثير من المشاكل معهم؟

- من حينٍ لآخر، يقترب واحد أو اثنان أو ثلاثة بحدٍ أقصى، فنحرقهم على الفور، وفي رحلاتنا الاستكشافية رأينا العديد من حالات هروبهم المحظوظة، لكننا عادة ما نكون داخل المركبات، ولا نخرج منها إلا في المناطق السكنية حيث احتمال تجول التريفيدات ضئيل.

بعد حلول الظلام في تلك الليلة، صعدنا جميعًا إلى السطح، كان الوقت مُبكرًا على ظهور القمر، فكان المنظر الطبيعي أسود بقتامة، بحثنا عن أي نقطة مُضيئة فلم نجد، ولا يُمكن لأيٍ منا أن يتذكر رؤية آثار دخان في النهار، شعرت بالاكتئاب الشديد عندما نزلنا مرة أخرى إلى غُرفة المعيشة المُضاءة.

قال كوكر:

- سيتعين علينا تقسيم الحي إلى مناطق والبحث فيها.

لكنه لم يقلها عن اقتناع، ظننت أنه يفكر في احتمال إظهار زُمرة بيدلي لضوءٍ مُتعمد ليلًا وعلامة أخرى- ربما عمود دخان- في النهار، لكن لم يُقدم أحد اقتراحات أفضل، لذا بدأنا تقسيم الخريطة، وبذلنا قصارى جهدنا لافتراض أن كُل منطقة ستتضمن أرضية مُرتفعة تمنحنا رؤية شاملة تتجاوزها.

في اليوم التالي ذهبنا إلى المدينة في شاحنة، ومن هناك تفرقنا في سياراتٍ أصغر، كان هذا بلا شك أكثر أيامي كآبة منذ الأيام التي قضيتها أتجول في وستمنستر بحثًا عن آثار جوسيلا هناك.

في البداية لم يكن الأمر سيئًا للغاية، هُناك طريق مفتوح تحت أشعة الشمس يُحيط به أخضرٌ طازج من عمر أول الصيف، هُناك لافتات تُشير إلى (إكستر 34 والغرب) وأماكن أخرى، وكأنهم مُستمرين في حياتهم المُعتادة، يُمكنني هُناك أحيانًا رؤية بعض الطيور، وهُناك أزهار برية بجانب الممرات تبدو كما كانت دائمًا.

لكن الجانب الآخر من الصورة لم يكن جيدًا، هُناك حقول ترقد فيها الماشية ميتة أو تتجول ببلاهة توحي أنهم عميان، والأبقار التي لم تتم رعايتها ترقد وتتألم، الأغنام وقفت مُستسلمة مُحبطة لتموت وربما تحاول إخراج نفسها من الأسلاك الشائكة أو المُحاطة بالنباتات المُتسلقة، وهُناك خرافٌ أخرىٰ تمشي بشكلٍ متقطع؛ جائعة بلا حول ولا قوة مع نظرات توبيخ واضحة في عيونهم العمياء، أصبحت المزارع أماكن مُزعجة لا تحب المرور بها، من أجل سلامتي كُنت أفتح شبرًا واحدًا فقط للتهوية في الجزء العلوي من النافذة، لكنني أغلقتها تمامًا عندما رأيت مزرعة أمامي على جانب الطريق، التريفيدات طليقة، رأيتهم أحيانًا يعبرون الحقول وأحيانا كانوا غير نشطين واقفين بجوار الأسيجة، وفي أكثر من مزرعة وجدوا رغابتهم فوقفوا في وصول المخزون الميت إلى المرحلة المطلوبة من التعفن، رأيتهم الآن باشمئزاز لم أراهم عليّ من قبل، تلك الأشياء الغريبة الفظيعة التي صنعها البعض بطريقة ما، والتي قام بقيتنا- بجشعٍ وإهمال- بتربيتها في جميع أنحاء العالم، لا نستطيع أن نلوم الطبيعة على وجودهم، بطريقة ما ربيناها كما ربينا الزهور الجميلة والكلاب المُهجنة، كرهتهم الآن بسبب أكلهم للجيف، ولأنهم بدوا قادرين على الربح والازدهار على حساب كارثتنا.

بمرور الوقت تعاظم شعوري بالوحدة، رأيت دُخانًا ذات مرة فذهبت إلى المصدر لأجد قطارًا صغيرًا يحترق وهو واقف على السكة الحديد، ولا أعرف كيف حدث ذلك رغم أن لا أحد موجود بالقرب منه، وفي مرة أخرى رأيت علمًا يُرفرف فوق منزل فأسرعت إليه لأجده صامتًا خاليًا، وفي مرة ثالثة لفت انتباهي رفرفة شيء أبيض على مُنحدرِ تلٍ بعيد، لكن عندما اقتربت وجدت نصف دستة من الأغنام يتحركون بعشوائية وذعر بينما يضربهم تريفيد باستمرار لكن دون جدوى لعدم استطاعته اختراق الصوف على ظهورها.

توقفت لتناول الطعام بسرعة، مُستمعًا إلى الصمت الذي بدأ يُثير أعصابي، لم أرَ بشريًا واحدًا فتلهفت للعودة إلى السير على الطريق مرة أخرى لأسمع صوت مُحرك السيارة فيونسني.

بدأت أتوهم رؤية بعض الأمور؛ رأيتُ ذراعًا تلوح من نافذة، لكن عندما وصلت إلى هناك وجدته فرع شجرة يتمايل أمام النافذة، ورأيت رجلًا يقف في وسط حقل ويستدير ليُتابعني وأنا أقود لأتجاوزه، لكن النظارات أظهرت لي أنه لا يُمكن أن يتوقف أو يستدير، لأنه كان فزاعة بكل بساطة، سمعت أصواتًا تناديني لكن لا أستطيع تمييزها بسبب ضجيج المحرك؛ فأتوقف وأُطفئ المحرك، لأكتشف أنها شكوى بقرة لم يُحلب لبنها.

خطر لي أن رجالًا ونساءً هُنا وهُناك يعتقدون أنهم الناجون الوحيدون، فتأسفت لحالهم مثل أي شخص آخر نجا من الكارثة.

واصلت العمل بإصرار خلال فترة ما بعد الظهر رغم انخفاض روحي المعنوية، لا أجرؤ على المُخاطرة بالفشل، أقنعتُ نفسي بفكرة؛ رُبما أي حشد أو زُمرة كبيرة موجودة في المنطقة المُخصصة لي ستعمد إلى الاختباء، ليس مُمكنًا تغطية كل ممرٍ وطريق فرعي، لكني على استعداد للقسم بأن صوت بوقي الضعيف سُمع في كل فدان، انتهيت وعُدت إلى المكان الذي أوقفنا فيه الشاحنة، ومزاجي في أسوأ ما قد يكون، لم يعُد أحد من الآخرين بعد، لذا قررت تضييع الوقت، التفتُ إلى الحانة القريبة وجهزت لنفسي كأس براندي؛ أنا بحاجة لأقصى درجة من البرود الروحي.

عاد ستيفن؛ رحلته الاستكشافية أثرت عليه بالسوء كما فعلت معي، وجه نظرة مُباشرة إلى الزجاجة التي فتحتها ولم يُجِب على سؤالي عما وجد، وبعد عشر دقائق انضم إلينا صاحب الراديوهات الطموح، أحضر معه شابًا أشعث الشعر ذا عينين متوحشتين، وبدا أنه لم يغتسل أو يحلق شعره منذ أسابيع، كان الشخص الوحيد على الطريق ويبدو أنها مهنته الوحيدة، في إحدى الأمسيات- ولم يستطع تحديد اليوم- وجد حظيرة جيدة ومُريحة ليقضي فيها الليل، ولأنه أنجز أكثر من نصف الأميال التي اعتاد سيرها في ذلك اليوم، نام بُمجرد استلقائه، وفي صباح اليوم

التالي استيقظ ليجد نفسه في كابوس، ظن أنه مجنون، وكنا نعتقد أنه مجنون قليلًا، لكنه لا يزال يعرف كيف يستخدم البيرة.

مرت نصف ساعة أو نحو ذلك ثم وصل كوكر، لم يكن حظه أوفر منا، عُدنا إلى منزل شاركوت القديم في المساء واجتمعنا مرة أخرى حول الخريطة، بدأ كوكر يُحدد مجالات بحث جديدة فتابعناه في فتور، ثم قال ستيفن ما نفكر فيه جميعًا، بما في ذلك كوكر نفس على ما أظنه:

أنظروا، لقد بحثنا في دائرة قُطرها خمسة عشر ميلًا، واضح أنهم ليسوا في الجوار أو أن معلوماتك خاطئة، أو أنهم قرروا عدم التوقف هنا واستمروا قُدمًا، ستكون مضيعة للوقت في رأيي أن نواصل البحث بالطريقة التي فعلناها اليوم.

وضع كوكر البوصلات التي كان يستخدمها على الطاولة وقال:

- ماذا تقترح؟

- حسنًا، يبدو لي أننا نستطيع تغطية مساحة كبيرة من الأرض باستخدام الجو، يُمكنك أن تراهن بحياتك على أن أي شخص سيسمع محرك طائرة سيخرج ويُشير إلى وجوده بأي طريقة.

هز كوكر رأسه وقال:

- لماذا لم نفكر في هذا من قبل؟ يجب أن تكون طائرة مروحية بالطبع، ولكن من أين نحصل على واحدة؟ ومن سيطير بها؟

قال رجل الراديو بثقة:

- أوه، يُمكنني أن أقود أحدها.

هُناك تُردد ظاهر في لهجته، لذا سأله كوكر:

- هل سبق لك أن طرت بواحدة؟

- كلا، لكنني أعتقد أنه لا تحتاج للكثير طالما وُجدت الموهبة.

قال له كوكر وهو ينظر إليه بحذر:

- أمم.

تذكر ستيفن موقع محطتين قريبتين لسلاح الجو الملكي، وتذكر كذلك وجود أعمال سيارات أجرة جوية في يوفيل، ورغم تشككاتنا، بدا رجل الراديو واثقًا تمامًا من عدم خُذلان غريزة الآلات له.

وبعد التدرب لمدة نصف ساعة، أخذ المروحية وعاد بها وحده إلى شاركوت.

ولمدة أربعة أيام، حامت المروحية في دوائر مُتسعة، ليومين رافق كوكر الفتى لغرض المُلاحظة، وليومين آخرين رافقته أنا، اكتشفنا إجمالًا عشر مجموعات بشرية صغيرة، لم يعرف أحد شيئًا عن زُمرة بيدلي، وجوسيلا كذلك غير موجودة، غالبية المجموعات مكونة من اثنين إلى ثلاثة أشخاص، أما أكبر مجموعة فكانوا سبعة، كلهم رحبوا بنا بأملٍ وشغفٍ، لكن سرعان ما يكتشفون أننا نمثل مجموعة مُماثلة في عدد أفرادها لمجموعتهم، ولم نكن رأس حربة فريق إنقاذ على نطاق واسع، وهنا ينتهي اهتمامهم، يُمكننا أن نقدم لهم القليل مما لا يملكونه بالفعل، بينما يُصبح بعضهم مُسيئًا أو مُهددًا بسبب خيبة أملهم، قليلون منهم أظهروا الرغبة في الانضمام للأحزاب الأخرى، ويميلون إلى وضع أيديهم على ما يستطيعون والاعتصام بملاجئهم بأكبر قدر ممكن من الراحة في انتظار وصول الأمريكيين المُلزمين بالعثور على حل، يبدو أنها فكرة واسعة النطاق، اقتراحاتنا بأن أي أميركي على قيد الحياة ستمتلئ يده بما في وطنه من مشاكل، لكنهم تلقوا ما نقوله وكأننا نُعطيهم بطانيات مبلولة لا نفع منها، وأكدوا لنا أن الأمريكيين لن يسمحوا بحدوث مثل هذا في بلدهم، وبهذا يثبتون قاعدة ميكابر (35) على عرّابات وجنيات أمريكيات، ورغم هذا تركنا لكل مجموعة خريطة توضح لهم المواقع التقريبية للمجموعات التي اكتشفناها بالفعل في حالة قرروا تغيير رأيهم أو التفكير في الاجتماع معًا.

تلك الرحلات الجوية- كمُهمة- بعيدة كل البعد عن الإمتاع، لكنها على الأقل أفضل من الاستكشاف الفردي على الأرض، ومع ذلك قررنا التخلي عن البحث في نهاية اليوم الرابع غير المُثمر، أو على الأقل هذا ما قرره الباقون، لم أشعر مثلهم لأن مهمتي

شخصية، لستُ مثلهم، كل من وجدوه- الآن أو في النهاية- سيكون غريبًا عنهم، انا أبحث عن بيدلي كوسيلة وليس غاية، إذا وجدتهم واكتشفت أن جوسيلا ليست معهم فعندئذٍ سأواصل البحث، لكن لم أكن أتوقع أن يُخصص الباقي مزيدًا من وقتهم للبحث نيابة عني.

الغريب هو أنني لم أُقابل أي شخص يبحث عن شخص آخر، كل واحدٍ منهم- باستثناء ستيفن وصديقته- يبتعد عن الأصدقاء أو الأقارب، لارتباطهم بالماضي، ويبدؤون حياة جديدة مع أشخاص غُرباء، أنا الوحيد- على حد علمي- الذي شكلت رابطًا جديدًا على الفور، وكان ذلك لفترة وجيزة لدرجة أنني بالكاد أُدرك مدى أهميته بالنسبة لي.

بمجرد اتخاذ قرار التخلي عن البحث قال كوكر:

- حسنًا، سيقودنا ذلك إلى التفكير فيما سنفعله لأنفسنا.

فسأله ستيفن:

- البقاء في المتاجر لنواجه الشتاء، ونستمر كما نحن الآن، هل هُناك شي أخر علينا فعله؟

- فكرت في ذلك، ربما يكون كل شيء على ما يرام لبعض الوقت، ولكن ماذا سيحدث بعد ذلك؟

قال رجل الراديو:

- إذا نفد مخزوننا.. حسنًا، هُناك الكثير من الأشياء الأخرى الموجودة حولنا.

وقالت صديقة ستيفن:

- سيكون الأمريكيون هنا قبل عيد الميلاد.

فقال لها كوكر صابرًا:

- اسمعي، دعكِ من أضغاث الأحلام (36) للحظة، وحاولي أن تتخيلي عالمًا لا

يوجد فيه أي أميركيين، هل يُمكنك فعل ذلك؟

فحدقت الفتاة في وجهه وقالت:

- لكن يجب أن يكونوا هُناك.

تنهد كوكر بحزن ثم حول انتباهه إلى رجل الراديو:

- لن تكون المتاجر موجودة دائمًا، لقد حصلنا على الطيران في نوعٍ جديد من العالم، ووهبِنا رأس مال يكفي من كل شيء لنبدأ به، لكن هذا لن يستمر إلى الأبد، لا يُمكننا أن نأكل كل الأشياء الموجودة، وحتى لو احتفظنا ببعضها لن يستمر الكثير منها، سوف تفسد بعض المُنتجات بسرعة كبيرة، ولا أتحدث هنا عن الطعام فقط، كل شيء يسير ببطء وثبات نحو التحطم إلى أشلاء، إذا أردنا أن نأكل طعامًا طازجًا العام المقبل فعلينا أن نزرعه بأنفسنا، وقد يبدو الطريق بعيدًا الآن لكن سيأتي وقت يتعين علينِا فيه فعل كُل شيء بأنفسنا، وسيأتي وقت أيضًا تتآكل فيه جميع الجرارات أو تصدأ، ولا نجد المزيد من الوقود لتشغيلها، عندها سنعود إلى الطبيعة ونبارك الخيول إذا تبقى لدينا منها، هذه وقفة، مجرد وقفة مُرسلة من السماء بينما نتغلب على الصدمة الأولى ونبدأ في تجميع شتات أنفسنا، لكنها ليست أكثر من لحظة توقف، في وقتٍ لاحق سنضطر إلى الحرث؛ ولا يزال علينا فيما بعد أن نتعلم كيف نصنع سكاكين المحاريث؛ وبعد ذلك سيتعين علينا تعلم كيفية صهر الحديد لعمل السكاكين، ما نحن عليه الآن هو طريق سيعيدنا إلى الوراء كثيرًا حتى نستهلك كل ما قد يبلى، ولن نتمكن حينها من إيقاف أنفسنا عن السير في الطريق المؤدي إلى الوحشية، ولكن بمجرد أن نتمكن من القيام بتلك المهام، فربما يُمكننا البدء في الزحف ببطء مرة أخرى لنعود إلى بشريتنا.

نظر في عيونا ليرى ما إذا كنا قادرين على تتبع كلماته، وأردف:

- يمكننا أن نفعل ذلك إذا أردنا، أهم شيء هو المعرفة، هذا هو الطريق المُختصر لإنقاذنا من البدء من حيث فعل أسلافنا، كل شيء موجود في الكتب، فقط علينا مواجهة عناء اكتشافه.

نظر الباقون إلى كوكر بفضول، هذه أول مرة يسمعون فيها صوته أثناء مزاجه الخطابي:

- والآن، من قراءتي للتاريخ، ما يجب أن تستخدمه للمعرفة هو وقت الفراغ، حيث يتعين على الجميع العمل بجد للحصول على لقمة العيش ومن ثم يتبقى وقت فراغ للتفكير، والمعرفة تركد وبالتالي يخمل الأشخاص، التفكير مهمة الأشخاص غير المُنتجين بشكلٍ مُباشر؛ الأشخاص الذين يبدو أنهم يعيشون بالكامل بسبب عمل الآخرين، لكنهم في الواقع استثمار طويل الأجل، ظهر التعلم في المدن وفي المؤسسات الكبيرة، لكن عمل الريف هو الذي دعمهم، وبالمثل، يجب أن نصبح أقوياء بما يكفي لدعم القائد، والمعلم، والطبيب.

فقال ستيفن:

- يعني؟

- كُنت أفكر في المكان الذي رأيته أنا وبيل في تينشام، أخبرناكم عن ذلك، المرأة المسؤولة هناك أرادت المساعدة، وأرادت ذلك بشدة، ولديها حوالي خمسين أو ستين شخصًا تحت يديها، وعشرات منهم أو نحو ذلك مُبصرون، وهي لا تعرف كيف تُدير الأمر، لا تستطيع ولكنها لن تعترف لنا بذلك، لن تُغرق نفسها في الديون لتُطالبنا بالبقاء، لكنها ستكون سعيدة للغاية إذا أردنا العودة إلى هناك بعد كل شيء وطلبنا الانضمام.

قُلت بانفعال:

- يا إلهي، ألا تعتقد أنها وضعتنا عمدًا في مسارٍ خطأ؟

- لا أعلم، ربما أنا أظلمها بكلماتي، لكن غريب أننا لم نر أو نسمع ولو إشارة واحدة عن بيدلي، أليس كذلك؟ على أي حال، سواء كانت تعني ذلك أم لا فهذه هي الطريقة التي سنعمل بها، لأنني قررت العودة إلى هناك، إذا كنت تُريد أسبابي فإليك السببان الرئيسيان؛ أولًا، ما لم نُسيطر على ذلك المكان فسينهار، وستكون خسارة وعارًا على كل هؤلاء الأشخاص هناك، والآخر هو أن حقيقة المكان أفضل بكثير مما هي

عليه، لديها مزرعة قائمة بذاتها عمليًا ويُمكن توسعتها إذا لزم الأمر، هذا المكان سيتكلف الكثير من العمالة للبدء والعمل، والأهم من ذلك أنه كبير بما يكفي لتوفير الوقت للتدريس، وتعليم كل من المكفوفين الحاليين هُناك والأطفال المُبصرين الذين سينجبونهم لاحقًا، أعتقد أن هذا مُمكن، وسأبذل قصارى جهدي للقيام بذلك، وإذا لم تستطع الآنسة دورانت تحمل دورها يُمكنها القفز في النهر، والآن، ما أقوله هو أني أعتقد إمكانية القيام بذلك، لكنني أعلم أنه إذا ذهبنا كُلنا فيُمكننا إعادة تنظيم المكان وتشغيله في غضون أسابيع قليلة، ثم نعيش في مجتمع ينمو ويقوم بمحاولة جيدة لعينة يُحافظ بها على نفسه، أما البديل فهو البقاء في زُمرة صغيرة فرصة اضمحلالها ووحدتها الشديدة كبيرة مع مرور الوقت، فما رأيكم؟

حدث بعض الجدل والاستفسار عن التفاصيل، لكن لم يكن هُناك الكثير من الشك، نحن خرجنا للبحث ورأينا لمحة عن الوحدة المُروعة الموعودة، لا أحد منا مُرتبط بالمنزل الحالي، لقد اختاروه لصفاته الدفاعية، وقد شعرنا جميعًا بقمع العُزلة المتزايدة حولنا، وبالتالي أصبحت فكرة المكان الأوسع والأكثر تنوعًا جذابة، في نهاية المُناقشة تحدثنا عن مسألة انتقالنا، وتبنى الجميع اقتراح كوكر ما عدا صديقة ستيفن المُتشككة:

Telegram:@mbooks90

- هذا المكان، تينشام، هل هو بعيدٍ جدًا؟

- لا تقلقي، إنه موجود على أفضل الخرائط الأمريكية.

في وقت ما في الساعات الأولى من صباح اليوم التالي، علمت أنني لن أذهب إلى تينشام معهم، ربما سأفعل لاحقًا لكن ليس الآن..

كان أملي الأول هو مُرافقتهم، ولو لغرض خنق الآنسة دورانت وإرغامها على قول الحقيقة فيما يتعلق بمكان زُمرة بيدلي، لكن عليّ الاعتراف المُزعج بأنني لا أعرف أن جوسيلا معهم، وفي الواقع كل المعلومات التي جمعتها تُشير إلى أنها لم تكن كذلك، وغالبًا لم تمر على تينشام أصلًا، ولكن إذا لم تكُن قد ذهبت للبحث عنهم، فأين ذهبت؟ رُبما هُناك اتجاه ثان من مبنى الجامعة؛ اتجاهٌ فاتني.

وكأن وميضًا من الضوء يُشرق في عقلي، تذكرت المناقشة التي أجريناها في الشقة التي استولينا عليها في لندن، بإمكاني رؤيتها جالسة هناك في فُستانها الأزرق مع ضوء الشموع الذي يُراقص الألماس أثناء حديثنا.

- ماذا عن ساسكس داونز؟ أعرف مزرعة قديمة جميلة على الجانب الشمالي..

ومن ثم عرفت ما يجب عليّ فعله، أخبرت كوكر في الصباح فبدا مُتعاطفًا، لكن كان حريصًا على ألا يرفع سقف آمالي كثيرًا.

- حسنًا، ستفعل ما تعتقد أنه الأفضل، أرجو.. على أي حال، تعرف أين سنكون ويمكنكما أن تأتيا إلى تينشام وتساعدا في تطويق تلك المرأة حتى ترى المنطق.

في الصباح ساء الطقس، تساقط المطر كمِلاءات فضفاضة مُتجاورة بينما أتسلق شاحنتي التي ألِفتُها مرة أخرى، أشعر بالبهجة والأمل؛ لو أمطَرت عشرة أضعاف ذلك فلن تُثنيني، خرج كوكر لتوديعي، وقف بجانب الكابينة والماء يسيل على رقبته، وقال:

- على رسلك يا بيل، لا توجد أي سيارات إسعاف هذه الأيام، وأفضل أن تصل سليمًا كقطعة واحدة، حظًا سعيد واعتذر للسيدة عن كل شيء عندما تجدها.

قال (عندما)، لكن نبرته تعني (إذا)، تمنيت لهم التوفيق في تينشام، ثم تحركت ليتناثر الوحل يمينًا ويسارًا.

رحلة الأمل

في الصباح حدثت مشاكل طفيفة، في البداية وجدت مياه في الكاربراتير، ثم سافرت مسافة اثني عشر ميلًا شمالًا ظنًا مني أني ذاهبٌ إلى الشرق، وقبل أن أقوم بتصحيح هذا الخطأ وجدت مشكلة مع نظام الإشعال والشاحنة فوق طريق مُرتفع قاتم ومُنعزل وعلى بُعد عدة أميال من أي مكان، أدت هذه التأخيرات أو ردود الفعل الطبيعية إلى إفساد الأمل الذي دخل قلبي، حللت المُشكلة مع اقتراب الساعة الواحدة ظُهرًا، خرجت الشمس فانتعش وأشرق كل شيء، ورغم ذلك، ورغم حقيقة سير كل شيء بسلاسة خلال العشرين ميلًا التالية، لم يتغير مزاج الاكتئاب الذي يُنشب مخالبه فيّ مرة أخرى، أنا الآن حقًا بمفردي، لا يُمكنني التخلص من الشعور بالوحدة، لقد أصابني الأمر عندما انفصلنا للبحث عن مايكل بيدلي، ومن يومها وحتى ذلك الحين وأنا أُفكر في الشعور بالوحدة باعتبارها أمرٌ سلبي.

يومها علمت أنَ الأمر أكبر من ذلك، هذا شعور يضغط على النفس ويقمعها، ويشوه العادي ويتلاعب بالعقل، هُناك شيء بالجوار يتربص بي، يضغط على أعصابي ويُضخم إنذارات مشاعري، ولا ينسى المرء أبدًا أنه لا يوجد أحد يُساعده أو يهتم به، يظهر المرء كذرة طافية في فراغٍ شاسع، وينتظر طوال الوقت فرصته للتخويف المُروع، وهذا ما تحاول الوحدة فعله؛ وما يجب على المرء ألا يسمح لها بفعله أبدًا..

حرمان المخلوقات من الرفقة هو تشويه له وإهانة لطبيعته، يُدرك السجين والراهب أن القطيع البشري موجود خارج منفاهم، لكن عندما يختفي القطيع؛ لا يُعد هُناك كيان بالنسبة للمخلوق، سيصبح جزءً من لا كل، غريب بلا مكان، إذا لم يقدر على التمسك بعقله، فسيضيع حقًا، ولن ننتشل منه إلا أطراف من جثة.

احتاج الآن إلى مقاومة أكبر بكثير، قوة أملي وحدها في أن أجد رفقة في نهاية رحلتي منعتني من التحول إلى العودة لأجد بعض الراحة من الضغط عند كوكر والآخرين.

المشاهد التي رأيتها لا علاقة لها بما أشعر به، رغم أن بعضها كان فظيعًا، لقد

تلاشى الشرف تمامًا كما تلاشى الشرف الذي يملأ ساحات المعارك العظيمة في التاريخ، كان كفاحي كله صراعًا شخصيًا مع غرائز تصدر ممن هم مثلي؛ فعلّ دفاعي مستمر رغم أن النصر غير مُمكن، علمتُ في طيات قلبي أنني لن أتمكن من إعالة نفسي لفترة طويلة هكذا بمفردي، ولأشغل نفسي أكثر قدت السيارة بأسرع مما ينبغي لي، وفي بلدة صغيرة نسيت اسمها دُرت حول زاوية فوجدت نفسي أصطدم مُباشرة بشاحنة أغلقت الشارع بأكمله، لحُسن الحظ لم تتعرض شاحنتي القوية لأكثر من بعض الخدوش، لكنهما ارتبطا معًا ببراعة شيطانية، فكان الفصل بينهما عملًا مُحرجًا شاقًا وفي مكان ضيق، استغرق مني حل المشكلة ساعة كاملة، وتحسنت نفسيتي عن طريق تحويل ذهني إلى الأمور العملية بدلًا من التفكير في ظروفي النفسية.

بعد ذلك حافظت على سرعة ثابتة معقولة، دخلت نيو فورست لإلقاء نظرة خاطفة من خلال الأشجار على طائرة مروحية تُحلق على ارتفاع غير كبير، لكن لسوء الحظ ارتفعت الأشجار هُناك بالقرب من جانب الطريق فأخفتها عني بالكامل، أسرعت بالقيادة لكن بعد وصولي إلى أرض فضاء تحولت المروحية إلى بقعة تُحلق بعيدًا إلى الشمال، ورغم ذلك، منحتني رؤيتها بعض الدعم.

بعد عدة أميال مررت عبر قرية صغيرة يبدو أن التريفيدات قضت على ساكنيها، بدت ساحرة للوهلة الأولى بمزيجٍ من الأكواخ المصنوعة من القش والبلاط الأحمر، والحدائق المُزهرة كأشكال ملونة في كتابٍ مُصور، لكنني لم أنظر عن كثب إلى الحدائق أثناء مروري؛ فالحقيقة أن أشكال التريفيدات الغريبة شاهقة الطول ظهرت بشكلٍ غير متناسق بين الزهور، كدت أبتعد عن المكان عندما خرج شخص قصير من إحدى بوابات الحديقة الأخيرة وركض نحوي وهو يُلوح بذراعيه، توقفت ونظرت حولي بحثًا عن التريفيدات بغريزية، ثم التقطت بندقيتي ونزلت.

كانت طفلة، ترتدي عباءة قطنية زرقاء وطوق شعر بنفس اللون وجوارب بيضاء وصندل، بدت في التاسعة أو العاشرة من عمرها، فتاة صغيرة جميلة، بإمكاني رؤية ذلك رغم تجعيدات شعرها البني الداكن الذي لا تهتم به الآن ووجهها المُلطخ

بالدموع، سحبت كمي وقالت بُسرعة:

- أرجوك، أرجوك تعال وانظر ما حدث لتومي.

وقفت أحدق فيها، تلاشت الوحدة المروعة التي سادت اليوم، خرج عقلي من القضية التي خرجت من أجلها، أردت أن أحملها وأضُمها لتقترب مني، شعرت بالدموع تترقرق خلف عينيّ، مددت يدي إليها فأمسكتها وغُدنا معًا إلى البوابة التي جاءت من خلالها.

- تومي هُناك.

طفل صغير يبلغ من العمر أربع سنوات تقريبًا، يرقد على مشتل صغير من العُشب والزهور، ويبدو واضحًا هو هُناك، قالت:

- ضربه الشيء، أصابته فسقط أرضًا، وأراد أن يضربني عندما حاولت مُساعدته، أمر فظيع!

نظرت إلى الأعلى ورأيت قمة تريفيد ترتفع فوق السياج، فقلت لها:

- ضعي الأربطة على أُذنيكِ، سأُحدث بَعض الضجة.

فعلت ذلك، فأصبت الجزء العلوي من التريفيد، قالت لي:

- أمر فظيع! هل ماتت الآن؟

كنت على وشك أن أؤكد لها موت التريفيد عندما بدأت في ضرب وتحريك العصي الصغيرة على جذعها، تمامًا كما فعل التريفيد الذي قتلته في هني ستييبل، وكما فعلت وقتها، ضربته مرة ثانية.

- نعم، إنه ميت الآن.

مشينا إلى الصبي الصغير، الشق القرمزي المُميز للسعة واضح على خده الشاحب، يبدو أن هذا حدث قبل بضع ساعات، ركعت الفتاة إلى جواره، نظرت إليه مُطولًا فلم أعرف ما أقوله لها، ثم نظرت إليّ بدموعٍ جديدة في عينيها وقالت:

- هل مات تومي أيضًا؟

جلستُ بجانبها وهززت رأسي قائلًا:

- أخشى أنه كذلك.

بعد دقيقة تمتمت:

- المسكين تومي! هل سندفنه.. مثل الجراء؟

في خضم تلك الكارثة الهائلة، هذا هو القبر الوحيد الذي حفرته بيدي، وكان صغيرًا جدًا، جمعت باقة صغيرة من الزهور ووضعتها فوقه، ثم انطلقنا بعيدًا.

كان اسمها سوزان، منذُ زمنٍ بعيد- كما بدا لها- حدث شيء لأبيها ووالدتها فلم يتمكنوا من الرؤية، خرج والدها ليحاول الحصول على المُساعدة ولم يعُد، خرجت والدتها في وقت لاحق، وأمرت الأطفال بصرامة ألا يُغادروا المنزل، ثم عادت وهي تبكي، وفي اليوم التالي خرجت مرة أخرى ولم تعُد هذه المرة، أكل الطفلين ما وجدوه، ثم شعرا بالجوع تدريجيًا، وفي النهاية أصبحت سوزان جائعة بدرجة كافية تعصي بها التعليمات وخرجت لتطلُب المساعدة من السيدة والتون في المتجر، كان المتجر مفتوحًا لكن السيدة والتون لم تكن موجودة، ولم يأتِ أحد عندما نادت عليهم سوزان، لذلك قررت أن تأخذ بعض الكعك والبسكويت والحلوى وتخبر السيدة والتون بذلك لاحقًا.

رأت بعض تلك الأشياء عند عودتها، ضربها أحدهم لكنه أخطأ في تقدير طولها ومرت اللسعة فوق رأسها، أخافها ذلك فركضت بقية الطريق إلى المنزل، وبعد ذلك أصبحت حريصة جدًا لوجود الأشياء، وفي رحلات أخرى علمت تومي أن يكون حريصًا وهو يخرج معها، لكن تومي كان صغيرًا جدًا فلم يرَ الشيء الذي اختبأ في الحديقة المجاورة عندما خرج ليلعب ذلك الصباح، حاولت سوزان ست مرات أن تصل إليه، ولكن في كل مرة، ومهما كانت حذرة، كانت ترى الجزء العلوي من التريفيد يرتجف ويتقلب قليلًا..

بعد ساعة أو نحو ذلك قررت التوقف لحلول الليل، تركتها في الشاحنة بينما

أفحص كوخًا أو اثنين، حتى وجدت كوخًا مناسبًا، شرعنا في البحث عن وجبة نأكلها معًا، لم أعرف الكثير من الفتيات الصغيرات لكن يبدو أن هذه الفتاة تعرف الكثير، قالت إن نظامًا غذائيًا يتكون بالكامل من البسكويت والكعك والحلويات أثبت أنه أقل إرضاءً لها مما كانت تتوقع، بعد أن قُمت بتنظيفها، وسرحت شعرها بفرشاتها الخاصة وتعليماتٍ منها، بدأت أشعر بالسعادة تجاه النتائج، فمن جانبها استطاعت نسيان كل ما حدث وحولته إلى سعادة لوجود شخص تتحدث معه، أستطيع فهم ذلك، إذ كنت أشعر مثلها تمامًا، لكن بعد فترة وجيزة من رؤيتها نائمة، سمعت صوت البكاء، فعُدتُ إليها.

- لا بأس يا سوزان، كُل شيء على ما يرام، لم يؤذِ المسكين تومي حقًا، كما تعلمين، فهم سريعين جدًا.

جلست على السرير بجانبها وأمسكت يدها، فتوقفت عن البكاء ثم قالت:

- لم يكن الأمر عن تومي فحسب، كان ما حدث بعد تومي، عندما لم يكن هُناك أحد على الإطلاق، كنتُ خائفة جدًا..

- أعلم ذلك، فقد كُنتُ خائفا أيضًا.

نظرت إليّ وسألتني:

- لكنك لست خائفًا الآن؟

-لا، وأنتِ لست كذلك، علينا فقط أن نبقى سويًا لمنع بعضنا البعض من الاستسلام للخوف.

حسنًا.

أعتقد أنها ستكون على ما يُرام، لذلك واصلنا مُناقشة عدة أمور إلى أن نامت.

سألتني سوزان في صباح اليوم التالي:

- إلى أين نحن ذاهبان؟.

- نبحث عن سيدة.

- أين هي؟

- لا أعرف بالضبط.

- متى سنجدُها؟

لم أُجبها فسألت مرة أخرى:

- هل هي جميلة؟

- نعم.

- ممتاز.

حاولت بسببها أن أتجنب المُدن الكبيرة، لكن من المُستحيل تجنب العديد من المعالم السياحية غير السارة في البلاد، بعد فترة تخليت عن التظاهر بأنهم غير موجودين، في حين اهتمت بهم سوزان بنفس اهتمامها بالمشاهد الطبيعية، لم يفزعوها، رغم أنهم حيروها وطرح وجودهم أسئلة عليها.

وبحلول منتصف النهار، تجمعت السحب وبدأت الأمطار مرة أخرى، توقفنا حوالي الساعة الخامسة صباحًا على الطريق بالقرب من بولبره، وكان مطرًا مُتدفقًا غزيرًا.

- إلى أين سنذهب الآن؟

- هذه هي المشكلة في الحقيقة، المفروض أن نذهب إلى مكانٍ ما هناك.

ولوحت بذراعي في اتجاه الضباب إلى الجنوب، أحاول جاهدًا أن أتذكر ما قالته جوسيلا عن المكان، لكنني لم أستطع تذكر أكثر من أن المنزل يقع على الجانب الشمالي من التلال، ولدي انطباع بأنه يواجه الريف المُنخفض والمُستنقعات التي تفصلهم عن بولبره، وبدت لي تعليمات جوسيلا غامضة إلى حد ما، لأن داونز امتدت لأميال شرقًا وغربًا.

- ربما علينا معرفة هل يوجد دخان في أي مكان حولنا.

- من الصعب للغاية رؤية أي شيء تحت المطر.

قالتها سوزان بعملية، وهي مُحقة تمامًا، بعد نصف ساعة توقف المطر لفترة وجيزة، فغادرنا الشاحنة وأسندنا ظهرنا إلى حائط قريب، وجلسنا مُتجاورين، درسنا المنحدرات السفلية للتلال بعناية لبعض الوقت، لكن لم تستطع عينيّ سوزان الحادة ولا نظارتي الميدانية اكتشاف أي أثر للدخان أو علامات نشاط، ثم بدأت تمطر مرة أخرى، فقالت سوزان: أنا جائعة.

الطعام مسألة تافهة بالنسبة لي، أحاول التغلب على قلقي من معرفة ما إذا كان تخميني صحيحًا، بينما سوزان تأكل ولا تشغل بالها بشيء، صعدتُ بالشاحنة إلى أعلى التل خلفنا للحصول على رؤية أكثر شمولًا، وبين زخات المطر والضوء الواهن مسحنا التلال المُقابلة مرة أخرى دون نتيجة، ليس هُناك حياة أو حركة في الوادي بأكمله باستثناء عدد قليل من الماشية والأغنام والتريفيدات المُترنحة عبر الحقول أدناه.

خطرت لي فكرة، فقررت النزول إلى القرية، ترددت في اصطحاب سوزان لأنني أعرف أن المكان سيكون مزعجًا، لكنني لم أستطع تركها، وعندما وصلنا إلى هناك وجدت أن المشاهد تؤثر عليها بأقل مما تؤثر عليّ؛ فلدى الأطفال تقاليد مُختلفة عن الخوف إلى أن يتعلموا ما يجب أن يصدمهم، فكان الاكتئاب كله ملكي، وجدت من سوزان اهتمامًا أكبر، لا اشمئزاز، وأي كآبة يتم تعويضها بفرحها لارتدائها سترة ماكنتوش (37) المصنوعة من الحرير القرمزي، والتي جهزت نفسها بها على الرغم من كونها كبيرة جدًا، بحثي بدوره كان مُجزيًا، عُدت إلى الشاحنة حاملًا مُصباح كشاف صغير وجدناه في سيارة رولز رويس لامعة المظهر، ومع عودتي عرفت أن لا شيء سأفعله سوى انتظار الظلام وتمني أن يتوقف المطر.

عندما حل الظلام لم يتبقَ من المطر سوى بعض القطرات المتناثرة، فتحت النافذة وأخرجت شعاعًا يخترق الليل، أدرت المصباح ببطء من جانب إلى آخر، ثم اطفأت المصباح لبضع ثوانٍ في نهاية كل عملية مسح بينما أبحث عن أي وميض يرد عليّ ما أبعثه لهم، ولكن الليل ظل قاتمًا في كل مرة، ثم هطل المطر بغزارة مرة أخرى،

فأغلقت النافذة وجلست انتظر، واستمعت إلى القطرات وهي تقرع سطح الكابينة بينما تقلبت سوزان لتنام مُستندة على ذراعي، مرت ساعة قبل أن يتضاءل صوت قرع الطبول إلى صوت طقطقات، ثم يتوقف.

استيقظت سوزان عندما بدأت استخدم ضوء المصباح مرة أخرى، فصاحت فجأة:

- بيل! انظر، هناك ضوء!

أشارت إلى أقصى يسارنا، فأطفأت المصباح واتبعت ببصري خط إصبعها، من الصعب التأكد مما قالت، ربما تخدعها عينيها، وتخدعني عيناي! هناك شيء خافت بعيد مثل فراشة متوهجة، وأثناء تطلعنا إليها، هطل المطر علينا مرة أخرى في زخاتٍ كبيرة، ثم اختفى المشهد تمامًا، فترددت في التحرك، واستقر أمري على الانتظار والتحلي بأكبر قدر ممكن من الصبر، مرت ساعة أخرى تقريبًا قبل أن يتوقف تساقط المطر، فرأيت الضوء يتراقص، هنا أطفأت المصباح، وبكت سوزان وهي متحمسة:

- إنه ضوء بالفعل، انظر!

كان ضوءً مُشرقًا بما يكفي لإبعاد أي شكوك، رغم أن النظارات المقربة لم تُظهر أي تفاصيل، أعدت تشغيل المصباح مرة أخرى، وأعطيت علامة حرف V بشفرة مورس- وهو الرمز الوحيد الذي أعرفه باستثناء ال (38) SOS- لذا كان عليهم أن يردوا، أخذت أشاهد الضوء الآخر يومض وبدأت سلسلة من النبضات الطويلة والقصيرة والبطيئة والمُهرولة والتي لا تعني شيئًا بالنسبة لي، كان ردي هو زوجين إضافيين من حرف الـ V، ثم شغلت مصابيح القيادة.

سألتني سوزان: هل هي السيدة؟

- يجب أن تكون، لابد أن تكون.

كانت رحلة قيادة سيئة، هناك مستنقعات منخفضة أمامنا فكان من الضروري السير قليلًا إلى الغرب ثم الالتفاف والعودة شرقًا بطول سفح التلال، وقبل أن

نقطع أول ميل وجدت شيئًا ما يحجب الضوء عنا تمامًا، فزادت صعوبة العثور على طريقنا في الممرات المظلمة، بدأ المطر مرة أخرى وبجدية، ومع انعدام وجود من يهتم بممرات الصرف الصحي، غمرت المياه بالفعل بعض الحقول وأغرقت الطرقات، وقدت السيارة بحذر شديد.

بمجرد وصولنا إلى الجانب الأبعد من الوادي، اختفت مياه الفيضان، ربما لأننا صعدنا تلًا ما، وحققنا سرعة أفضل قليلًا، كان عليّ منح القيادة كل انتباهي بينما تحدق سوزان في التلال المجاورة لنا، وترتقب عودة ظهور الضوء، وصلنا إلى النقطة التي تقاطع فيها الخط الموجود على خريطتي مع ما بدا أنه طريقنا الحالي، لكني لم أر شيئًا، استغرق الأمر حوالي نصف ساعة للعودة إلى الطريق مرة أخرى، ثم التقطت سوزان بصيصًا بين الأغصان على يميننا، فكان الانعطاف التالي أكثر حظًا، أعادنا إلى منحدر أعلى جانب التل فتمكنا من رؤية مربع صغير مُضاء من نافذته بعد قرابة نصف ميل أو أكثر.

وحتى ذلك الحين، ومع وجود الخريطة للمساعدة، لم يكن العثور على المسار الذي يؤدي إليها سهلًا، لم يُصمم الممر للشاحنات الثقيلة. وفي الأجزاء الضيقة، كان علينا أن ندفع الشاحنة رغمًا عنها بين الشجيرات والأغصان التي تتخبط بنا بطول الجوانب، وكأنها تحاول سحبنا إلى الوراء.

وأخيرًا وجدنا فانوس يلوح من أمامنا، تقدمت تتأرجح بنا الشاحنة لتظهر لنا البوابة، قدت سيارتي في ساحة أو اثنتين، ثم توقفت.

بمجرد نزولي وجدت ضوء مصباحٍ يدويٍ قويٍ مُفاجئ يضرب عينيّ، لمحت الشخص خلفه يرتدي معطفًا واقيًا من المطر، يلمع بسبب الرطوبة.

- مرحبا بيل، مر وقت طويل.

فقفزت للأسفل.

- أوه، بيل. لا أستطيع.. أوه، يا حبيبي، كم كنت أرجو كثيرًا..

نسيت كل شيء عن سوزان حتى جاء صوتها من أعلى.

- ستبتلان أيها السخيفان، لماذا لا تُقبلها في الداخل؟

شيرننج

ما أحسست به بعد الوصول إلى مزرعة شيرننج هو أن معظم مشاكلي قد انتهت، تنقلت جوسيلا بين ذراعيّ، فكانت النتيجة الحتمية هي أن أحملها وأنطلق بها فورًا، وقد حدث كل هذا بصورة جيدة، أما الانضمام إلى الآخرين في تينشام فلم يكُن بنفس الجودة لعدة أسباب.

منذ أن خطر لي موقع جوسيلا المُحتمل أعترف أني تصورتها في هيئة بطلة سينمائية؛ تُقاتل بشجاعة ضد قوى الطبيعة وما إلى ذلك، وبطريقة ما أفترض أنها فعلت كذلك، لكن الاستعداد للقاءها كان أكثر صعوبة مما تخيلت، فخطتي البسيطة تتضمن دعوتهم للانضمام إليّ والتحرك إلى تينشام حيث كوكر وزُمرته الصغيرة، توجب عليّ توقع أن الأمور لن تسير بهذه البساطة، عدد مرات تنكر الأمر الأفضل في ثياب الأسوأ مُذهلٌ.

لا يعني ذلك أنني لم أفضّل شيرننج على تينشام، لكن الانضمام إلى مجموعة أكبر كان خطوة أكثر منطقية، ورغم ذلك فإن شيرننج كانت ساحرة، كلمة (مزرعة) هذه مجرد مُجاملة للمكان، كانت مزرعة منذ زمن إلى حوالي خمسة وعشرين عامًا سابقة، ولا تزال تبدو كمزرعة لكنها في الواقع تحولت إلى منزل ريفي؛ ساسكس والمقاطعات المجاورة مزدحمة بالبيوت التي وجد فيها سُكان لندن المُتعبون القابلية للتكيف مع احتياجاتهم، أما داخليًا فتم تحديث المباني وإعادة بنائها لدرجة لن يتعرف بها المُستأجرون السابقون على غرفة واحدة سابقة، وفي الخارج أصبح الوضع في غاية النظافة والتنظيم، للساحات والأكواخ مظهر حضري أكثر من كونه منطقة ريفية، ولم تعرف أي شكل من أشكال الحياة الحيوانية منذ سنوات أكثر من بعض الخيول والمِهار، ولا تنبعث منها روائح ريفية، ترى من الحقول عيون نوافذ المنازل تُحدق فينا من تحت بلاطٍ أحمر بهت لونه بسبب الطقس واستهلاك قاطنيها الريفيين السابقين لها، لكن الحظائر والأكواخ ظلوا في حالة جيدة، وبفضل وجود بئرٍ خاص وكذلك محطة طاقة خاصة، يسهل ترشيح المكان للمعيشة بسهولة، لكن عندما تمعنت في النظر فيه فهمت حكمة كوكر في الحديث عن الجهود التعاونية، فأنا لا

أعرف شيئًا عن الزراعة لكنني شعرت أنه إذا كنا نعتزم البقاء هنا فسوف يتطلب الأمر الكثير من العمل لإطعام ستة أشخاص.

عندما وصلت جوسيلا كان الثلاثة الآخرون هُناك بالفعل؛ دينيس وماري برِنت وجويس تايلور، دينيس هو صاحب المنزل، وجويس في زيارة امتدت لأجلٍ غير مُسمى، في البداية لمُرافقة ماري ثم للاهتمام بالمنزل عندما يُولد طفل ماري المتوقع.

كان هناك ضيفان آخران في ليلة الومضات الخضراء، أو المُذنب إذا كنت لا تزال تؤمن بوجوده؛ تيد وجوان دانتون، يقضيان عُطلة لمُدة أسبوع هناك، خرج الخمسة إلى الحديقة لمُشاهدة العرض، وفي الصباح استيقظ الخمسة في عالمٍ أصبح مُظلمًا على الدوام، في البداية استخدموا التليفون ليكتشفوا عدم جدواه، فانتظروا على أمل وصول المساعدة اليومية، وهو ما لم يحدث بالطبع، فتطوع تيد للخروج ومحاولة معرفة ما حدث، كانت دينيس ستُرافقه لولا حالة زوجته شبه الهستيرية، لذلك انطلق تيد بُمفرده، ولم يعُد، وفي وقتٍ مُتأخر من اليوم، انزلقت جوان من بين أيديهم ودون أن تقول كلمة واحدة في محاولة للعثور على زوجها على الأرجح، فاختفت تمامًا بدورها.

تتبع دينيس الوقت بلمس عقارب الساعة، وبحلولِ ما بعد الظهر أصبح الجلوس دون القيام بأي شيء مُستحيلًا، أراد أن ينزل إلى القرية، لكن السيدتان اعترضتا على ذلك بشدة، فاستسلم بسبب حالة ماري، أما جويس فقد عزمت على المحاولة، ذهبت نحو الباب وتحسست طريقها بعصا ممدودة أمامها، كادت تتجاوز عتبة الباب عندما سقط شيء بصوت هسيس على يدها اليسرى، فأحرقها كسلكٍ مُلتهب، قفزت إلى الوراء وانهارت تبكي في القاعة، وجدها دينيس ولحُسن الحظ كانت واعية وقادرة على إصدار أنينٍ مُتألم، تحسس دينيس أثر الحرق المتورم وخمّن سببه، وبرغم إصابتهما بالعمى؛ ابتكر هو وماري تطبيق كماداتٍ ساخنة، سخنت ماري الغلاية بينما ربط دينيس قدم جويس بعصابة وبذل قصارى جهده لامتصاص السم، بعد ذلك حملوها إلى الفراش، فمكثت فيه لعدة أيام حتى تلاشى تأثير السم.

في هذه الأثناء أجرى دينيس بعض الاختبارات، في مُقدمة المنزل أولًا ثم في الجزء الخلفي من المنزل، كان يفتح الباب قليلًا ويُخرج بحذر رأس مُكنسة، وفي كل مرة يسمع صوت صفارة شيء يلدغ أو يلسع، ويشعر بمقبض المكنسة يرتجف في قبضته، حدث نفس الشيء مع إحدى نوافذ الحديقة، لكن ليس مع باقي النوافذ، أراد أن يُحاول المُغادرة باستخدام أحدهم لولا رفض ماري لأنها مُتأكدة من وجود تريفيدات أخرى طالما يوجد تريفيد قريب من المنزل، فلم تسمح له بالمُخاطرة.

كان لديهم طعام يكفيهم لبعض الوقت لحُسن الحظ رغم صعوبة تحضيره، ورغم ارتفاع درجة حرارة جويس، إلا أنها بدت مُتماسكة ضد سم التريفيدات، لذلك كان الموقف أقل إلحاحًا، كرس دينيس معظم الأيام التالية لصُنع خوذة لنفسه باستخدام شبكة سلكية كبيرة، وكان عليه أن يصنعها بعدة طبقات مُتشابكة ومربوطة ببعضها البعض، وتمكن كذلك من تجهيز زوج من القفازات الثقيلة، وتمكن بالفعل من الخروج إلى القرية في وقتٍ مُتأخر من اليوم، ضربه تريفيد قبل أن يبتعد ثلاث خطوات عن المنزل، فأخذ يتحسس طريقه بغرضِ لمسه حتى وجده، ولوى ساقه بغرض قطعه، وبعد دقيقة أو دقيقتين لسعه التريفيد مرة ثانية ونفذت اللاسعة عبر خوذته، لم يستطع صرع التريفيد إلا بعد نصف دستة من الجروح.

تحسس طريقه إلى ورشة الأدوات، ومن هناك وعبر الممر عاد مُثقلًا بثلاث كرات كبيرة من خيوط البستنة، وأخذ يربطها في أثناء سيره لمُرشده إلى طريق العودة.

تعرض جلده للسعات عديدة، واستغرق الأمر وقتًا طويلًا كي يقطع ميلًا واحدًا نحو القرية، وقبل أن يصل إليها نفد مخزونه من الخيوط، وقد سار وتعثر على طول الطريق في صمتٍ كامل مُخيف، فكان يقف من وقتٍ لآخر وينادي بعلو صوته، ولا يرُد أحد، خشي أكثر من مرة أنه قد ضل طريقه، لكن عندما اكتشفت قدميه طريق مُعبد عرف أين هو تقريبًا وتمكن من تأكيد ذلك بتحديد إشارة للموقع، ثم استكمل تحسس الطريق، وبعد مسافة طويلة أدرك أن صوت خطواته يبدو مُختلفًا وتُحدث صدىً خافتًا، وعلى جانبه أحس بممرٍ للمشاة، ثم جدار، وبعدها تعثر في صندوق بريد موضوع وسطه، فتأكد أنه في القرية أخيرًا.

نادى مرة أخرى، فرد عليه صوتٌ أنثوي من مسافة بعيدة، ولم يستطع تمييز الكلمات، نادى ثانية وبدأ يتحرك نحوها، فقاطع صراخها الرد، وبعد ذلك ساد الصمت مرة أخرى، عندها فقط أدرك بمرارة أن حال القرية ليس أفضل من حال منزله، فجلس على حافة الطريق المُعشوشب ليُفكر فيما يجب أن يفعله.

برودة الجو أنبأته أن الليل حل، يبدو أنه خرج لأربع ساعات وليس أمامه ما يفعله سوى العودة، لكن لماذا يعود خالي الوفاض؟ شق بعصاه الطريق على طول الجدار إلى أن طرق أحد الإعلانات المعدنية التي تُزين متجر القرية، لسعت التريفيدات خوذته ثلاث مرات خلال الخمسين أو الستين ياردة الأخيرة، وضربته مرة أخرى وهو يفتح بوابة المتجر، فخطا بقدميه على جثة راقدة على الطريق، كانت جثة رجل، وكانت باردة، فكر بأن هُناك آخرين تواجدوا في المتجر قبله، وجد قطعة كبيرة من لحم الخنزير المقدد، فوضعها مع عبوات الزبدة أو السمن والبسكويت والسكر في كيس وأضاف مجموعة متنوعة من العلب الموجودة على رف الطعام حسبما يتذكر، أما عُلب السردين فلا يُمكن الخطأ في معرفتها باللمس، ثم بحث عن كُرات الخيط حتى عثر على دستة أو أكثر منها، ثم انطلق إلى المنزل.

أخطأ الطريق في البداية، تماسك وكتم الذعر بداخله بينما يتتبع خطواته ويُعيد توجيه نفسه إلى أن عاد مرة أخرى إلى المسار الصحيح، وبالمُلامسة تمكن من تحديد موقع خيوط رحلته الخارجية وربطها بالخيط الجديد، ومن هنا أصبحت بقية رحلة العودة سهلة نسبيًا.

زار متجر القرية مرتين أُخريتين في الأسبوع التالي، وفي كل مرة يزداد عدد التريفيدات حول المنزل وفي الطريق، ولا يفعلون سوى الانتظار، وهُنا وكمثل المعجزة، وصلت جوسيلا.

اتضح لجوسيلا على الفور أن فكرة الانتقال الفوري إلى تينشام غير مُجدية لسبب واحد؛ لأن جويس تايلور في حالة ضعف شديد، عندما نظرت إليها فوجئت بأنها على قيد الحياة، أنقذت سرعة دينيس حياتها، لكن عدم قدرتهم على إعطائها الإسعافات المُناسبة أو الطعام المناسب خلال الأسبوع التالي أدى إلى تباطُؤ تعافيها،

من الحماقة مُحاولة نقلها لمسافة طويلة في شاحنة إلا بعد أسبوعٍ أو أسبوعين، وبالتالي بدا لي أن الحل الحالي الوحيد هو أن نبقى جميعًا في مكاننا حتى تمر هذه الأزمات.

ومرة أخرى عادت مهماتي إلى البحث عن الطعام، وهذه المرة عليّ أن أعمل على نطاق أكثر تفصيلًا؛ فُهناك الطعام، والغاز لنظام الإضاءة، والدجاج الذي يبيض، والأبقار التي أنجبت حديثًا ولا تزال على قيد الحياة رغم بروز ضلوعها، والمُستلزمات الطبية لماري، وقائمة مُدهشة مُتنوعة، المنطقة مليئة بالتريفيدات أكثر من أي منطقة أخرى رأيتها حتى الآن، ففي كل صباحٍ تقريبًا، أكتشف واحد أو اثنين جديدين كامنين بالقرب من المنزل، فأُطلق النار على قممهم مؤقتًا إلى أن أقوم ببناء سياج يُبعِدهم عن الحديقة، وإلى ذلك الحين سيأتون ويتسكعون عندنا، فتحت بعض صناديق العتاد وعلمت سوزان كيفية استخدام بندقية التريفيد، وسرعان ما أصبحت خبيرة في انتزاع أسلحة الأشياء كما أحبت أن تواصل تسميتهم، فأصبحت مسؤولة قسم الانتقام اليومي منهم.

عرفت من جوسيلا ما حدث لها بعد إنذار الحريق في مبنى الجامعة؛ انتقلت مع فريقها مثلما حدث معي، لكن أسلوبها في التعامل مع المرأتين اللتين ارتبطتا بهم كان مُوجزًا جدًا، إذ أنها أصدرت إنذارًا نهائيًا: إما أن يحرروها من كل القيود، وفي هذه الحالة ستُساعدهم بكل قوتها، أو يستمرون في إكراهها على العمل معهم، حينها يُحتمل أن يأتي وقت يجدون أنفسهم يشربون فيه الحمض البروسي أو يأكلون سيانيد البوتاسيوم، ويمكنهم اتخاذ الخيار المناسب لهم، فاختاروا بعقلانية، وعندما انتهت مجموعتها بمثل ما حدث للباقين أخذت تُفكر كثيرًا كما فعلت، فأخذت سيارة وذهبت إلى هامستيد للبحث عني، ولم تصادف أي ناجين من مجموعتي، ولم تُصادف كذلك الرجل أحمر الشعر، بقيت هُناك حتى غروب الشمس تقريبًا ثم قررت التوجه إلى مبنى الجامعة، لم تعرف ما قد تتوقع رؤيته، أوقفت السيارة بحذر بعد شارعين واقتربت سيرًا على الأقدام، وعند البوابات سمعت صوت رصاصة، فتساءلت عما يحدث وهي تختبئ في الحديقة التي آوتنا من قبل، فلاحظت كوكر يتقدم بحذر، ولم تعرف بالطبع أنني من أطلقت النار على التريفيد في الساحة، وأن صوت

الطلقة هو ما أنبأ كوكر بوجودي، لكنها اشتبهت بوجود فخٍ من نوعٍ ما، فعزمت ألا تقع في مثل ما حدث لها، وعادت إلى السيارة وانطلقت بها، لم يكن لديها أدنى فكرة عن المكان الذي ذهب إليه الباقون، أو إذا كانوا قد رحلوا أصلًا، الملاذ الوحيد الذي يُمكن أن تفكر فيه هو المكان الذي ذكرته لي بشكلٍ عرضي، لذا قررت التوجه إليه على أمل أن أتذكره إذا كنت على قيد الحياة، وبالتالي أحاول العثور عليه، قالت:

- نمت في المقاعد الخلفية للسيارة بمُجرد خروجي من لندن، كان الوقت مُبكرًا جدًا عندما وصلت إلى هنا صباح اليوم التالي، صوت السيارة دفع دينيس للخروج من نافذة الطابق العلوي ليُحذرني من التريفيدات، ثم رأيت نصف دستة منهم أو أكثر بالقرب من المنزل وكأن لديهم وقت العالم كله وهم ينتظرون خروج أي شخص من البيت، تعالت أصواتي أنا ودينيس فتحركت التريفيدات نحوي، لذا عُدت إلى السيارة طلبًا للأمان، وعندما استمر في القدوم صدمته بالسيارة، لكن هذا واحد ولا يزال هُناك الآخرون، وليس معي أي نوع من الأسلحة سوى السكين، دينيس حل هذه المعضلة، قال لي: إذا كان لديك علبة جاز زيادة، ألقيها في طريقهم ثم اتبعي ذلك بكومة قماش مُشتعل، أظن هذا سينجح. ففعلت.

ومنذ ذلك الحين وهي تستخدم نفس الحيلة، أسمتها حُقنة الحديقة، ومن العجيب أنها لم تُشعل النار في المكان.

بمُساعدة كتاب طبخ استطاعت جوسيلا إنتاج وجبات من نوع ما، وشرعت في تهيئة المكان للعيش، التعلم والارتجال جعلاها مشغولة للغاية عن القلق بشأن المستقبل الذي سيأتي بعد الأسابيع القليلة القادمة، لم ترَ أي شخص آخر خلال تلك الأيام، لكنها تيقنت من وجود آخرين في مكان ما، كانت تمسح الوادي بأكمله بحثًا عن علامات الدخان في النهار أو الأضواء في الليل، فلم ترَ دُخانًا، ولا وميض ضوء في المساء.

بطريقة ما، كان دينيس هو أسوأ المتضررين من الثلاثي الأصلي، جويس لا تزال ضعيفة، وماري عزلت نفسها واحتل عقلها التأمل والخوف من الأمومة المستقبلية، لكن دينيس كان مثل حيوانٍ واقعٍ في فخ، لم يسُب ويرغي بالطرق العبثية التي

سمعت الكثيرين يفعلونها؛ لكنه استاء من تواجد جوسيلا وخروجها بمرارة شريرة، وكأنها أجبرته على الدخول في قفصٍ لا ينوي البقاء فيه، وبالفعل طلب بإلحاح من جوسيلا أن تعثر على نظام برايل في الموسوعة وعمل نسخة بدائية من الأبجدية ليتعلمها قبل وصولي، وقضى ساعات مُرهقة كل يوم في تدوين الملاحظات ومُحاولة قراءتها مرة أخرى، كان يشعر بالقلق من عدم الجدوى في معظم الأوقات، رغم أنه نادرًا ما ذكر ذلك، واستمر في مُحاولة القيام بهذا أو ذاك بإصرارٍ مؤلم، أذهلني كم الأشياء التي يُعلّمها لنفسه رغم مشقة فعل ذلك، رغم أن الأمر الأكثر إثارة للإعجاب بالنسبة لي هو صنعه لخوذة شبكية فعالة في الدفاع ضد التريفيدات في ثاني يوم فقط من إصابته بالعمى.

أخرجته مما هو فيه بمُرافقتي أثناء البحث عن الطعام، وقد أسعده كونه مُفيدًا إذ يُساعدني في تحريك الصناديق الثقيلة، وكان حريصًا على جمع الكتب المطبوعة بطريقة برايل.

مضت الأيام بسرعة، وخاصة بالنسبة لنا نحن الثلاثة القادرين على الرؤية؛ جوسيلا مشغولة في المنزل وسوزان تتعلم مُساعدتها، هُناك الكثير من المهام في انتظار أن أقوم بها، تعافت جويس بشكلٍ كافٍ لتمشي وهي ترتجف لأول مرة، ثم بدأت في التعافي بسرعة أكبر، وبعد فترة وجيزة بدأت آلام ماري.

كانت ليلة سيئة لنا جميعًا، وربما تكون الأسوأ بالنسبة إلى دينيس لمعرفته أن كل شيء يعتمد على مجهودات ورعاية فتاتين راغبتين ومُبصرتين لكن ليس لديهما خبرة، أثار ضبطه الذاتي لنفسي إعجابي، في الساعات الأولى من الصباح نزلت جوسيلا إلينا وبدت مُتعبة للغاية وهي تقول:

- إنها فتاة، كلاهما بخير.

وقادت دينيس لأعلى ثم عادت بعد لحظات وأخذت كأس الشراب الذي أعددته لها، قالت:

- كان الأمر بسيطًا جدًا، شكرًا لله، خشيت ماري المسكينة بشدة أن تكون كفيفة،

لكنها بالطبع ليست كذلك، والآن هي تبكي بشكلٍ مُخيف لأنها لا تستطيع رؤيته.

- هذا غريب؛ الطريقة التي تسير بها الأمور، أعني.. مثل بذرة، تبدو كأنها ذبلت وانتهت وتظن أنها ماتت، لكنها ليست كذلك، بل تبدأ حياة جديدة، تأتي لتعيش وسط كل هذا..

وضعت جوسيلا وجهها بين يديها وقالت:

- يا إلهي! هل يجب أن يستمر هذا؟

وانهارت باكية بدورها.

بعد ثلاثة أسابيع ذهبت إلى تينشام لرؤية كوكر والاتفاق على الترتيبات اللازمة لانتقالنا، أخذت سيارة عادية سريعة، وعندما عدت قابلتني جوسيلا في القاعة، سألتني:

- ما الأمر؟

- لن نذهب إلى هناك بعد كل شيء، تينشام انتهت.

- ماذا حدث؟

- لست واثقًا، يبدو أن الطاعون وصل إلى هناك.

وصفت الوضع بإيجاز، كانت البوابات مفتوحة عندما وصلت، وفوجئت بالتريفيدات في مُنتصف الحديقة، ثم أكدت الرائحة ما شككت في حدوثه عندما نزلت من السيارة، توجهت نحو المنزل، ويبدو أنهم هجروه منذ أيام، دخلت غرفتين وكانوا كافيين بالنسبة لي، ناديت بعلو صوتي: هل من أحدٍ هُنا؟ فركض صوتي عبر أجواء المنزل ولم يُرد أحد، ولم أذهب أبعد من ذلك، رأيت مُلاحظة مشوهة مُثبتة على الباب الأمامي لكني لم أفهم منها شيئًا، لم أجد شاحنات في الساحة الخلفية، وكذلك معظم المخازن كانت فارغة، لم أجد ما يُمكنني القيام به سوى ركوب سيارتي مرة أخرى والعودة.

- وماذا ترى؟

- أرى أن نبقى هُنا يا عزيزتي، ونتعلم كيف ندعم ونواصل دعم أنفسنا، إلى أن تأتي المُساعدة، قد تكون هُناك منظمة في مكان ما..

فهزت جوسيلا رأسها وقالت:

- من الأفضل أن ننسى كل شيء عن المُساعدة، ملايين الناس ينتظرون ويأملون في الحصول على مساعدة لم تأتِ بعد.

- سيظهر شيءٌ ما، لا بد أن هُناك آلاف المجموعات الصغيرة مثلنا مُنتشرة في جميع أنحاء أوروبا وفي جميع أنحاء العالم، وسنجتمع معًا ونبدأ في إعادة البناء.

- في كم سنة؟ أجيال؟ ربما ليس إلا بعد انتهاء زمننا، لا، لقد ذهب العالم، وبقينا، يجب أن نصنع حياتنا بأنفسنا، يجب أن تُخطط وكأن المساعدة لن تأتي أبدًا..

ثم توقفت مؤقتًا، رأيت نظرة فارغة غريبة على وجهها لم أرها من قبل، وتجعد وجهها، فقلت:

- حبيبتي، هوني على نفسك.

-أوه بيل، هذا النوع من الحياة لم يُخلق لي، إذا لم تكن هنا كُنت ل..

صمتًا يا حلوتي، صمتًا.

ومسدت على شعرها، وبعد لحظات استعادت نفسها.

- آسف يا بيل، هي شفقة على النفس.. أمر مُقزز، لن أفعل هذا مُطلقًا مرة أخري.

ومسحت الدمع عن عينيها بمنديلها.

- سأكون زوجة مزارع، أحب أن أتزوج منك يا بيل حتى لو لم يكن النوع الملائم من الزواج.

وضحكت فجأة كما لم أسمعها تفعل منذ فترة.

- ماذا هُناك؟

- أفكر فقط كم كنت أخاف من حفل زفافي، حسنًا، تخيل الناشرين والصحف، والمجتمع الفني، ما هي المتعة التي سيحصلون عليها من حفل زفافي؟ ربما هُناك طبعة جديدة من كتابي السخيف، أو ربما إصدار لفيلم جديد، وصور لنا في جميع الصحف، لا أعتقد أنك ستحب هذا.

- يُمكنني التفكير في شيء آخر لم أُحبه كثيرًا، هل تتذكرين تلك الليلة في ضوء القمر التي وضعتي لي فيها شرطًا لم أوافق عليه؟

نظرت إليّ وقالت مبتسمة:

- حسنًا، ربما لم تسر كل الأمور بشكلٍ سيء في النهاية.

العالم يضيق

منذ ذلك الحين وأنا أحتفظ بسجلِ مُذكرات؛ مزيج من اليوميات وقوائم المخزون والكتب العادية، وفيه ملاحظات عن الأماكن التي ذهبت إليها في بعثاتي، وتفاصيل عن الإمدادات التي جمعناها، وتقديرات للكميات المُتاحة، وملاحظات حول حالة المباني، مع ملاحظات جانبية عن أهم الأشياء الواجب التخلص منها، أهم ما نبحث عنه باستمرار هو المواد الغذائية والوقود والبذور، هُناك كذلك مداخل لصفحات توضح بالتفصيل مخزن الملابس، والأدوات، وأدوات المطبخ، والأوتاد والأسلاك، والأسلاك، والمزيد من الأسلاك، وكذلك الخُطافات.

في خلال أسبوع من عودتي من تينشام بدأت العمل على إقامة سياج سلكي لإبعاد التريفيدات، توجد بالفعل حواجز لإبعادهم عن الحديقة والحي المجاور للمنزل، وبدأت خطة أكثر طموحًا لجعل حوالي مائة فدان أو نحو ذلك خالية منها، تشتمل على سياج سلكي قوي يستفيد من المزايا الطبيعية والحواجز الدائمة، وبداخله سياج أخف لمنع المخزون أو أنفسنا من الدخول عن غير قصد داخل مجال لسعاتهم، كان عملًا شاقًا استغرق مني عدة أشهر لإكماله.

حاولت في نفس الوقت تعلُم أبجديات الزراعة، إذ تعلمها ليس سهلًا من الكتب وحدها لسبب واحد؛ لم يخطر ببال أي كاتب حول هذا الموضوع أن هُناك مُزارع مُحتمل سيبدأ من الصفر المطلق، مع الأخذ في الاعتبار أن أساسيات المُفردات والمُصطلحات ليست عندي، معرفتي البيولوجية المُتخصصة غير مجدية في مواجهة المشكلات العملية، والمعرفة النظرية تدعو لاستخدام موادٍ إما لم تكن متاحة لي أو لن أستطيع التعرف عليها إذا رأيتها، وبدأت أرى الأشياء التي ستكون قريبًا غير مُفيدة مثل الأسمدة الكيماوية والأعلاف المُستوردة، وجميع أنواع الآلات باستثناء البسيطة منها، كما أن المعرفة المُثبتة في الكتب حول إدارة الخيول، أو أعمال الألبان، أو إجراءات المسالخ لا تُمثل أساسًا مُناسبًا لمُمارسة هذه الفنون.

يوجد مُتسع من الوقت لارتكاب الأخطاء والتعلم منها لحسن الحظ، معرفة أن عدة سنوات يُمكن أن تمر قبل أن تنفذ مواردنا الخاصة أنقذتنا من اليأس بسبب خيبات

الأمل، واطمئننا لفكرة العيش في المتاجر المحفوظة، فإننا نحرص حقًا على منع المُنتجات من التلف دون داعي.

ولدواعي السلامة، تركت عامًا كاملًا يمر قبل ذهابي إلى لندن مرة أخرى، العاصمة كانت الأكثر غزارة في غزواتي من حيث الأرباح، وكانت الأكثر إحباطًا كذلك، لا يزال المكان قادرًا على منح الانطباع بأن لمسة من عصا سحرية ستجعله يستيقظ مرة أخرى، رغم أن العديد من المركبات في الشوارع بدأت تصدأ، وهو أول ما تراه حين تدخل المدينة، مرور العام جعل التغيير يبدو ملحوظًا بشكل أكبر، قطع كبيرة من الجبس انفصلت عن واجهات المنازل وتناثرت على الأرصفة، تتعلق الفطريات والعشبيات الضارة بالمزاريب وتخنق المصارف، وسدت أوراق الأشجار مواسير الصرف، ونمت حشائش وشجيرات صغيرة في الشقوق ووسط الطمي على مزاريب الأسقف، بدأت كل المباني تقريبًا في ارتداء شعر مستعار أخضر تتعفن أسطحه تحته بسبب الرطوبة، وعبر النوافذ، ترى لمحات من الأسقف المُتساقطة ومُنحنيات ورق الحائط المُقشر والجدران المُتلألئة بالرطوبة، الحدائق وتتسلل المُتنزهات البرية وتطغى على الشوارع المجاورة، بدت تلك الأشياء النامية وكأنها تضغط على كل مكان، تتجذر في كسور بين حجارة الرصف، وتنبثق من شقوق في الخرسانة، وتجد مساكنًا في مقاعد السيارات المهجورة، يتجهون لاستعادة المساحات القاحلة التي هجرها وصنعها الإنسان من جميع الجوانب، والغريب أنه مع تزايد تولي الكائنات الحية زمام الأمور أصبح تأثير المكان أقل قمعًا للنفس، نظرًا لأنه تجاوز نطاق أي عصا سحرية، فترى كأن مُعظم الأشباح تسير معها، وتنسحب ببطء إلى التاريخ.

وقفت مرة في أحد الأعوام التالية في ميدان بيكاديللي مرة أخرى، أنظر حولي إلى الخراب وأحاول إعادة خلق الحشود التي كانت تتجمع هناك ذات يوم في ذهني، لم يعد بإمكاني فعلها، يفتقر البشر إلى الواقعية حتى في ذاكرتي، أصبحوا قطعة قماش خلفية للتاريخ بقدر الجماهير في الكولوسيوم الروماني أو جيش الآشوريين المفقود، الحنين الذي يتسلل إليّ أحيانًا في الأجواء الهادئة حرك الندم بداخلي أكثر من المشهد المُنهار نفسه، عندما أصبحت وحيدًا في المدينة استطعت تذكر مُتعة الحياة السابقة، بين المباني الرخوة والمُتهالكة ببطء، وبدا لي أنني غير قادر على

تذكر شيء سوى الوحل والإحباط والقيادة غير الهادفة والضجيج المُنتشر، وتيقنت أننا خسرنا الكثير.

عدت من رحلتي الأولى إلى هناك ببراغي صغيرة وأوراق وأجزاء مُحرك وكُتب برايل وآلة كتابة رغب دينيس فيها كثيرًا، ومشروبات وحلويات وسجلات والمزيد من الكتب، بعد أسبوع أتت جوسيلا معي بحثًا عن الملابس، ليس فقط للبالغين بل لابن ماري والطفل الذي نتوقعه قريبًا، ولقد أزعجتها الرحلة فأصبحت زيارتها الوحيدة للندن.

في نهاية السنة الرابعة ارتحلت إلى لندن للمرة الأخيرة، إذ وجدت مخاطر كثيرة تُهدد الرحلات، أول تنبيه هو سقوط مدوي حدث خلفي في ضاحية داخلية، أوقفت الشاحنة ونظرت خلفي لأرى الغبار يتصاعد من كومة من الأنقاض على الجانب الآخر من الطريق، أظن أن قيادتي الهادرة منحت واجهة منزل مُترنحة اهتزازتها الأخيرة، لم أهدم المزيد من المباني ذلك اليوم، لكنني قضيته متخوفًا من سيول الطوب وقذائف الهاون، حصرت اهتمامي بعد ذلك في المدن الصغيرة، وعادة ما كنت أتجول فيها سيرًا على الأقدام.

تركت برايتون لفترة من الزمن، رغم أنها ستكون أكبر مصدر مُناسب للإمدادات غالبًا، وعندما قررت أن الوقت مُناسب لزيارتها وجدت آخرين قد استولوا عليها، لا أعرف من هم ولا كم عددُهم، رأيت جدارًا من حجارة خشنة مُكدسة وسط الطريق لتشده ومرسوم عليه إرشاد وحيد:

ابق بعيدا!

دُعم الإرشاد بفرقعة بندقية وتدفق للغبار من أمامي، لم أرَ أحدًا في الأفق يُمكن الجدال معه، فتقهقرت بالشاحنة وابتعدت بشكلٍ مدروس فقط لأكون في جانبٍ آمنٍ.

في نوفمبر من تلك السنة الثانية، وُلد أول طفل لجوسيلا، وأسميناه ديفيد، سعادتي به امتزجت في بعض الأحيان بالشكوك، عن الأمور والأشياء التي أتينا به ليواجهها، لكن هذا لم يُقلق جوسيلا كما كان يُقلقني، جوسيلا عشقته؛ كان تعويضًا

لها عن كل ما فقدته.

اعتدت لسنوات على اتخاذ الاحتياطات اللازمة ضد التريفيدات لدرجة تحولهم إلى جزء من المناظر الطبيعية، فأصبحوا أقل وضوحًا بالنسبة لي مما هم عليه بالنسبة للآخرين، اعتدت كذلك على ارتداء الأقنعة والقُفازات الشبكية أثناء تعاملي معهم، ومُعاملتي لهم هي كالاهتمام بالبعوض في منطقة موبوءة بالملاريا، ذكرتني جوسيلا مرة بوجودهم ونحن مُستلقيين على سريرنا، إذ كان الصوت الوحيد تقريبًا الذي يُمزق الصمت هو صوت قعقعة مُتقطعة بعيدة لعصيهم الصغيرة الصلبة على سيقانهم، وكأني أتذكرهم بعد فترة من الغياب، قالت لي:

- إنهم يفعلون ذلك كثيرًا مؤخرًا.

لم أفهم في البداية ما تتحدث عنه، هو صوت يُمثل خلفية مُعتادة للأماكن التي عشت وعملت فيها لفترة طويلة لدرجة تجعلني لا أستمع إليها ولا أستطيع أن أقول ما إذا كان يحدثَ فعلًا أم لا، أما الآن فقد استمعت بالفعل:

- لا أرى اختلافًا، هو صوتهم السابق المعهود الذي اعتدت عليه.

- الأمر فقط أنه يتكرر كثيرًا.

- لم أُلاحظ، لا تشغلي بالك.

بعد أن شيدت السياج انصب جُل اهتمامي على الأرض بداخله ولم أهتم بما يحدث بالخارج إلا أثناء خروجي في رحلاتي، وكان انطباعي هو أن كثافة تواجد التريفيدات في معظم الأجزاء ثابتة تقريبًا، تذكرت أن أعدادهم قد لفتت انتباهي عندما وصلت لأول مرة، وافترضت وجود العديد من حاضنات التريفيدات الضخمة في المنطقة.

تذكرت ما تحدثنا عنه في الصباح، ونظرت من النافذة أثناء ارتدائي لملابسي، ورأيت أن جوسيلا على حق، عددت أكثر من مائة تريفيد خلف الامتداد البسيط للسياج كما أراه من النافذة، ذكرت ذلك أثناء وجبة الإفطار فبدت سوزان مندهشة وقالت:

- لكنهم يتزايدون طوال الوقت، ألم تلاحظ؟

- هُناك أمور أخرى كثيرة تُقلقني، ولا يهمني ما هو خارج السياج، وطالما أننا نحرص على انتزاع كل البذور التي تظهر بالداخل، يُمكنهم فعل ما يحلو لهم بالخارج.

فقالت جوسيلا بكثير من التوتر:

- هل من سبب مُعين لقدومهم إلى هنا بمثل هذا العدد الضخم في رأيكم؟ أنا متأكدة أنهم يفعلون ذلك، وأريد أن أعرف سبب ذلك.

فقالت سوزان وقد انزعجت تفاصيل وجهها فجأة وأشارت إلى بيل:

- هو سبب ذلك.

فاندفعت جوسيلا قائلة:

- ماذا تقصدين؟ أنا مُتأكدة أن بيل لم يُحضرهم.

- لكنه فعل، هو من يُصدر كل الأصوات، وقد أتوا للتو.

- انتظري يا سوزان، ما الذي تتحدثين عنه؟ هل تفترضين أن أُصفر لهم أثناء نومي أو شيء من هذا القبيل؟

فردت عليّ وهي غاضبة:

- حسنًا، إذا كُنتِ لا تُصدقني فسأُريك بعد الإفطار.

ثم انسحبت في صمتٍ واستياء، وعندما انتهينا قُمت وسحبت البندقية والنظارة المُقربة، ثم خرجنا إلى الحديقة، بحثت سوزان حتى وجدت أحد التريفيدات يتمشى خارج أسوارنا، طلبت مني أن أُتابعه بالنظارة المُقربة، تابعته وهو يترنح ببطء عبر الحقل، كان على بُعدِ ميلٍ تقريبًا ويتجه شرقًا، قالت لي:

- هات البندقية، واستمر في مُتابعته.

فعلت، في حين ضربت سوزان طلقة في الهواء، وبعد بضعة ثوانٍ، غير الترافيد

مساره بشكل ملحوظ نحو الجنوب.

- أترى؟

- حسنًا، يبدو أن الضوضاء تُثيرهم، لكن هل أنتِ مُتأكدة؟ حاولي مرة أخرى.

فهزت رأسها وقالت:

- لن نستفيد شيئًا، كُل التريفيدات التي سمعت الطلقة ستأتي الآن، وفي غضون عشر دقائق تقريبًا سيتوقفون ويستمعون، وإذا كانوا قريبين بما يكفي لسماع أصوات قعقعة زُملائهم، فسوف يأتون، أو إذا كانوا بعيدين جدًا، فسيُحدث ضوضاء أخرى وعندئذ سيأتون، لكن إذا لم يتمكنوا من سماع أي شيء على الإطلاق، فسوف ينتظرون قليلًا ثم يذهبون إلى أي مكان كانوا بالفعل سيذهبون إليه.

أعترف أنني صُدمت بهذا التفسير.

- حسنًا، لقد فوجئت، لا بد أنكِ تُراقبينهُم عن كثب يا سوزان.

- أنا أُراقبهم على الدوام، لأني أكرههم.

قالتها بطريقة توحي أن تفسيرها هذا كافٍ بالنسبة لها، وانضم إلينا دينيس في وقفتنا وقال:

- وأنا معك يا سوزان، لا أُحبهم، تلك الأشياء اللعينة تفوقت علينا، و تُخبئ لنا أكثر مما نعتقد، لقد انطلقوا واجتاحوا أراضينا في اللحظة التي عرفوا فيها أن ليس هُناك من يمنعهم، وكانوا هُنا حول هذا المنزل بالتحديد في اليوم التالي، ألا يُحسب لهم هذا؟ وكيف عرفوا بضُعفنا أصلًا؟

- هذا ليس جديدًا بالنسبة لهم، في البلاد الاستوائية والغابات اعتادوا التسكع بالقرب من الطُرق، وكثيرًا ما حاصروا القرى الصغيرة وغزوها إذا لم يمنعهم أحد، التريفيدات نوع خطير من الآفات.

- لكن هذا لم يحدث هنا في البداية، لم يتمكنوا من فعل ذلك هنا حتى تهيأت لهم الظروف، ولم يحاولوا أصلًا إلا في حالات فردية حسب ما حكيت لنا، ولكن عندما

استطاعوا هجموا في الحال كما لو أنهم يعرفون أنهم قادرون على ذلك.

- أعقل الكلام يا دينيس، وفكر فحسب في ما تعنيه.

- أنا مُدركٌ تمامًا لما أعنيه، أو بعضٌ منه على أي حال، وأنا لا أضع نظرية هنا ولكني أقول إنهم استفادوا من عيوبنا بُسرعة ملحوظة، أقول أيضًا أن هُناك شيئًا حسيًا يتواصلون فيما بينهم عن طريقها، مثلما يفعلون أو يتحدثون مع بعضهم الآن، لقد انغمست في مهماتك لدرجة لم تُلاحظ فيها كيف يتجمعون وينتظرون هناك خارج السياج، وماذا تعتقد أنهم ينتظرون؟

لم أحاول الإجابة على ذلك، سألتهما:

- هل تعتقد أن الاستغناء عن استخدام البندقية التي تجذبهم أفضل، وأعود إلى استخدام البنادق المُضادة للتريفيدات بدلًا من ذلك؟

أجابتني سوزان:

- الفكرة في الضوضاء بشكلٍ عام، الجرار هو الأسوأ لأنه يصدر أعلى قدر من الضوضاء ويظل مُستمرًا في العمل إلى أن يعثروا بسهولة عليه، يمكنهم سماع صوت محرك محطة الإضاءة من بعيد جدًا أيضًا، رأيتهم يُغيرون تحركاتهم بنفس الطريقة عندما يبدأ ضجيجه.

قلتُ مُنفعلًا:

- لا يُمكنك الاستمرار في قول إنهم يسمعون كما لو كانوا مجموعة من الحيوانات، إنهم لا يسمعون لأنهم مجرد نباتات.

- إنهم يسمعون، بطريقة ما.

- حسنًا، سنتصرف بشأنهم على كل حال.

أول مصيدة كانت إصلاح طاحونة هواء تُصدر ضوضاء شديدة على بعد حوالي نصف ميل، فجذبتهم بالفعل بعيدًا عن سياجنا، وعندما تجمع عدة مئات منهم حول المصيدة، توجهنا أنا وسوزان إلى هناك وقذفناهم باللهب، نجح الأمر مرتين، لكن لم

يهتم سوى عدد قليل منهم بعد ذلك، خطوتنا التالية هي بناء خليج بداخل السياج؛ أزلنا جزءً من السياج الرئيسي واستبدلناه ببوابة، اخترنا نقطة يكون فيها مُوتور الإضاءة على مرمى البصر وتركنا البوابة مفتوحة، وبعد يومين أسقطنا البوابة ودمرنا المئات التي تجمعت حول مصدر الضوضاء، نجحت الفكرة إلى حد ما في البداية، لكنها لا تنجح في المرة الثانية أو الثالثة في نفس المكان أبدًا، وفي أماكن وفخاخ أخرى انخفضت الأرقام التي سجلناها باطراد.

ستؤدي جولة عبر الحدود كل بضعة أيام واستخدام قاذفات اللهب إلى إبقاء الأرقام منخفضة بشكل فعال، لكن هذا سيستغرق الكثير من الوقت، كما أن الوقود نفد لدينا بسرعة لأن استهلاك قاذف اللهب له مُرتفع، والمخزون الموجود في مستودعات الأسلحة ليس كبيرًا، وبالتالي يقترب تحول قاذفات اللهب القيمة لدينا إلى ما هو أفضل قليلًا من الخردة، لأني لا أعرف نوع وقودها ولا طريقة إنتاجه.

جربنا قذائف الهاون في مناسبتين أو ثلاث مرات وكانت النتائج مُخيبة للآمال، تتشارك التريفيدات مع الأشجار القدرة على تلقي الكثير من الأضرار دون أن تموت.

وبمرور الوقت استمرت أعداد التريفيدات التي تتجمع بطول السياج تتزايد برغم الفخاخ والمحارق، لم يفعلوا أي شيء، فقط استقروا هُناك ببساطة، ومدوا جذورهم في التُربة، وبقوا هُناك غير نشطين ولكنهم لم يتوقفوا عن الثرثرة كما يتيقن بعضنا، ولم يكُن مظهرهم رائعًا بالطبع، لكن إذا شككنا للحظة في استيقاظهم، نضطر لركوب السيارة وتحمل لسعاتهم الوحشية ثم نتوقف على الطريق الرئيسي لنمسح الزجاج الأمامي من السموم.

فكرنا في رش الأرض خلف السياج بمحلول زرنيخي قوي، لكننا تراجعنا لأسباب مؤقتة، حاولنا تجربة مجموعة متنوعة من المراوغات لعامٍ أو أكثر، قبل اليوم الذي ركضت فيه سوزان إلى غرفتنا في وقتٍ مُبكرٍ من صباح أحد الأيام لتُخبرنا أن الأشياء اقتحمت السياج وطوقت المنزل.

استيقظت سوزان مُبكرًا لحلب الأبقار كعادتها، فوجدت السماء خارج نافذة غرفة نومها رمادية اللون، ثم نزلت إلى الطابق السفلي فوجدت كل شيءٍ غارق في ظلام

دامس، لم تفهم ما قد يُسبب ذلك ونحن في الصباح دون شك، فأضاءت الأنوار وفي التو رأت أوراق الشجر الخضراء الخشنة تضغط على النوافذ، وخمنت ما حدث.

عبرت غرفة النوم على أطراف أصابعي وأغلقت النافذة بحدة، فارتطمت لاسعة من الأسفل بالزجاج، رأيت غابة من التريفيدات تقف مُقابل جدار المِنزل، والمشكلة الأكبر هي وجود قاذفات اللهب في أحد المباني الخارجية، ارتديت الملابس والقُفازات السميكة والخوذة الجلدية والنظارات الواقية أسفل القناع الشبكي، واخترقت طريقًا وجدته عبر حشد التريفيدات باستخدام أكبر سكين طويل النصل عثرت عليه، اللسعات تجلد وتضرب الشبكة السلكية بشكل متكرر لدرجة بدأ بها السُم يظهر كرذاذ ناعم على نظاراتي، لذا كان أول شيء فعلته في المبنى الخارجي هو غسلها، حاولت اتخاذ الحيطة قدر استطاعتي لأوسع لنفسي طريقًا أعود منه وخوفًا من إشعال النار في إطارات الأبواب والنوافذ، لكن تحركات التريفيدات أثارت غضبي بما يكفي لأحرقهم دون انزِعاج.

وقفت جوسيلا وسوزان جنبًا إلى جنب مع طفايات الحريق بينما أقف في هيئة تتقاطع مع هيئات الغواصين ورواد المريخ الأسطوريين، انحني من النوافذ العلوية وأقذف هؤلاء الغوغاء المُحاصرين لنا المتوحشين، لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا لإحراق عددٍ منهم وهروب الباقي، فأخذت سوزان- التي ارتدت ملابس الوظيفة الآن- القاذفة الثانية وبدأت مهمة مُطاردتهم بينما ذهبت للعثور على مصدر المشكلة، ولم يكُن ذلك صعبًا، رأيت الثغرة في السياج التي تتوافد التريفيدات منها لتتمايل في تيارٍ من السيقان والأوراق الملوّحِة، وكان من السهل إبعادهم، منفث قاذف لهب في المقدمة أوقفهم، وقاذفين أعادوهم إلى طريقهم، وبعد عشرين ياردة أو نحو ذلك رأيت السياج مُستلقيًا على الأرض والأعمدة مُنتزعة انتزاعًا، ثبتُهم مؤقتًا ثم مارست عليهم دور الزُماة ذهابًا وإيابًا فأحرقتهم بما يكفي لمنع المزيد من متاعبهم لبضع ساعات.

قضيت أنا وجوسيلا وسوزان معظم اليوم في إصلاح موضع الاختراق، ومر يومان آخران قبل أن أتأكد أنا وسوزان من فحصنا لكُل أجزاء السياج وحصرنا آخر

المتسللين، وأتبعنا ذلك بتفتيش كامل طول السياج وتعزيز لكل موضع مشكوك فيه، ورغم ذلك، وبعد أربعة أشهر، اقتحموا المنزل مرة أخرى.

هذه المرة وجدنا عددًا من التريفيدات المكسورة كامنة في الفجوة، فكان أول انطباعاتنا أنهم شحقوا بسبب الضغط الذي تراكم على السياج قبل أن يسقط، وأنهم سقطوا معه فدهسهم الأخرين.

اتضح وجوب اتخاذ إجراءات دفاعية جديدة ومُختلفة، إذ لا نعرف طريقة لتقوية السياج بأقوى مما هو عليه، ففكرنا في الكهربة كوسيلة مُحتملة لإبقائهم بعيدًا، ولتحقيق ذلك وجدت مولدًا مُثبتًا على مقطورة تابعة للجيش، فقطرته إلى المنزل، وعملت أنا وسوزان على تهيئة الأسلاك، وقبل أن ننتهي من عملنا اقتحم المتوحشون السياج مرة أخرى ومن مكان آخر.

أعتقد أن نظام الكهربة سيكون فعّالًا للغاية إذا استطعنا إبقائه قيد العمل طوال الوقت، أو مُعظم الأوقات، لكن هذا ضد استراتيجيتنا لاستهلاك الوقود القيم والنادر، فالطعام سلعة يُمكننا دائمًا أن نأمل في زرعه ونموه، لكن عندما لا يتوفر البنزين والديزل ستختفي معه أمور أكثر بكثير من راحتنا، فلن أقوم بالمزيد من الرحلات الاستكشافية، وبالتالي لن تتجدد الإمدادات، وستبدأ الحياة البدائية بكل جدية، ولذلك ولدوافع الحفاظ على المؤن الاستراتيجية، كنا نشحن سلك الحاجز لبضع دقائق فقط مرتين أو ثلاثة في اليوم، ونجح ذلك في ارتداد التريفيدات لبضعة ياردات وبالتالي منعهم من زيادة الضغط على السياج، وكحارس إضافي شغلنا سلك إنذار على السياج الداخلي لتمكيننا من التعامل مع أي فواصل قبل أن تتفاقم خطورة الأمر.

تكمُن نقطة ضعف الاستراتيجية الجديدة في قدرة التريفيدات الواضحة على التعلم ولو بصورة محدودة وعن طريق التجربة، فوجدنا- على سبيل المثال- أنهم يبتعدون عن السلك في الوقت الذي اعتدنا فيه على تشغيل المُحرك، ثم يعودون للاقتراب مرة أخرى بعد فترة وجيزة من توقفه، يستحيل تحديد ما إذا كانوا يربطون حالة السلك المشحون بالكهرباء بصوت المحرك، لكن في وقت لاحق لم يعُد لدينا

أدنى شك في أنهم يفهمون ذلك.

من السهل جعل أوقات تشغيلنا للمُحرك عشوائية، لكن سوزان- ولأنهم مصدر للدراسة العدائية المُستمرة بالنسبة لها- سرعان ما بدأت تُأكد أن الفترة التي تبتعد فيها التريفيدات بسبب الكهربة تزداد قصرًا كل مرة، لكن الحقيقة هي إن الأسلاك المُكهربة والهجمات الدورية عليهم في المواضع ذات الكثافة العالية منهم منعت توغلاتهم لأكثر من عام، حدثت اختراقات بسيطة لاحقًا لكن استطعنا منعها بمجرد تفعيل الإنذار، فلا نُعدها أكثر مِن مُجرد مصادر إزعاج بسيطة.

واصلنا تعلم الزراعة وسط أمان مُجتمعنا، واستقرت الحياة تدريجيًا إلى أو وصلت لمستوى روتيني يومي، وفي يوم من أيام الصيف من سنتنا السادسة، نزلنا أنا وجوسيلا إلى الساحل معًا، سافرنا إلى هُناك في عربة نصف مُجنزرة اعتدت استخدامها بعد أن أصبحت الطُرقات أكثر سوءً، اعتبرناه يوم عُطلة، مرت شهور منذ أخر مرة خرجت فيها، شغلها الاهتمام بالمكان والأطفال الصغار، ووصلنا الآن إلى مرحلة يُمكِن فيها ترك سوزان كمسؤولة عنهم في بعض الأحيان، شعرنا وكأننا خرجنا من سجنٍ ونحن نتسلق قمم التلال، وعلى منحدرٍ جنوبي سفلي أوقفنا السيارة لبعض الوقت، وجلسنا هناك.

كان يومًا مثاليًا في شهر يونيو؛ سُحُب خفيفة قليلة تتناثر في سماء زرقاء صافية، والسماء تُشرق على الشاطئ والبحر من وراءه بنفس السطوع الذي كانت عليه في أيام الازدحام بالسباحين والقوارب الصغيرة، استطلعنا المشهد في صمت لبضعِ دقائق، ثم قالت جوسيلا:

- ألا زلت تشعُر أحيانًا أنه إذا أغلقت عينيك لبعض الوقت، فقد تفتحهما وتجد كل شيء قد عاد كمانكان يا بيل؟.. أنا أشعر بذلك.

- ليس كثيرًا الآن.

- انظر إلى النوارس، كما كانوا بالضبط.

- هُناك الكثير من الطيور هذا العام، أنا سعيد بهذا.

تبدو البلدة الصغيرة القريبة كخليطٍ من المنازل الصغيرة ذات الأسطح الحمراء والأكواخ التي يسكنها أفراد الطبقة المتوسطة من المُتقاعدين غالبًا، لكنه انطباع لا يستمر إلا لبضع دقائق، فالجدران تكاد تختفي عن الأنظار، ويطغا لونٌ أخضر غير مُنضبط على الحدائق التي كانت زاهية ومُرتبة، حتى الطرق بدت كشرائط من السجاد الأخضر، وعندما وصلنا إليهم وجدناها خُضرة حشائش قاسية وخشنة، لا ناعمة كما قد تتوهم من بعيد، قالت جوسيلا وهي تتأمل:

- قبل بضع سنوات صاح الناس وانتحبوا بسبب الطريقة التي تُدمر بها تلك الأكواخ الريف، والآن انظر إليهم!

- الريف ينتقم، حسنًا، بدت الطبيعة وقتها وكأن سطوتها قد انتهت، من ظن أن الرجل المُسِن موفور الصحة هكذا؟

- هذا يُخيفني، هل كُنا نخدع أنفسنا فحسب؟ هل تعتقد أننا انتهينا حقًا يا بيل؟

- إذا لم تكوني أنتِ من تتحدثين يا عزيزي، لأجبتُكِ بالقالب البطولي الصحيح، ذاك النوع من التفكير المُحاط بالأمل، والذي يتحول إلى الإيمان والعزيمة غالبًا.

- لكن أنا من أسألك الآن!

- سأُعطيكِ إجابة صادقة، طالما توجد الحياة، يوجد الأمل، وضعي في اعتباركِ أن لدينا فرصة صغيرة جدًا وطويلة الأمد للعودة إلى ما كُنا عليه، لولا التريفيدات لكان لدينا فُرصة جيدة جدًا بالفعل، وستظل طويلة الأمد، لكن التريفيدات شيء لم تضطر أي حضارة ناشئة سابقة لقتالهم من قبل، فهل سيأخذون العالم منا أم سنقدر على إيقافهم؟

- المشكلة الحقيقية هي إيجاد طريقة بسيطة للتعامل معهم، وضعنا ضدهم ليس سيئًا للغاية، ففي النهاية نستطيع إبعادهم فعلًا، لكن ماذا عن أحفادنا.. ماذا سيفعلون حيالهم؟ هل سيضطرون إلى قضاء حياتهم كلها في محميات بشرية خالية من التريفيدات وكدحٍ لا ينتهي؟

- أنا متأكد من وجود طريقة بسيطة، المشكلة هي أن الطرق البسيطة غالبًا تحتاج

بحثًا مُعقدًا، وليس لدينا موارد كافية.

- لدينا كل الموارد التي كانت موجودة من قبل.

- الموارد المادية، لكن أين الموارد العقلية والبشرية؟ ما نحتاجه هو فريق مُتخصص من الخبراء الفعليين في التعامل مع التريفيدات، ربما يجدون شيئًا مثل فكرة القاتل الانتقائي، إذا تمكنا مثلًا من إنتاج الهرمونات المناسبة لخلق حالة عدم توازن في التريفيد وحده لا باقي الكائنات، هذا مُمكن إذا كان لديك ما يكفي من القوة العقلية لتحقيقه.

- إذا كنت تعتقد ذلك، فلماذا لا تحاول؟

- لأسباب كثيرة، أولًا أنا لست قادرًا على ذلك، أنا مجرد عالم كيمياء حيوية مُتواضع ولا أعرف غيري تعلم نفس المهنة، واحتاج لمُختبر ومُعدات، أكثر من ذلك، كما أني أحتاج إلى الوقت، وهُناك الكثير من الأشياء التي يجب أن أفعلها، وحتى إذا امتلكت القدرة على انتاج تلك الهرمونات، فلا بد أن نجد وسيلة لإنتاجها اصطناعيًا بكميات ضخمة، وهذا يحتاجُ لمصنع، وقبل كل ذلك نحتاج لفريق الباحثين.

- يُمكنك تدريب الناس.

- نعم، هذا إذا جنبنا عددٍ كافٍ منهم من مُجرد التفكير في مسألة البقاء على قيد الحياة، جمعتُ عددًا كبيرًا من كتب الكيمياء الحيوية على أمل توفر الوقت لأشخاص سيستفيدون منها، وسأُعلم ديفيد كل ما بوسعي، إذ يجب عليه تسليم هذا العلم لأبنائه.

عبست جوسيلا لرؤيتها أربعة تريفيدات تتجول في حقل أسفل منا، ثم قالت:

- إذا كنت طفلة فأعتقد أنني أُريد توضيح سبب ما حدث، وإذا لم يُخبرني أحد، أو إذا نشأت في عالمٍ أراه مُدمرًا دون سبب، فسأجد الحياة بلا فائدة، وهذا يجعل الأمر صعبًا للغاية لأنه يبدو أنه ما حدث بالفعل، هل تعتقد أننا يجب أن نُبرر أو نختلق خرافة ما لمُساعدتهم؟ قصة عن عالمٍ ما كان ذكيًا وشريرًا لدرجة تُحتم تدميره، أو أنه دمر نفسه صُدفة؟ أو شيء مثل حدوث فيضان مرة أخرى؟ هذا لن يسحق

نفسياتهم بالدونية، وقد يُعطيهم الحافز لبناء شيء أفضل.

- سأخذ كلامك في اعتباري، لكني أرى إخبار الأطفال بالحقيقة فكرة جيدة، هذا سيجعل الأمور أسهل بالنسبة لهم لاحقًا، فلماذا نتظاهر بأنها أسطورة؟

اعترضت جوسيلا على ذلك وقالت:

- ماذا تعني؟ التريفيدات نشأت من خطأ شخص ما سواء بقصد أو دون قصد، لكن ماذا عن بقية ما حدث؟

- لا أعتقد أننا نستطيع لوم أي أحد على وجود التريفيدات، فالمُقتطفات التي قدموها في البداية كانت قيّمة للغاية، ولا أحد استطاع أو توقع رؤية الاكتشاف الكبير القادم، هل سيكون نوعًا جديدًا من المُحركات أم هو التريفيدات؟ وقد تعاملنا معهم جيدًا في الظروف العادية واستفدنا منهم كثيرًا، والظروف لم تكون في مصلحتهم وقتها.

- حسنًا، لم يكن خطأنا أن الظروف تغيرت، كانت مجرد واحدة من الأمور الطبيعية، مثل الزلازل أو الأعاصير، وهو ما كانت تُسميه شركات التأمين أفعال الرب، وربما هذا ما كان عليه الأمر؛ حُكم إلهي، فنحن بالتأكيد لم نُحضر هذا المُذنب إلى هُنا.

- أهذا ما تُظنينه يا جوسيلا؟ هل أنتِ مُتأكدة مما تقولين؟

فاستدارت لتنظر إليّ وقالت:

- هل تُحاول إخباري أنك لا تعتقد أنه كان مُذنبًا أصلًا؟

- بالضبط.

- لكن، أنا لا أفهم، ماذا قد يكون؟

فتحت علبة سجائر مُفرغة من الهواء وأشعلت واحدة لكل واحدٍ منا.

- هل تتذكرين ما قاله مايكل بيدلي عن الحبل المشدود الذي نسير عليه جميعًا منذ

سنوات؟

- نعم، لكن.. ماذا تقصد؟

- حسنًا، أعتقد أن ما حدث هو أننا خرجنا منه، وأن قليلين منا تمكنوا من النجاة من حادث سقوط المُذنب.

قربت السيجارة من فمي ونظرت إلى البحر والسماء والزرقة اللانهائية:

- في الأعلى، كان هُناك- وربما لا يزال هُناك- أعداد غير معروفة من أسلحة الأقمار الصناعية، تدور حول الأرض وحول نفسها، مجرد تهديدات خاملة، تتجول في انتظار شخص ما أو شيء ما لتقوم وتُفجره، ماذا كان بداخلهم؟ أنتِ لا تعرفين وأنا لا أعرف، هي أشياء سرية للغاية، وكل ما سمعناه هو تخمينات؛ مواد انشطارية وغُبار مُشع وبكتيريا وفيروسات، افترضي الآن أن نوعًا واحدًا طوروه خصيصًا لإصدار إشعاعات لا تتحملها أعيننا، شيءٌ من شأنه أن يحرق أو على أقل اعتبار يُتلف العصب البصري.

رأيتها وقد شحب وجهها وأُخذت بما أقول:

- أوه لا، لا يا بيل، لا يُمكنهم.. سيكون هذا.. شيطانيًا، أوه، لا أستطيع أن أصدق!

- حلوتي، كل الأشياء هُناك شيطانية، إذا كان هذا مُمكنًا فلا بد أن شخصًا ما سيفعله، ثم افترضي أنه كان خطأ أو حادث، مثل موضوع وابل حِطامُ المُذنبات، إذا كُنتِ ترغبين في ذلك، شخص ما سيبدأ الحديث عن المُذنبات، ولن يُنكر أحد الساسة ذلك، ثم يتضح أن الوقت المُتبقي قليل على أي حال، ومن المفترض أن تعمل هذه الأشياء بالقرب من الأرض بحيث ينتشر تأثيرها على المناطق المُحددة سلفًا، وحين يعملون سيكونون على مسافة بعيدة بحيث يُمكن للناس في جميع أنحاء العالم أن يتلقوا إشعاعات مُباشرة منهم، ما أعرفه هو شيء واحد وأنا مُتأكد منه تمامًا، لقد جلبنا هذا على أنفسنا بطريقةٍ أو أخرى، وهُناك ذاك الطاعون كذلك، وهو لم يكن التيفويد، ليست مُصادفة بالنسبة لي أن يصل مُذنب يؤذي الملايين لأول مرة منذ كل تلك الآلاف من السنين بعد سنواتٍ قليلة فقط من نجاحنا في صُنع أسلحة الأقمار الصناعية، أليس كذلك؟ لا، أعتقد أننا ظللنا سائرين على ذلك الحبل المشدود لفترة

طويلة، لكن عاجلًا أم آجلًا كان على أقدام البشرية أن تنزلق.

- حسنًا، عندما تضع الأمر في هذا القالب، أعتقد أن ذلك أشنع من فكرة أن تصدِمنا الطبيعة دون تمييز، ومع ذلك أظن أن ما قلته يجعلني أشعر بيأس أقل من الأمور، لأنها تجعلها مفهومة على الأقل، إذا كان الأمر كذلك، فهذا على الأقل شيء يُمكن منعه من الحدوث مرة أخرى، مُجرد خطأ آخر من الأخطاء التي سيتعين على أحفادنا تجنُبها، ويا عزيزي، كان هناك الكثير والكثير من الأخطاء! لكن يُمكننا تحذيرهم.

- بمُجرد التغلب على التريفيدات، وإخراج أنفسهم من هذه الفوضى؛ سيكون لدى أولادنا مجالٌ كبير لارتكاب أخطاء جديدة تمامًا.

- أطفال صغار مساكين.

قالتها كما لو أنها تُحدق في صفوف متزايدة من الأحفاد:

ما نُقدمه لهم ليس كثيرًا، أليس كذلك؟

جلسنا هناك لفترة ليست بقليلة ننظر إلى البحر الخالي، ثم انطلقنا إلى المدينة، وبعد بحث نتج عنه مُعظم ما كتبناه في قائمة الرغبات، نزلنا للتنزه على الشاطئ تحت أشعة الشمس، خلف امتداد من الألواح الخشبية كي لا يقترب منا أي تريفيد، قالت جوسيلا:

- يجب أن نفعل هذا كثيرًا كلما استطعنا، سوزان الطفلة كبرت ولست بحاجة إلى تقييد نفسي.

- إذا كان لأي شخص الحق في التخلي عن القيود قليلًا، فهو أنتِ.

قُلت ذلك وأنا أشعر برغبة عارمة في الذهاب معًا وتوديع الأماكن والأشياء التي عرفناها لمرة أخيرة بينما نستطيع فعل ذلك، فمع انتهاء كل يوم يقترب احتمال سجننا، فكي نذهب شمالًا من شيرننج نضطر للالتفاف عدة أميال تتجاوز البلد الذي عاد إلى حالته الأولى؛ الغرق في المُستنقعات، وكل الطرق تتأكل وتزداد سوءً بسرعة بفعل الأمطار والجداول والجذور التي اخترقت الأرض.

- شششش..

قاطعتني جوسيلا ورفعت إصبعها لأعلى ووجهت أذنها وسط الرياح، حبست أنفاسي وتوترت أُذنايّ، هُناك ما أشعر به، ليس صوتًا فحسب، بل خفقان خافت في الهواء، قالت جوسيلا:

- إنها.. إنها طائرة!

نظرنا إلى الغرب وظللنا أعيننا بأيدينا، الطنين أعلى بقليل من أزيز حشرة، ارتفع الصوت ببطء شديد لدرجة لا تصدر إلا من طائرة مروحية.

رأتها جوسيلا قبلي، نقطة خارجة قليلًا عن الساحل ويبدو أنها تسير باتجاهنا وبالتوازي مع الشاطئ، وقفنا وبدأنا نلوح لها، وعندما كبرت النقطة لوحنا بعنف أكثر وصرخنا بعلو صوتينا، لا يُمكن ألا يرانا الطيار في الشاطئ المفتوح لو طار فوقنا، لكن هذا ما لم يفعله، فعلى بُعد أميالٍ قليلة منا استدار فجأة شمالًا وتوغل فيه، واصلنا التلويح بجنون على أمل أن يُلاحظنا، لكن تغيير المسار كان نهائيًا، لقد عمد ودون ارتباك إلى الطيران بعيدًا نحو التلال.

أنزلنا ذراعيّنا ونظرنا إلى بعضنا البعض، ثم قالت جوسيلا بثبات وهي غير مُقتنعة:

- سيأتي مرة أخرى.

رؤية تلك الآلة غيرت يومنا بالكامل، كُنا نقول لأنفسنا إن أي مجموعات أخرى لن تكون في أي وضعٍ أفضل مما نحن عليه، لكن عندما يُمكن لطائرة مروحية أن تُبحر وكأنها مشهد وصوت من الماضي، فإنها تثير أكثر من مجرد ذكريات؛ تُشير إلى أن أشخاصًا ما في مكان ما قدروا على تحقيق أفضل مما فعلنا، هل هُناك مسحة من الغيرة في الأمر؟ أدركنا كذلك أننا كُنا محظوظين، وأننا ما زلنا كائنات اجتماعية بطبعها.

الشعور المُضطرب الذي تركته الآلة خلفها دمر مزاجنا والخطوط التي سارت عليها أفكارنا، وفي اتفاقٍ غير مُعلنٍ بدأنا نحزم أمتعتنا وانشغل كلٌ منا بأفكاره، وشققنا

طريقنا إلى العربة لنبدأ طريق العودة إلى المنزل.

اتصال

في مُنتصف المسافة إلى شيرننج لاحظت جوسيلا الدخان، ظنت للوهلة الأولى أنها سحابة، لكن مع اقترابنا من قمة التل،أمكننا رؤية العمود الرمادي أسفل الطبقة العُليا السمراء الأكثر انتشارًا، أشارت إليه دون أن تنبس ببنت شفة، الحرائق الوحيدة التي رأيناها منذ سنوات قليلة هي التفشي التلقائي لحرائق الغابات في أواخر الصيف، عرفنا على الفور أن عمود الدخان يرتفع من شيرننج، سرت بالعربة نصف المُجنزرة بسرعة أكبر من أي وقتٍ مضى على الطُرق المتدهورة، لكن تلك السرعة بدت كمُجرد زحف من فرط رغبتنا في الوصول بسرعة، جلست جوسيلا صامتة طوال الوقت، زمت شفتاها وثبتت عيناها على الدخان، تبحث عن بعض المؤشرات؛ هل مصدر الدخان قريبٌ أم بعيد؛ في شيرننج نفسها أم قريب منها؟ مع اقترابنا قل مجال الشك، قطعنا المسار الأخير غافلين عن اللسعات التي تُصيب السيارة أثناء مرورها، ثم تمكنا من رؤية أن الدخان لا ينبع من المنزل نفسه، بل كان مخزن الخشب هو الذي اشتعلت فيه النيران.

ومع صوت بوق العربة، خرجت سوزان مُسرعة لسحب الحبل الذي يفتح البوابة من مسافة آمنة، وصرخت بشيءٍ ما غرق في ضوضاء العربة، يدها الحُرة تُشير باتجاه مُقدمة المنزل لا النيران، وبينما نركض لمسافة أبعد في الفناء، استطعنا أن نرى السبب، فقد هبطت المروحية بمهارة في مُنتصف الحديقة الخارجية.

رأينا رجلًا يرتدي سترة جلدية خارجًا من المنزل، كان طويل القامة وأشقر الشعر ومُصاب بحروق الشمس، اجتاحني شعور بأنني رأيته في مكان ما من قبل، لوح لنا بذراعه وابتسم ابتسامة عريضة مرحة، فأسرعنا نحوه.

- أفترض أنك السيد بيل ماسِن، اسمي سيمسون، إيفان سيمسون.

فقالت جوسيلا:

- أتذكرك، أنت من أحضرت المروحية في تلك الليلة إلى مبنى الجامعة.

- هذا صحيح، ذكاء منكِ أن تتذكري، ولكن ذاكرتي قوية كذلك؛ أنتِ جوسيلا

بلايتون، مؤلفة..

- أنت مُخطئ تمامًا، أنا جوسيلا ماسِن، زوجة بيل ماسِن ووالدة ديفيد ماسِن.

قلتُ له:

- انتظر قليلًا، تلك النار..

- نحن بأمان، لأن الرياح تهُب بعيدًا عن المنزل، رغم أنني أخشى أن مُعظم مخزون الخشب قد ذهب.

- ماذا حدث؟

- إنها سوزان، لم تقصد أن تُدمر المكان لكن عندما سمعت مُحرك المروحية أمسكت بقاذفة اللهب وخرجت لتبدأ الإشارة بأسرع ما يمكن، وكان الخشب أسهل وأسرع شيء يلتقط النيران.

دخلنا وانضممنا إلى الآخرين، قال لي سيمسون:

- بالمناسبة، قال لي مايكل أن أبدأ بالاعتذار.

- تعتذر مني؟

- أنت الوحيد الذي رأى الخطر في التريفيدات، وهو لم يُصدقك.

- لكن.. هل تقصد إنك كُنت تعلم أنني هنا؟

- اكتشفنا موقعك المُحتمل قبل بضعة أيام، من زميلٍ لدينا جميعًا أسباب نتذكره بها: كوكر.

- إذن عثرتم على كوكر ذلك، بعد الفوضى التي رأيتها في تينشام خشيت أن الطاعون قد أصابه.

***

في وقتٍ لاحقٍ تناولنا وجبة وشربنا من أفضل زجاجة براندي لدينا، ثم استخرجنا

القصة منه.

عندما رحل مايكل بيدلي وزُمرته تاركين تينشام تحت رحمة ومبادئ الآنسة دورانت، لم يذهبوا لبيمينستر ولا أي مكانٍ قريب منها، لقد ارتحلوا إلى الشمال الشرقي؛ إلى أوكسفوردشاير، لا بد أن توجيه السيدة دورانت الخاطئ لنا كان مُتعمدًا.

وجدوا هناك عقارًا ظنوا في البداية أنه سيُقدم للمجموعة كل ما تحتاجه، ولا شك أنهم كانوا سيستطيعون ترسيخ وتحصين أنفسهم هناك كما تحصنا في شيرننج؛ لكن مع ازدياد خطر التريفيدات اتضحت مساوئ المكان أكثر، وفي غضونِ عامٍ لم يرضَ مايكل والعقيد عن توقعاتهم على المدى الطويل رغم تنفيذ قدر كبير من الأعمال المطلوبة، وبحلول نهاية الصيف التالي اتفقوا أنه من الأفضل تقليل خسائرهم؛ بناء مُجتمع يستلزم التفكير بعداد السنوات، عدد كبير من السنوات، كان عليهم وضع تأخيرهم في اعتبارهم، فكلموا تلكأوا زادت صعوبة أي تحرك، ما كانوا بحاجة إليه هو مكان تسمح لهم مساحته بالتوسع والتطوير؛ منطقة ذات دفاعات طبيعية، والتي بُمجرد أن تتطهر من التريفيدات يُمكن إبقائها خالية منهم، وبسبب وجود نسبة عالية من عمالتهم مشغولة بالحفاظ على الأسوار وصيانتها، ومع زيادة أعداد التريفيدات، تعين عليهم تطويل السياج، ثم وجدوا أن أفضل خط دفاع ذاتي الصيانة هو الماء، إذ لا تعبُر التريفيدات الموانع المائية أبدًا، وتحقيقًا لهذه الغاية تناقشوا حول المزايا النسبية للجُزر المختلفة، فكان المناخ بشكلٍ رئيسي هو الذي جعلهم يصوتون لصالح جزيرة وايت (39) رغم بعض المخاوف بشأن المنطقة التي يجب تطهيرها، وبناءً على ذلك، وفي مارس التالي، حزموا أمتعتهم مرة أخرى ومضوا إلى هُناك، قال إيفان:

- عندما وصلنا إلى هناك، بدت التريفيدات أكثر سمكًا من حيث غادرنا، وما أن استقررنا في منزل ريفي كبير بالقرب من جادشيل (40) حتى بدأوا في التجمع بالآلاف على طول الجدران، سمحنا لهم بالتجمع لأسبوعين أو نحو ذلك، ثم غمرناهم بقاذفات اللهب، وبعد أن قضينا على هذا التجهر سمحنا لهم بالتجمهر مرة أخرى،

فهاجمناهم ثانية، وهكذا، أمكننا تحمل تكاليف القيام بذلك دوريًا لأنه بمجرد أن نتخلص منهم لن نحتاج إلى استخدام القاذفات بعد الآن، ولا يُمكن أن يكون على الجزيرة سوى عددٍ محدودٍ، وكلما جاء المزيد من حولنا كلما أحببنا ذلك، فعلنا ذلك عشرات المرات قبل أن نرَ تأثيرًا ملموسًا، وأصبح لدينا حول الجُدرانِ حزامٌ من جذوع الأشجار المُتفحمة، ثم اكتشفنا الحقيقة؛ هُناك الكثير منهم، أكثر مما توقعنا، هُناك ما لا يقل عن ستة مشاتل حاضنة تُنتج تريفيدات عالية الجودة في الجزيرة، ناهيك عن المشاتل الخاصة والمُتنزهات، وهذا لم يُفاجئني، لرُبما كان هناك مائة حاضنة، وقبل أن يبدأ كل هذا توقعت أن هُناك بضعة آلاف من تلك الأشياء في البلد بأسرها، لكن إذا سألتني الآن فلابد أنهم مئات الآلاف.

قلته له:

- هذا صحيح، سوف ينمون عمليًا في أي مكان، وكانوا مُربحين ماليًا بصورة كبيرة، ولم تكُن هناك مشاكل من تكديسهم في المزارع والمشاتل، لكن انطلاقًا من الأعداد الضخمة هُنا، أظن أن هُناك مساحات كاملة من البلاد خالية منهم الآن.

- هذا صحيح، لكن اذهب وعش هنا، وسيبدأون التجمع حولك ومحاولة ضمك لضحاياهم في غضون أيام قليلة، يُمكنك رؤية ذلك من الجو، عرفت أن هُناك أناس بالأسفل قبل نيران سوزان، لأنه التريفيدات تصنع حدودًا مُظلمة حول أي مكان مأهول، تمكنا رغم ذلك من تخفيف الحشد حول جدراننا، انسحبوا من تلقاء أنفسهم كما لو أنهم وجدوا المكان غير صحي، أو ربما لم يُريدوا التجول على بقايا أقاربهم المُتفحمة، وبالطبع تبقى عددٌ أقل منهم، فبدأنا بالخروج لاصطيادهم بدلًا من السماح لهم بالتجمع عندنا، وأصبحت وظيفتنا الرئيسية لأشهر، غطينا كل شبر من الجزيرة، أو اعتقدنا أننا فعلنا ذلك، إذ ظهر بعضهم العام التالي، وكُل عامٍ كذلك، الآن نقوم ببحثٍ مُكثف كل ربيع بسبب البذور التي تهُب علينا من البر الرئيسي، لنستأصلهم على الفور، في تلك المهمات كان عددنا حوالي خمسين أو ستين فردًا وكُنا مُنظمين للغاية، بعد ذلك بدأت أتجول بالمروحية وكلما رأيت علامات تدل على وجود مجموعة في أي مكان أنزل إليهم وأمنحهم دعوة عامة للانضمام إلينا في جزيرتنا،

البعض فعل ذلك لكن الأغلبية لم تهتم، لقد هربوا من تحكُم السُلطات بهم، وبرغم كل مشاكلهم لم يرغبوا في المزيد منها، هُناك أُناس كثيرين في جنوب ويلز بدأوا أنواعًا من المُجتمعات القبلية واستاءوا من أفكار أي مُجتمع غير الذي أنشأوه لأنفسهم، هُناك الكثيرين بالقرب من حقول الفحم أيضًا، وعادةً ما يكون القادة هم الرجال الذين تصادف وجودهم في نوبة عمل تحت الأرض، بحيث لم يروا النجوم الخضراء أبدًا، بل رأيت من لا يُريدون التدخل في أمورهم لدرجة إطلاق النار على الطائرة، مُنهم أُناس قريبون في برايتون..

- قابلتهم، لقد حذروني أيضًا.

- هُناك أخرون في ميدستون وفي جيلفرد وأماكن أخرى، وهم السبب الحقيقي لعدم رؤيتنا لك من قبل، لم تبدُ المنطقة صحية للغاية عندما يقترب المرء منها، لا أعرف ما الذي يعتقدون أنهم يفعلونه، ربما حصلوا على بعض الطعام الجيد ويخافون أن يُريد الآخرون بعضًا منه، وعلى أي حال، ليس هُناك أي معنى من المخاطرة بشأنهم، هُناك كثيرين انضموا لنا بالطبع، ففي غضون عام ارتفع عددنا إلى ثلاثمائة أو نحو ذلك، ولسنا كُلنا مُبصرين بالطبع، لم أتعرف على كوكر وما لديه من معلومات كثيرة إلا قبل حوالي شهر، ومن أول ما سأل عنه هو إذا كنا وجدناك أم لا، لقد مروا بأوقاتٍ سيئة خاصة في البداية، فبعد أيامٍ قليلة من عودته إلى تينشام أتت امرأتان من لندن وجلبتا الطاعون معهما، وضعهم كوكر في الحجر الصحي عند ظهور أول أعراضهما، لكن بعد فوات الأوان، فقرر القيام بخطوة سريعة لأن الآنسة دورانت لن تتزحزح وقررت البقاء ورعاية المرضى، والمُتابعة لاحقًا إذا استطاعت، لكنها لم تفعل، إذ التقطت العدوى منهم، نجح كوكر ورفاقه في التملص من المكان وذهبوا إلى أقصى الغرب حتى ديفونشاير، وكانوا بخير هُناك لبعض الوقت، وشرعان ما بدأوا يواجهون نفس الصعوبات التي واجهتنا وواجهتك، تمسك كوكر بموقعه هُناك لثلاث سنوات تقريبًا، ثم فكر في الأمر كما فعلنا، لكنه لم يُفكر في جزيرة، بل في بناء حدود نهرية وسياج لقطع إصبع قدم كورنوال(41)، وعندما وصلوا إلى هناك أمضوا الأشهر الأولى في بناء الحاجز، ثم ذهبوا إلى التريفيدات بالداخل وفعلوا بهم مثلما فعلنا في الجزيرة، لكن المهمة كانت صعبة ولم ينجحوا أبدًا في تطهير المنطقة

بالكامل رغم كون السياج ناجحًا إلى حد ما في البداية، وإن لم يتمكنوا من الاعتماد عليه أبدًا كما أمكننا الوثوق بالبحر، وكان واجبًا عليهم إهدار الكثير من قوتهم البشرية في الدوريات، وعندما عثرت عليهم لم يترددوا كثيرًا في القدوم، شرعوا في تحميل قوارب الصيد بالمؤون على الفور، والتحقوا بنا في غضون أسبوعين، وعندما اكتشف كوكر أنك لست معنا اقترح أنك ربما لا تزال في مكان ما في هذه الأجزاء.

قالت جوسيلا:

- يُمكنك إخباره أن هذا يمحو أي مشاعر شريرة بداخلي تجاهه.

فقال إيفان:

- سيكونُ رجُلًا مُفيدًا للغاية.

وأضاف وهو ينظر إليّ:

- ومما يقوله لنا، يُمكنك أن تكون مُفيدًا كذلك، أنت عالم كيمياء حيوية، أليس كذلك؟

- عالم أحياء.

- حسنًا، يُمكنك التمسك بفروقك الدقيقة، النقطة المُهمة هي أن مايكل حاول إجراء بعض الأبحاث حول طريقة التخلص من التريفيدات علميًا، يجب العثور على حل إذا كنا سنصل إلى نقطة مُستقبلية ما، المُشكلة هي أن الأشخاص الوحيدين الذين يتعين عليهم العمل في هذه المهمة هم قلة نست مُعظم علم الأحياء الذي تعلموه في المدرسة، فما رأيك، هل تُحب التحول إلى أستاذ؟ ستكون مهمة تستحق العناء.

- لا أستطيع التفكير في مهمة تكون أكثر قيمة في الوقت الحالي.

فسأله دينيس:

- هل هذا يعني أنك تدعونا جميعًا إلى ملاذ جزيرتك؟

- دعوني أفهمكم الموقف، أظن أن بيل وجوسيلا يتذكران المبادئ العامة التي وضعناها في تلك الليلة في الجامعة، وتلك المبادئ لا تزال قائمة، نحن لا نُعيد البناء، بل نُريد بناء شيء جديد وأفضل، بعض الناس لا يُرحبون بذلك وإذا لم يفعلوا فلن يفيدونا، لسنا مُهتمين بوجود حزب معارض يحاول إدامة الكثير من الميزات القديمة السيئة، نُفضل أن يذهب الأشخاص الذين يريدون ذلك إلى مكان آخر.

علق دينيس:

- في مكانٍ آخر يبدو هذا عرضًا سيئًا للغاية، في ظل هذه الظروف..

- آوه، لا أعني أننا نُلقيهم إلى التريفيدات، هُناك عدد منهم اختاروا أن يذهبوا إلى مكانٍ ما، لذلك ذهب فريق إلى جزر القنال وبدأوا تنظيف المنطقة بنفس طريقتنا لتنظيف جزيرة وايت، هُناك مائة منهم تقريبًا، ويفعلون بأنفسهم كل شيء هُناك.

ثم تنهد وقال:

- نُسميه نظام الموافقة المُتبادلة؛ القادمون الجدد يقضون ستة أشهر معنا، ثم تنعقد جلسة استماع للمجلس، إذا كانوا لا يحبون طرقنا يقولون ذلك، وإذا كُنا نعتقد أنهم لن يكونوا مُناسبين معنا نقول ذلك، وإذا كانوا لائقين، يبقون؛ إذا لم يكونوا كذلك، فإننا نوصلهم إلى جزر القنال، أو نُعيدهم إلى البر الرئيسي، إذا كانوا غريبين بما يكفي لتفضيل ذلك.

سأله دينيس:

- يبدو أن لديكم لمسة من الديكتاتورية، كيف شكلتم مجلسكم هذا؟

- سيستغرق الأمر وقتًا طويلًا للانغماس في الأسئلة الدستورية الآن، أفضل طريقة للتعرف علينا هي المجيء ومعرفة كل ما تريدون، إذا أحببتم أبقوا، وإذا لم يُعجبكم فأظن أنكم ستجدون جُزر القناة مكانًا أفضل من معقلكم هذا، في غضون بضع سنواتٍ من الآن.

في المساء، وبعد أن أقلع إيفان واختفى بعيدًا في الجنوب الغربي، ذهبت وجلست

على المقعد المفضل لي في رُكنٍ من أركانِ الحديقة، نظرت إلى الوادي وتذكرت المروج التي كانت هناك أول ما وصلت إلى هُنا، الآن تحولت إلى حقولٍ مُهملة كالغابات، مليئة بأحواض القصب والبرك الراكدة، أما الأشجار الكبيرة فتغرق ببطء في التربة الرطبة، فكرت في كوكر وحديثه عن القائد والمعلم والطبيب، وكل العمل الذي قد نحتاجه لدعم أرضنا، وكيف سيؤثر ذلك على كل واحد منا إذا سُجنا ها هنا، الثلاثة المكفوفون يشعرون بعدم الجدوى والإحباط مع تقدمهم في السن، سوزان ينبغي أن تنال فرصة الزواج والأطفال في الوقت المُناسب، من حق دافيد وابنة ماري الصغيرة وأي أطفال آخرين أن يعيشوا طفولة سعيدة وأن يتعلموا ويصبحوا أقوياء بما فيه الكفاية، كما نُضطر أنا وجوسيلا إلى العمل بجدية أكبر رغم تقدمنا في السن لوجود المزيد ممن يجب إطعامهم والاعتناء بهم بالإضافة إلى الأعمال التي يجب القيام بها يدويًا، ثم هُناك التريفيدات التي تنتظرنا بصبر، بإمكاني رؤية المئات منهم في سياجٍ أخضر داكن خلف سياجنا، يجب أن يتم البحث عن بعض الأعداء الطبيعيين لهم؛ بعض السموم أو شيء يُفقدهم توازنهم؛ يجب أن ننتهي منهم لنتفرغ للأعمال أخرى، وإلا.. فقريبًا سنجد الوقت في صالح التريفيدات، عليهم فقط أن يستمروا في الانتظار بينما نستنفد مواردنا، أولًا ينفد الوقود، ثم تنتهي الأسلاك فلا نُصلح الأسوار، وسيظلون هم أو أحفادهم ينتظرون هُناك عندما يصدأ السلك.. وينهار..

ورغم كل ذلك، شيرننج أصبحت منزلنا، فزفرتُ بقوة، سمعت خطوات خفيفة على العشب، أتت جوسيلا وجلست بجانبي، فوضعت ذراعي حول كتفيها.

- ما رأيك في الأمر؟

إنهم مُستاءون بشدة، من الصعب عليهم تخيل كيف تنتظر التريفيدات هكذا وهُم لا يرونها، ولا بد أنه أمر مخيف أن تضطر إلى التفكير في الذهاب إلى مكانٍ غريبٍ تمامًا عندما تكون كفيفًا، هم فقط يعرفون ما نقوله لهم ولا أعتقد أنهم يفهمون بشكل صحيح كيف سيكون الأمر مُستحيلًا هنا، لولا الأطفال لقالوا (لا) بشكلٍ قاطعٍ، إنه بيتهم كما ترى، كُل ما تبقى لهم، هذا ما يشعرون به.

توقفت لثوانٍ ثم أضافت:

- إنهم يعتقدون كذلك.. أنه ليس مكانهم حقًا على الإطلاق؛ بل هو لنا، أليس كذلك؟ لقد عملنا بجد من أجل ذلك.

وضعت يدها على يدي وقالت:

- لقد صنعته واحتفظت به لنا يا بيل، ماذا تعتقد؟ هل نبقى سنة أو سنتين؟

- كلا، لقد عملت لأن كل شيء بدا أنه يعتمد عليّ، والآن يبدو كل ما فعلته عديم الجدوى.

- أوه، حبيبي، لا! الفارس الضال ليس عديم الجدوى، لقد قاتلت من أجلنا جميعًا وأبعدت التنانين.

- أنا خائف على الأطفال.

نعم، الأطفال، أنت مُحق.

- وطوال الوقت- كما تعلمين- تُطاردني أفكار كوكر؛ الجيل الأول، العمال؛ الجيل التالي، المتوحشون! أعتقد أن الأفضل هو الاعتراف بالهزيمة قبل أن تأتي، ونذهب الآن.

ضغطت على يدي وقالت:

- ليست هزيمة يا عزيزي، إنه.. ما هي الكلمة؟ انسحابٌ استراتيجي، ننسحب كي نعمل ونخطط لليوم الذي يُمكننا فيه العودة، ويومًا ما سنفعل، وستوضح لنا كيفية القضاء على كل تريفيد قذر، ونستعيد أرضنا منهم.

- تؤمنين بالكثير يا حلوتي.

- ولما لا؟

- حسنًا، على الأقل سأقاتلهم، لكن أولًا، نرحل من هنا.

- متى؟ هل تعتقد أننا يمكن أن نتركهم يقضون الصيف هنا؟ فلنعتبرها نوعًا من الإجازة بالنسبة لنا جميعًا، دون استعدادات لفصل الشتاء، ونحن نستحق عطلة أيضًا.

- حسنًا.

جلسنا نشاهد الوادي يذوب في الغسق، فقالت لي:

- هذا غريب يا بيل، الآن يُمكنني الذهاب ولا أُريد ذلك حقًا، في بعض الأحيان يبدو الأمر وكأنه سجن، ولكن أشعر أني سأغدر به إن تركته، كُنت سعيدة هنا أكثر من أي وقت مضى في حياتي.

- بالنسبة لي يا حلوتي، أنا لم أكن على قيد الحياة قبل هُنا، وقبلكِ، وسننال أوقاتًا أفضل بعد ذلك، أعدكِ.

- هذا سخيف، لكنني سأبكي عندما نذهب، سأملئ دِلاء كثيرة، ولا تمانع.

ولكن مع انهيار الأمور، كُنا جميعًا مشغولين جدًا بما هو أهم من البكاء.

انسحاب استراتيجي

لم تكُن هُناك حاجة للإسراع كما أوضحت جوسيلا، قضينا الصيف في شيرننج وأمكنني البحث عن منزل جديد لنا في الجزيرة والقيام بعدة رحلات هناك لنقل المواد والعتاد الأكثر فائدة من المتاجر، وفي غضون ذلك نفد مخزون الخشب، لم نكن بحاجة إلى وقود إلا لاستخدام المطبخ لبضعة أسابيع، لذا في صباح اليوم التالي انطلقت أنا وسوزان لجلب الفحم.

أقرب مستودع فحم للسكك الحديدية على بعد عشرة أميال فقط، لكن سلكنا كالعادة فالطريق الدائري، بسبب انسداد بعض الطرق وسوء حالة البعض الآخر، وهذا يعني أن الأمر سيستغرق طوال اليوم تقريبًا.

عندما انعطفنا إلى أخر دوران من مسار عودتنا، ومع لسع التريفيدات للعربة بلا كلل كما هو الحال دائمًا من ضفتي الطريق، حدقنا بدهشة، فخلف بوابتنا توقفت مركبة متوحشة المظهر في فناءنا، صدمنا المشهد لدرجة جعلتنا نجلس ونحدق فيها للحظات، قبل أن ترتدي سوزان خوذتها وقفازاتها وتتسلق لفتح البوابة فلحقت بها.

رأينا أن هيكل السيارة المُخيفة مدعوم بمسارات معدنية مما يشير إلى أصلها العسكري، شكلها العام يوحي باستخدامها كمقصورة أو عربة مُتنقلة صنعها بعض الهواة، ثم توجهنا إلى الداخل لمعرفة المزيد.

وجدنا أربعة رجال يرتدون بدلات تزلج رياضية رمادية وخضراء في غُرفة المعيشة بالإضافة إلى أسرتنا، اثنان منهم يُمسكان بمسدسين مُثبتين على الفخذ الأيمن لكلٍ منهما؛ بينما أوقف الاثنان الآخران مدفعيها الرشاشين على الأرض بجوار كُرسيّهما، وعندما وصلنا نظرت جوسيلا إلينا بوجهٍ خالٍ تمامًا من التعبيرات.

- هذا زوجي، بيل، وهذا السيد تورينس، يقول أنه مسؤول من نوعٍ ما ولديه مُقترحات ليُقدمها لنا.

لم أسمع صوتها بهذه البرودة من قبل، ولم أُفلح في الرد، الرجل الذي تُشير إليه لم يتعرف عليّ، لكنني تذكرته، هذا الشعر الأحمر المميز، تذكرت جيدًا الطريقة التي

نجح بها هذا الشاب الكُفء في جعل فريقي يتقهقر في هامستيد، أومأت إليه برأسي فقال وهو ينظر إليّ:

- فهمت أنك المسؤول هنا، سيد ماسِن؟

- المكان يخص السيد برنت.

- أعني أنك مُنظم هذه المجموعة؟

- في ظل هذه الظروف، نعم.

- جيد، أنا قائد المنطقة الجنوبية الشرقية.

قالها كما لو أن هذا يجب أن ينقل شيئًا مهمًا بالنسبة لي، وهذا لم يحدث فقلته له، فأوضح:

- هذا يعني أنني الرئيس التنفيذي لمجلس الطوارئ في المنطقة الجنوبية الشرقية لبريطانيا، ومن واجباتي الإشراف على توزيع الموظفين.

- في الواقع، لم أسمع من قبل بهذا المجلس.

- ربما، كُنا على نفس القدر من الجهل بوجود مجموعتك هنا حتى رأينا الحريق بالأمس، عندما نكتشف وجود مثل مجموعتك، فإن وظيفتي هي التحقيق في أمرها وتقييمها وإجراء التعديلات اللازمة، لذلك يُمكنك اعتباري موظفًا رسميًا.

- نيابة عن مجلس رسمي؟ أم أنه مجلس مُنتخب ذاتيًا؟

فقال بصلابة:

- يجب أن يكون هناك قانون ونظام.

ثم غير لهجته وتابع:

- لقد بنيت مكانًا جيدًا يا سيد ماسِن.

- بناه السيد برنت.

- سوف نترك السيد برنت خارج الموضوع، إنه هُنا فقط لأنك سمحت له بالبقاء هنا.

نظرت إلى دينيس ثم إليه، وقلت:

- ومع ذلك، فهو ملكه.

- كان كذلك في الماضي، لكن حالة المجتمع فرضت عقوبات على ملكيته، وبالتالي لم تعُد موجودة، كما أن سندات الملكية لم تعُد صالحة، والسيد برنت غير مُبصر، لذلك لا يمكن بأي حال من الأحوال اعتباره قادرًا على شغل السلطة.

لدي نفور شديد من هذا الشاب وطرقه الحاسمة بسبب لقائنا الأول، وما يحدث الآن لا يُهدئني، أردف قائلًا:

- هذه مسألة بقاء، لا يُمكن السماح للمشاعر بالتدخل في الإجراءات العملية اللازمة، والآن؛ أخبرتني السيدة ماسِن أنك رقم ثمانية إجمالًا، خمسة بالغين، وهذه الفتاة وطفلين صغيرين، كلكم مبصرون، ما عدا هؤلاء الثلاثة.

وأشار إلى دينيس وماري وجويس.

- هذا صحيح.

- هذا غير مُتناسب البتة، وكما تعلم، أخشى أن بعض التغييرات ستتم ها هُنا، علينا أن نكون واقعيين في أوقات كهذه.

التقت عيناي بعينيّ جوسيلا، فرأيت تحذيرًا فيهما، لكن لم تكُن لدي أي نية للانفجار في تلك اللحظة، لقد رأيت الأساليب المباشرة للرجل، وأريد معرفة المزيد عما أواجهه.

- من الأفضل أن أضعك في الصورة، باختصار، المقر الإقليمي في برايتون، شرعان ما أصبحت لندن سيئة للغاية بالنسبة لنا، لكن في برايتون تمكنا من تطهير جزء من المدينة ووضعها تحت الحجر الصحي، برايتون مكان كبير، وعندما تجاوزنا المرض وتمكنا من البحث هُنا وهُناك، وجدنا الكثير من المتاجر، دخلت قوافلنا في الآونة

الأخيرة أماكن أخرى، لكن هذا ينطوى الآن على المرور بطُرقٍ تزداد سوءً بالنسبة للشاحنات، وعليها أن تبتعد كثيرًا، اعتقدنا أننا يُمكن أن نبقى هُناك لسنواتٍ أطول، لكن ما باليد حيلة، المهم أننا تعهدنا برعاية الكثيرين منذ البداية، فتعين علينا التفرق، الطريقة الوحيدة للاستمرار هي العيش بعيدًا عن الجزيرة الأم، وللقيام بذلك علينا أن ننقسم إلى وحدات أصغر، وتم تحديد الوحدة القياسية إلى مُبصرٍ واحد معه عشرة مكفوفين بالإضافة إلى أية أطفال معهم، لديك هُنا مكان كبير جيد وقادر على دعم وحدتين، سنُخصص لك سبعة عشر شخصًا كفيفًا، ليُصبحوا عشرين كفيفًا في المجموع، بالإضافة بالطبع إلى أي أطفال لديهم.

- هل تقترح بجدية أن يتمكن عشرين شخصًا وأطفالهم من العيش على هذه الأرض، هذا مُستحيلٌ تمامًا، كنا نتساءل عما إذا كنا قادرين على دعم أنفسنا بالوضع الحالي.

- هذا مُمكن تمامًا، وما أقدمه لكم هو أمر الوحدة المزدوجة التي سنقوم بتثبيتها هنا، وبصراحة، إذا كنت لا تهتم بأخذها فسنضع شخصًا آخر يرغب في ذلك، لا يُمكننا تحمل الهدر في هذه الأوقات.

- لكن انظر فقط إلى المكان، إنه ببساطة لا يتحمل ذلك.

- أؤكد لك أن هذا مُمكن يا سيد ماسِن، سيتعين عليك بالطبع خفض معاييرك قليلًا، وسنقوم جميعًا خلال السنوات القليلة القادمة وعندما يكبر الأطفال في تحملِ مخاض التوسع معه، وربما لمدة ست أو سبع سنوات ستترك العمل الشاق- وهو أمر لا يُمكنك تجنُبه- وستتمكن من الاسترخاء تدريجيًا حتى تقوم بالإشراف الكامل ببساطة بعد ذلك، من المؤكد أن هذا سيُحقق عائدًا جيدًا بعد بضعة سنوات فقط من العمل الأصعب، أخبرني، ما نوع المستقبل الذي تنتظره في وضعك الحالي؟ لن تجد شيئًا غير العمل الجاد إلى أن تموت، وسيواجه أطفالك العمل نفس المصير، ولا هدف لهم إلا الاستمرار لا أكثر من ذلك، من أين يأتي قادة وإداريو المستقبل في هذا النوع من الإعداد؟ طريقتك ستجعلك مُرهقًا، سُتستهلك وتظل مُسخرًا لعشرين عامًا أخرى، وسيُصبح كل أطفالك ريفيين أجلاف، أما على طريقتنا فستكون على رأس عشيرة

تعمل من أجلك، وتكون ميراثًا تُسلمه لأبنائك.

بدأت أفهم نوعًا ما، فقلت باستغراب:

- هل أفهم أنك تقدم لي نوعًا من الحكم الإقطاعي؟

- أرى أنك بدأت تفهم، بالطبع، هذا هو الشكل الاجتماعي والاقتصادي الواضح والطبيعي تمامًا للحالة التي نواجهها الآن.

لا شك أن الرجل يطرح هذا الأمر كخُطة جادة، تجنبت التعليق عليه بتكرار قولي:

- لكن المكان لا يستطيع دعم هذا العدد الكبير.

- سيتعين عليك ولسنوات إطعام المُقيمين معك وجبات من التريفيدات المهروسة، لن تجد نقصًا في تلك المادة الخامة حسبما يبدو.

- طعام الماشية!

- قيل لي أنها غنية بالفيتامينات الهامة، والمتسولون- خاصةً المتسولين العميان- لا يسعهم الاختيار.

- تقترح بجدية أن أتحمل كل هؤلاء الناس بالمعيشة على علف الماشية؟

- اسمع يا سيد ماسِن، إذا لم يكن الأمر بأيدينا، فلن ينجو أي من هؤلاء المكفوفين ولا أطفالهم، عليهم فعل ما نقوله لهم، وأخذ ما نقدمه لهم، ويشكروننا على ذلك، وإذا رغبوا في رفض ما نقدمه، حسنًا، ستكون جنازتهم وحدهم.

ليس من الحكمة أن أقول ما شعرت به حيال هذه الفلسفة حينها، قلت له لأذهب به إلى زاوية أخرى:

- لا أفهم، أخبرني، ما موقفك أنت ومجلسك في كل هذا؟

- السلطة العليا والتشريعية مُناطة بالمجلس، سوف يحكم وسيُسيطر على القوات المسلحة.

- القوات المسلحة!

- بالتأكيد، ستُجمع القوات عند الضرورة، عن طريق دفعك للضرائب المفروضة عليك بما يُسمى السيادة الإقطاعية، وسيكون لك الحق في المقابل في استدعاء المجلس في حالات الهجمات الخارجية أو الاضطرابات الداخلية.

بدأت أشعر بالضيق وأنا أتمتم:

- جيش! بالتأكيد تقصد فرقة شرطة صغيرة متنقلة.

- أرى أنك لا تُدرك الوضع بصورته الشاملة سيد ماسِن، هذا البلاء الذي عانينا منه لم يقتصر على جزيرتنا وحدها، بل ظهر في كل أنحاء العالم، وفي كل مكان يوجد نفس النوع من الفوضى، لا بد أنه كذلك أو كُنا لنسمع أو نرى أمورًا مختلفة الآن، ولا بد من وجود ولو عددٍ قليلٍ من الناجين في كل بلد، من المنطقي إذن أن تُتاح الفرصة لأول دولة تقف على قدميها مرة أخرى وتُرتب ما بداخلها لإعادة النظام في دولة أخرى، هل تقترح علينا ترك الفرصة لدولة أخرى، وبالتالي تتحول إلى القوة المُهيمنة الجديدة في أوروبا وربما فيما هو أبعد من ذلك؟ لن يحدث هذا، من واجبنا الوطني أن نقوم من كبوتنا في أسرع وقت ممكن ونُهيمن على الوضع، حتى نقدر على منع المُعارضة الخطيرة من تنظيم صفوفهم ضدنا، لذلك كلما أسرعنا في حشد القوة الكافية لتثبيط أي مُعتدين مُحتملين كان ذلك أفضل.

ساد الصمت للحظات في الغرفة، ثم ضحك دينيس بشكلٍ غير طبيعي:

- يا الله! لقد عشنا كل هذا، والآن يقترح الرجل إشعال حرب.

قال تورينس بعد قليل:

لا يبدو أن كلامي واضحًا، كلمة حرب مُبالغة لا مبرر لها، ستكون مجرد مسألة تهدئة وإدارة للقبائل التي عادت إلى الفوضى البدائية.

فقال دينيس بسخرية:

- هذا إذا لم تخطر لهم نفس فكرة تحقيق الخير بالطبع.

أدركت أن كلًا من جوسيلا وسوزان ينظُران إليّ بشدة، أشارت جوسيلا إلى سوزان دون أن تنزع بصرها عني، وأدركت السبب، فقلت للجميع :

- اسمحوا لي أن أفهم أكثر، تتوقع أن نتحمل الثلاثة المسؤولية الكاملة عن عشرين بالغًا مكفوفًا، وعددٍ غير مُحدد من الأطفال، واضح أن..

قاطعني بقوله:

- المكفوفون ليسوا عاجزين بالكامل، يُمكنهم فعل الكثير كرعاية أطفالهم بشكل عام والمُساعدة في تحضير طعامهم، وإذا وضعنا لهم نظامًا صحيحًا يُمكن اختصار قدر كبير من الإشراف والتوجيه، ولكن سيبقى اثنان منكم هنا؛ أنت وزوجتك، لا أنتم الثلاثة.

نظرت إلى سوزان؛ كانت جالسة باستقامة ظهرها في ثيابها الزرقاء، تربط شعرها بشريطٍ أحمر، هُناك نداء قلق وتوتر في عينيها وهي تتطلع إليّ وإلى جوسيلا، فقلت له:

Telegram:@mbooks90

- نحن الثلاثة معًا.

- أنا آسف سيد ماسِن، تخصيص الوحدات هو عشرة مكفوفين لكل مُبصر، ستأتي الفتاة إلى المقر الرئيسي، ويُمكننا أن نجد لها عملًا مُفيدًا هناك حتى تبلغ من العمر ما يكفي لتولي مسؤولية وحدة بنفسها.

- أنا وزوجتي نعتبر سوزان ابنة لنا.

- أكرر أسفي، لكن هذه هي اللوائح.

وأخذ ينظر إليّ بثبات، فقلت في النهاية:

- سنطلُب ضمانات وتعهدات بخصوصها، إذا كنتم ستفعلون ذلك.

سمعت تسارع أنفاس سوزان وتورينس، وقال لي بنبرة أهدأ:

- من الطبيعي أن نمنحك كل الضمادات المطلوبة.

- يجب أن تمنحوني الوقت لأفكر في كل شيء، هذا وضعٌ جديد تمامًا بالنسبة لي، هُناك بعض النقاط تتبادر إلى ذهني، فالمُعدات هنا تبلى ومن الصعب العثور على المزيد، وأرى أنه بعد فترة طويلة سأحتاج إلى خيول قوية.

- الخيول صعبة، هناك مخزون ضئيل للغاية منهم في الوقت الحاضر، سيكون عليك استخدام القوى البشرية لبعض الوقت.

- المباني المُلحقة صغيرة جدًا بالنسبة للاحتياجات القادمة، خاصة الإقامة.

- بمقدورنا مساعدتك في هذا الشأن.

واصلنا مناقشة التفاصيل لعشرين دقيقة أو أكثر، وفي نهاية الأمر أظهر شيئًا من المودة؛ فتخلصت منه بإرساله في جولة في المكان مع سوزان كمُرشدة له، فقالت جوسيلا بعدما أغلقت الباب خلف تورنس ورفاقه:

- بيل، ماذا بحق السماء؟

أخبرتها بما أعرفه عن تورينس وطريقته في التعامل مع المشاكل بإطلاق النار على رأس الكفيف المريض.

قال دينيس:

- هذا لا يُفاجئني على الإطلاق، ما يُثير دهشتي هو أنني أشعر فجأة بلطف التريفيدات، فبدون تدخلهم، أعتقد أننا كُنا سنرى المزيد من هؤلاء الناس، إذا كانت التريفيدات هُم العامل الوحيد الذي يُمكن أن يمنع عودة العبودية، فحظًا سعيدًا للنباتات.

- الأمر برُمته مُنافٍ للمنطق والعقل، كيف سنستطيع أن نعتني أنا وجوسيلا بحشد مثل هذا مع إبقاء التريفيدات بعيدًا؟ المشكلة هي أننا لن نتمكن من قول لا لاقتراح طرحه أربعة رجالٍ مُسلحين.

- إذن لن..

- حبيبتي، هل تخيلتيني من قبل في منصب إقطاعي، أقود أقناني والفلاحين

المأجورين وأضربهم بالأسواط، حتى لو لم تجتاحني التريفيدات؟

- لكنك قُلت..

- اسمعي، الليل يقترب، وفات أوان مُغادرتهم الآن، سيجُبرون على البقاء هنا الليلة، وأظن أن ما يجول ببالهم هو أخذ سوزان معهم غدًا كرهينة جيدة لاختبار سلوكنا، أتفهمونني؟ وقد يتركون رجلًا أو اثنين من رجالهم ليراقبونا، حسنًا، لا أعتقد أننا سنقبل بذلك، ألستم معي؟

أومأوا برؤوسهم وقالوا:

- حسنًا، آمل أني أقنعته بموافقتي على فكرته، والليلة سيأكلون معنا عشاءً سيعتبرونه موافقتنا الضمنية، يجب أن يكون شهيًا وعلى الجميع أن يأكلوا كثيرًا، وامنحي الأطفال الكثير أيضًا، وقدمي أفضل المشروبات لدينا، وقُرب انتهاء الوجبة سأختفي قليلًا، إستمروا في الحفل لتتستروا عليّ، شغلوا تسجيلات صاخبة أو شيء من هذا القبيل، وحفزوا الجميع على الصياح والغناء، هُناك نقطة أخرى؛ لا أحد يذكر مايكل بيدلي وزُمرته، لا بد أن تورنس يعرف عن جزيرة وايت، لكن يجب ألا يظن أننا نعرف، والآن.. ما أريده هو كيس سكر.

- سكر يا بيل؟

- ليس عندنا؟ حسنًا يا جوسيلا، أريد علبة عسل كبيرة، أعتقد أنها ستفي بالغرض.

تصرف الجميع بشكلٍ مُقنِع للغاية في العشاء، أحضرت جوسيلا بعضًا من شرابها القوي لإكمال طاولة المشروبات التقليدية، وقد تقبله فريق تورينس، واسترخوا بعدها بسعادة فخرجت دون إزعاج.

التقطت حزمة من البطانيات والملابس وطردًا من الطعام أعددته سابقًا، وأسرعت بهم عبر الفناء إلى السقيفة، حيث نحتفظ بالشاحنة نصف المُجنزرة، وملأت خزاناتها حتى فاضت من الصهريج الذي يحوي إمدادات الوقود الرئيسية لدينا، ثم حولت انتباهي إلى سيارة تورينس الغريبة، وباستخدام ضوء مُصباح كهربي يدوي تمكنت من تحديد موقع غطاء خزان الوقود وصببت ربع جالون أو أكثر من عسل النحل في

الخزان.

بإمكاني سماع المُحتفلين وهم يُغنون، ويبدو أن الأمر يسير على ما يُرام، وبعد أن وضعت بعض العتاد المُضاد للتريفيدات إلى شاحنتي، عُدت للانضمام إلى الحفلة حتى انتهينا منها وسط مناخ من النوايا الحسنة كما أظهرناها لهم.

أعطيناهم ساعتين ليستغرقوا في النوم جيدًا.

طلع القمر وغمر الفناء بضوئه الأبيض، نسيتُ أن أدهن أبواب السقيفة التي ناموا فيها بالزيت، وألعنهم مع كل صرير، جاء الباقون في موكبٍ، آل برينت وجويس على دراية كافية بالمكان بحيث لا يحتاجون إلى أيادٍ إرشادية، وتبعتهم جوسيلا وسوزان تحملان الطفلين، ارتفع بكاء ديفيد النائم فجأة فسرعان ما أوقفته يد جوسيلا بوضعها على فمه، وظلت هكذا وهي تُسرع لتصعد إلى الشاحنة، تأكدت أن الأخرين نائمون ثم أغلقت باب المنزل، صعدت إلى مقعد القيادة وقبلت جوسيلا، وتنفست بعمق، وعبر الفناء رأيت التريفيدات تتجمع عند البوابة، كما فعلت دائمًا عندما لا نُزعجها لبضع ساعات مُتتاليات.

وبكرمٍ من السماء دار مُحرك نصف المُجنزرة في الحال، فسرت بها بسرعة مُنخفضة، وانحرفت لتجنب سيارة تورينس، وقُدت نحو البوابة مباشرة، فحطمنا الحاجز الثقيل واخترقنا الشِباك والأسلاك والأخشاب المكسورة وأسقطنا عشرات التريفيدات بينما تلسعنا البقية بشدة أثناء مرورنا، وهكذا سرنا في طريقنا.

مع أول مُنعطفٍ في مسار التسلق نظرنا أسفل منا إلى شيرننج، توقفنا مؤقتًا ورأينا الأضواء مُضاءة خلف بعض النوافذ، وبينما نُراقب الوضع اشتعلت النيران في السيارة وأضاءت المنزل.

شعرت بوخز من عدم الارتياح أثناء اشتعال مُحرك عربتهم، رغم أنني أعلم أننا نمتلك أضعاف سرعة تلك الأداة المُتثاقلة، بدأت الآلة تدور والعجلات تلف حول مساراتها لتواجه البوابة.

وقبل أن تُكمل المُنعطف، تعثر المحرك وتوقف تمامًا.

حاولوا إدارة المُحرك مرة أخرى واستمر الطنين المُنفعِل، دون نتيجة.

اكتشفت التريفيدات أن البوابة سقطت، بامتزاج ضوء القمر ومصابيح العربة الأمامية، ورأيناهم يدخلون ويتأرجحون في الفناء، بينما يتمايل الآخرون على ضفاف الممر.

نظرتُ إلى جوسيلا فلم أجدها تبكي، ثم نظرنا إلى دافيد النائم بين ذراعيها.

- معي كل ما أحتاج إليه يا بيل، حقًا، وفي يوم من الأيام سنُعيدنا إلى الباقين، أعرف ذلك.

- الثقة الزوجية سمة جميلة جدًا يا عزيزتي.

خرجتُ لأزيل الحطام من الجزء الأمامي من الشاحنة، ومسحت السُم عن الزُجاج الأمامي لأتمكن من القيادة، وعبرت الطريق بين التلال لأبتعد عنها باتجاه الجنوب الغربي.

وهناك تنضم قصتي الشخصية إلى باقي القصص، ستجدونها في تأريخ إلسبيث كاري المُمتاز للمستعمرة.

آمالنا كلها تتركز هُنا، من غير المحتمل أن يأتي أي شيء من خُطة تورينس الإقطاعية الجديدة رغم أن عددًا من أعضائه أقطاعيته لا يزالون موجودين، يعيش شكانها- كما نسمع- حياة من البؤس المُزري وراء حواجزهم، بين الحينِ والآخر يقول إيفان بوقوع اجتياحات أخرى، وأن التريفيدات التي تُحيط بالأماكن تفرقت للانضمام إلى حصار أخرٍ، لذلك أرى وجوب التفكير في المهمة التي تنتظرنا على أنها مُهمتنا وحدنا، نعرف طريقنا جيدًا ونراه، ولا يزال هُناك الكثير من العمل والبحث الذي يتعين القيام به قبل اليوم الذي نعبر فيه المضايق مع أطفالنا- أو رُبما يعبرون هم مع أطفالهم- في حملة كبيرة لدفع التريفيدات إلى الخلف، وسندمرهم تمامًا ونمسح آخر تريفيد من على وجه أرضنا التي اغتصبوها.

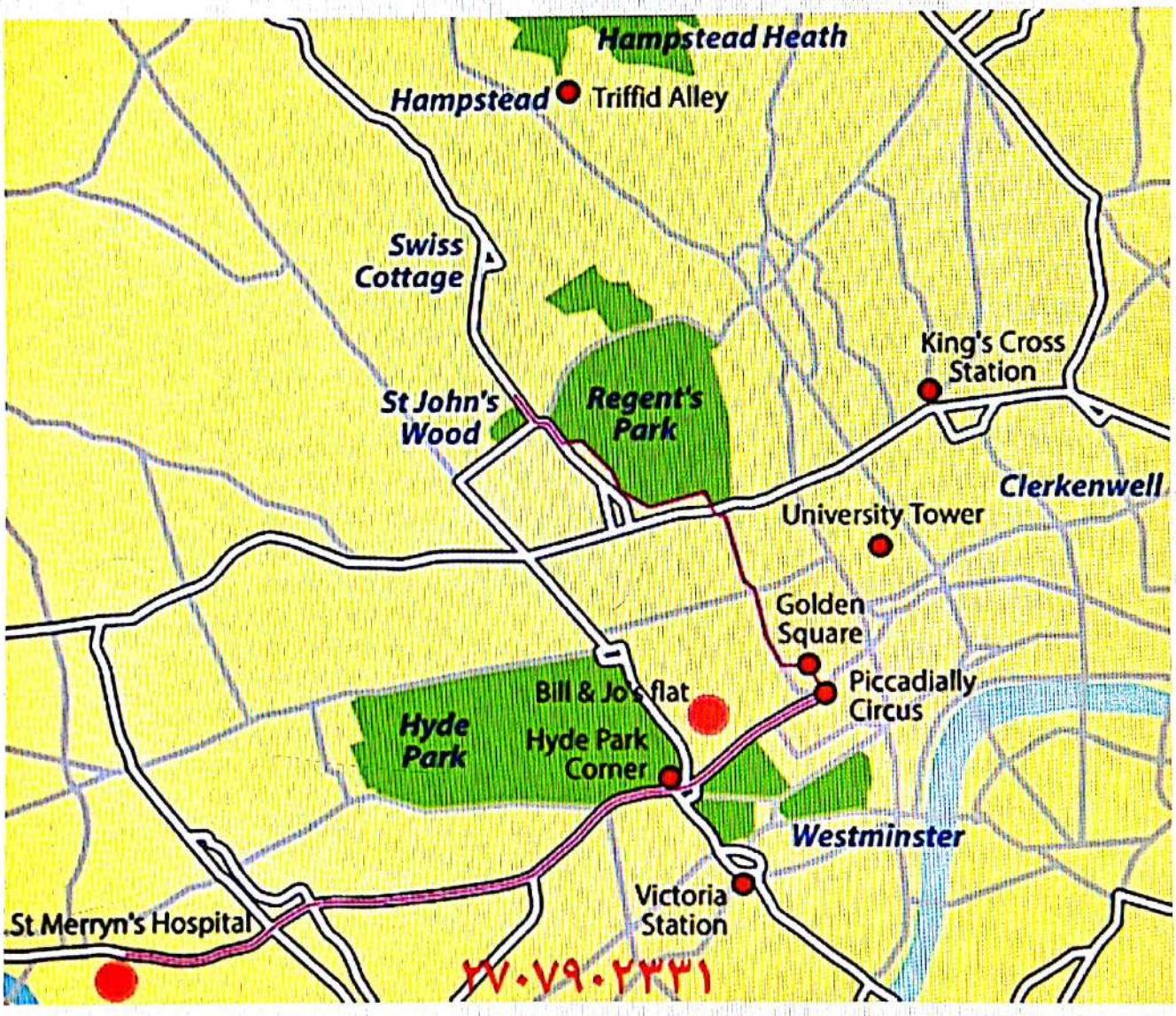
Hampstead Heath
Hampstead
Triffid Alley
Swiss Cottage
King's Cross Station
St John's Wood
Regent's Park
Clerkenwell
University Tower
Golden Square
Piccadially Circus
Bill & Jo's flat
Hyde Park
Hyde Park Corner
Westminster
Victoria Station
St Merryn's Hospital
٢٧٠٧٩٠٢٣٣١

عن الرواية

نشر جون ويندام هذه الرواية عام 1951، وتُعتبر أفضل ما كتب في حياته، وبعد خمسة وعشرين عامًا من نشرها تقول جريدة التايمز البريطانية عنها: كل الحقائق تتحقق هناك ككوابيس واضحة، وقال عنها أرثر سي كلارك: قصة خالدة

يُفوت بيل ماسِن أكبر وابل شهب تشهده انجلترا والعالم بسبب الضمادات الموضوعة على عينه، ومع انتزاعها في اليوم التالي يكتشف وجود جحافل من العميان تتجول في لندن، ثم يلتقي جوسيلا؛ امراة محظوظة لنجاتها من فقدان البصر، يُحاولان مُغادرة المدينة معًا دون أن يعرفوا أن العالم الآمن المألوف قد انتهى بدايةً من اليوم.

للنجاة في هذا العالم الخارج من كوارث العمى الجماعي وهجوم التريفيدات، وهي نباتات غريبة ظهرت في العالم فجأة، طول سيقانها يبلغ سبعة أقدام ويُمكنهم المشي وقتل البشر بضربة سوطية واحدة من لسعاتهم السامة، تتغذى على الحم البشري، وكذلك الطاعون المجهول السبب، وانهيار المجتمع الإنساني كله، يُقدم ويندام مُقاربة اجتماعية مُثيرة للعالم في الخمسينات، وأثر وجود أسلحة الدمار الشامل وخاصة الأسلحة البيولوجية، ونسمع قصص العديدين ممن حاولوا الاحتفاظ بإنسانيتهم وسط أحداث تدعوهم للعودة إلى الهمجية بكل سهولة.

رُشحت الرواية لجائزة الفانتازيا العالمية عام 1952، ووضعت في قائمة بي بي سي للقراءة الكبرى عام 2003 ضمن أفضل مائتي رواية بريطانية بعد تلقي أكثر من ثلاثة أربع مليون صوت، وفي عام 2021 اختارها البريد الملكي البريطاني مع خمس روايات خيال علمي انجليزية أخرى للظهور على الطوابع البريطانية؛ باقي الروايات هي: فرانكنشتاين لماري شيللي، وآلة الزمن لهربرت جي ويلز، وعالم شجاع جديد لألدوس هكسلي، ونهاية الطفولة لأرثر سي كلارك، وشيكاستا لدوريس ليسنج.

عن المترجم

د. أحمد تركي

صيدلي وروائي وكاتب ومترجم، وُلد بمحافظة الإسكندرية عام 1990، نشر مجموعة من الأعمال الورقية والالكترونية منها:

(شقوق الفزع): الرواية الفائزة بجائزة النشر في دار إبداع للنشر والتوزيع، صدرت في يناير 2019.

(الظل خارج الزمان): وهي ترجمة لرواية

The Shadow out of Time

للكاتب الأمريكي هوارد فيليبس لافكرافت، بالاشتراك مع عمار المصري، صدرت عن دار دارك للنشر والتوزيع-ديسمبر 2019.

(الوجوه البيضاء): وهي ترجمة لرواية

The White People

للكاتب الأيرلندي أرثر ماكِن، صدرت عن دار دارك للنشر والتوزيع-يونيو 2021.

(بيت على الحدود): وهي ترجمة لرواية

The House on the Borderlands

للكاتب الإنجليزي ويليام هوب هودسن، صدرت عن دار منشورات ابييدي للنشر والتوزيع-يناير 2022، وهي من الأكثر مبيعًا في جناح الدار في معرض القاهرة الدول للكتاب 2022.

(فارس الحق): الجزء الأول من سلسلة روايات ملاحم فارس الحق، صدرت عن دار إبهار للنشر والتوزيع-يونيو 2021.

(سماء هادئة): مجموعة قصصية مترجمة مُجمعة من موقع Creepypasta

وReddit، صدرت عن دار يوريكا للنشر والتوزيع-يونيو 2021.

كتاب (أسرار التسوق بالمحتوى) عن دار يوريكا للنشر والتوزيع- أغسطس 2022.

وله خمسة أعمال تصدر في معرض القاهرة الدولي للكتاب 2023:

رواية (بارهليون) عن دار ن للنشر والتوزيع.

المجموعة القصصية المُترجمة (حلقة لافكرافت) بالاشتراك مع حلمي مطر، تأليف عدد من الكُتاب.

والرواية بين يديك (يوم التريفيدات) لجون ويندام، ويصدر العملان عن دار الرسم بالكلمات.

كتاب (حينما تُعطى الكلمة) للويس إي لوماكس.

كتاب (رحلة إلى الأرض المقدسة) لأيدا فايفر، ويصدر العملان عن داري الفنار ويوريكا للنشر والتوزيع.

الإصدارات الإلكترونية:

- (قصتي مع جلجامش): كتاب يبحث في تاريخ الملحمة السومرية-سبتمبر 2019.

- (ديمو-الأعمال الإكترونية الكاملة لعام 2020): وهي مجموعة من القصص المؤلفة والمترجمة لمؤلفين كبار أمثال نيل جايمان ولافكرافت وتيري بايسون وأثر سي كلارك.

- (سماءهادئة:الموسم الأول): وهي مجموعة قصصية مُترجمة، نُشرت على حلقات في شهري ديسمبر 2020 ويناير 2021.

- ترجمة قصة حديقة الحيوانات الورقية لكين ليو، منشورة في موقع كتب مملة.

- ترجمة قصة جهاد فوق مدينة اينزماوث لإدوارد موريس، منشورة على موقع جريدة يوريكا.

- ترجمة قصة التاجر وبوابة الخيميائي لتيد شيانغ، منشورة على البروفايل الشخصي.

- ترجمة كورس العادات الخمسة عشر للكتاب العظماء لجيف جوينز.

- ترجمة العديد من قصص الرعب والخيال العلمي والفانتازيا، وبعض المقالات ضمن مبادرات حث المؤلفين الشباب على إنهاء كتابة ونشر أعمالهم.

Notes

[←1]

نافذة واسعة مزدوجة تحتل أجزاء كبيرة من الجدران.

[←2]

رسام فرنسي شهير (1832-1883)

[←3]

الفيلد مارشال سير بيرنارد مونتجومري (1887-1976) الذي قاد البريطانيين للانتصار في معركة العلمين الثانية في الصحراء الغربية المصرية ضد القوات النازية بقيادة رومل.

[←4]

مشروب كحولي قوي ذو طعم جاف للغاية، ولهذا يُخلط مع الأنواع الأخرى، نسبة الكحول فيه 37.5%.

[←5]

Whorl: مُصطلح في علم النباتات يصف ترتيب أوراق النبات أو كؤوس أو بتلات الأزهار أو حتى الفروع بطريقة تتشعب بها من نقطة واحدة ثم تلتف حول الجذر وتُحيط به.

[←6]

Indochina: الهند الصينية الفرنسية هي اتحاد فيدرالي مكون من ثلاثة أقاليم فيتنامية ومقاطعة صينية بالإضافة إلى كمبوديا ولاوس، وكانت جزء من إمبراطورية فرسنا في جنوب شرق أسيا، تأسس الاتحاد عام 1887، وتفكك عام 1954.

[←7]

The pitcher goes so often to the well that it is broken at last ، يعني أن استخدام الشيء بإفراط سيؤدي إلى تلفها في النهاية.

[←8]

لورد بايرون (1788-1824) شاعر بريطاني ورائد في الحركة الرومانسية.

[←9]

ميدان أو سيرك بيكاديللي، من أشهر ميادين لندن ومن أهم وجهات السياح.

[←10]

في قصة بلد العميان لجورج هربرت ويلز، لم ينجح المُستكشف الكولومبي نونيز في حكم العميان الذين وجدهم مُنعزلين عن العالم، وكانوا على وشك انتزاع عينيه منهُ لما حسبوه تخيلاته المرضية لا إبصاره الحقيقي.

[←11]

Fullonius، في كتاب كوميديا أكولاستس، ولا نعرف عنه شيئًا إلا نصه الذي بقى.

[←12]

نسيج شفاف وخفيف من الحرير، ولا يلمع بسقوط الضوء عليه

[←13]

Spizzard: دمج بين كلمتي spiv و lizard.

[←14]

يُقال أن مصطلح lounge lizard ظهر لأول مرة عام 1915 في نيويورك، كما ظهر كعنوان لمشهد في فيلم صاني سايد لشارلي شابلن عام 1919.

[←15]

تقصد ألدوس هكسلي وتشارلز ديكنز غالبًا.

[←16]

Lake district: منطقة جبلية تقع في شمال غرب انجلترا، مشهورة بشعبيتها عند الجمهور لقضاء العُطلات، وكثرة البحيرات والتراث الأدبي الانجليزي.

[←17]

Balborough: قرية وأبرشية في حي بولسوفير، ديربيشاير في وسط بريطانيا.

[←18]

Sic transit Gloria mundi: جملة لاتينية تغني "وهكذا يمر فخر العالم"، وهي جملة كانت تُستخدم في تنصيب بابا الفاتيكان بين عامي 1409 و1936، وتعني أن المجد والفخر وكل ما إلى ذلك عابرٌ، لا يدوم.

[←19]

Other times, other customs: يعني في عصورٍ أخرى كان الناس يتصرفون بطرق مُختلفة.

[←20]

حي يقع غرب لندن، ويعتبر من أرقى أحياء العاصمة البريطانية.

[←21]

Brigham young: (1801-1877)، قائد ديني وسياسي أمريكي وثاني رئيس لكنيسة يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة، عُرف باسم موسى الأمريكي لأنه قاد أتباعه الرواد المورمونيين عبر الصحراء إلى ما اعتبره أرضًا موعودة في يوتا.

[←22]

يقصد المُسلمين طبعا، وهو هنا يرى أن من حق المسلم الزواج من ثلاثة زوجات لا أربعة كما هو شائع.

[←23]

رائدة التمريض الحديث (1820-1910) والمعروفة بلقب السيدة حاملة المصباح، لم تتزوج لشعورها بأنه سيُقيدها بالواجبات المنزلية.

[←24]

ملاك السجون (1780-1845) وهي مُصلحة إجتماعية بريطانية، عملت على إصلاح أحوال السجون وبخاصة بالنسبة للنساء، ونجحت في فصل السجناء الإناث عن الذكور وتعيين حراس

من النساء عليهن.

[←25]

مصابيح كهربائية شديدة الإضاءة تُستخدم في صناعة الأفلام

[←26]

قبعة دائرية ذات حافة قاسية عند الجبهة.

[←27]

Terrace: شرفة غير مسقوفة تُبنى على أسطح المباني، تُرجمت كذلك بالمَشرَقة لأنها مُعرضة للشمس، يُقعد فيها للاسترخاء والاستدفاء، أنظر المجلد الأول من معجم ألفاظ الحضارة-مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق-2014-ص 62-61.

[←28]

ويلتشير، مقاطعة بريطانية.

[←29]

من قصيدة إلى سيدته الحبيبة To his coy mistress للشاعر الإنجليزي أندرو مارفل (1621-1678).

[←30]

بيرسي شيلي، شاعر إنجليزي (1792-1822)

[←31]

من أخر سطور قصيدة Lycidas لجون ميلتون.

[←32]

خطأ شعري حقيقي شائع.

[←33]

Bloodhound: فصيلة من الكلاب الشمامة كبيرة الحجم، يُستخدم بكثافة ككلب بوليسي لاشتهاره بتمييز رائحة الإنسان.

[←34]

مدينة في جنوب غرب إنجلترا، تطل على نهر اكس.

[←35]

Micawber: شخصية خيالية في رواية ديفيد كوبرفيلد لتشارلز ديكنز، وهو معروف بالفقر والتفاؤل بحدوث الحظ الجيد في ذات الوقت.

[←36]

Jam-tomorrow-Pie-in-the-sky: مصطلح مجازي يعني حرفيًا انتظار الحلوى بالغد، ووجود فطيرة في السماء، وهي أمور غير مُرجحة التحقق، وتعني استبعاد حدوث أمر سعيد في المستقبل.

[←37]

ثياب تتميز بكونها مُضادة للماء.

[←38]

Save our souls: أنقذوا أرواحنا، وهو اختصار استغاثة معروف.

[←39]

جزيرة ومقاطعة بريطانية تقع أقصى شمال القناة الإنجليزية قرب ساحل إنجلترا الجنوبي وهامبشير.

[←40]

قرية في جزيرة وايت

[←41]

Cornwall: مقاطعة ساحلية في جنوب غرب انجلترا، فيها طريقان يوصلانها ببقية بريطانيا العظمى، وإصبع القدم هنا تُشير إلى أخر جزء من أرض كورنوال.